جامعة حلوان
كلية الآداب
قسم التاريخ

حضارة قرطاجة

رسالة مقدمة من

سناء سعد سيد فرج

لنيل درجة الماجستير في التاريخ اليوناني- الروماني

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور
محمود إبراهيم السعدني
أستاذ تاريخ الحضارة اليونانية الرومانية
ووكيل الكلية لشئون البيئة وخدمة المجتمع

٢٠٠٧

جامعة حلوان

كلية الآداب

قسم التاريخ

حضارة قرطاجة

رسالة مقدمة من

سناء سعد سيد فرج

لنيل درجة الماجستير في التاريخ اليوناني- الروماني

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور

محمود إبراهيم السعدني

أستاذ تاريخ الحضارة اليونانية الرومانية

ووكيل الكلية لشئون البيئة وخدمة المجتمع

٢٠٠٧

اعتماد الرسالة من لجنة الحكم والمناقشة

اسم الباحث : سناء سعد سيد فرج

الدرجة العلمية : الماجستير

عنوان الرسالة : حضارة قرطاجة

الإشراف : أ.د / محمود إبراهيم السعدني – استاذ تاريخ الحضارة اليونانية الرومانية- ووكيل كلية الآداب لشئون البيئة وخدمة المجتمع. جامعة حلوان.

تاريخ التسجيل : ٢٠٠٢/٦/٣

تاريخ المناقشة : ٢٠٠٧/٤/١٩

تكونت لجنة المناقشة من السادة الأساتذة:

م	الاســم	الوظيفة	الصفة باللجنة	التوقيع
١	**أ.د/ محمود إبراهيم السعدني**	أستاذ تاريخ الحضارة اليونانية الرومانية – ووكيل كلية الآداب لشئون البيئة وخدمة المجتمع جامعة حلوان	رئيساً ومشرفاً	
٢	**أ.د/ محمد السيد عبد الغني**	أستاذ التاريخ والحضارة اليونانية الرومانية كلية الآداب- جامعة الإسكندرية	عضواً	
٣	**أ.م.د/ أبو اليسر عبد العظيم فرج**	أستاذ التاريخ اليوناني الروماني المساعد- كلية الآداب- جامعة عين شمس	عضواً	

يعتمد

وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث



بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

صدق الله العظيم

سورة التوبة الآية (١٠٥)

إهداء

إلـــــى

والدي الحاج/ سعد سيد فرج

لتشجيعه لي دائماً علي تحصيل العلم، ومواصلة دراستي العليا.

وإلـــــي

والدتي الغالية/ *القلب الحنون:*

أطال الله في عمرها ومتعها بالصحة والعافية.

وإلـــــي

شقيقتي العزيزة المهندسة/ صفاء سعد سيد حفظها الله

والي إبنة أخي الغالية/ فرح علاء الدين، مصدر السعادة والبسمة .

والي كل أخوتي وأخواتي جميعاً .

شكر وتقدير

في البداية لا يسعني إلا أن أتقدم بالحمد الكثير والشكر الجزيل لله العزيز القدير، لما منحه لي من عزيمة وإرادة وصبر طوال سنوات الدراسة مكنتني من مواصلة وإنجاز هذا العمل، فأحمد الله عز وجل الذي وفقني إلى ذلك.

"وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ".

(سورة إبراهيم، الآية ٧)

وبعد الله عز وجل، أتوجه بالشكر إلى أستاذي الأستاذ الدكتور

محمود إبراهيم السعدني.

وأخيراً، أتوجه بالشكر والتقدير لجميع المكتبات والمؤسسات العلمية التي قدمت لي يد العون والمساعدة لإتمام هذه الدراسة، وهي:-

١- المكتبة المركزية بجامعة القاهرة والعاملين بها.

٢- مكتبة مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة والعاملين بها.

٣- مكتبة الإسكندرية والعاملين بها.

٤- مكتبة جامعة عين شمس والعاملين بها.

٥- مكتبة القاهرة الكبرى والعاملين بها.

٦- مكتبة المركز الثقافي الأمريكي بالقاهرة والعاملين بها.

٧- مكتبة المتحف المصري للآثار والعاملين بها.

٨- مكتبة دار الكتب والوثائق المصرية والعاملين بها.

المقدمة

تعــد حــضارة قــرطاجة واحــدة من أعظم وأقوى حضارات العالم القديم في غرب المتوسط. فقد استطاعت مواجهة وتحدي كثير من شعوب العالم القديم مثل اليونانيين والرومان وغيــرهم. كمـــا اســتطاعت قرطاجة تولي زعامة الفينيقيين في الغرب جميعاً، بعد أن أصاب الـــوهن جـــسد مدينتها صور (وطنها الأم) وسقوطها في النهاية على اثر الضربات المتلاحقة التـــي تلقــتها علـــي يـــد الغزاة المختلفين، تاركة الغرب الفينيقي فريسة للاعتداءات اليونانية علــيها.ولكن قرطاجة كانت على قدر المسئولية التي ألقيت علي عاتقها وحملت بقوة وشجاعة لواء الدفاع عن هذه التركة الثقيلة والذود عنها، بل وعملت أيضا علي تنميتها وتوسيع أرجائها حتى صارت إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف. ولقد عملت قرطاجة علي نشر حضارتها فـــي جميع أرجاء مستوطناتها المختلفة وخاصة في أفريقيا. ومن الجدير بالذكر أن الكثير من معـــالم الحضارة القرطاجية ظلت باقية في تلك البقاع الإفريقية لقرون طويلة بعد تدمير المدينة وزوالهـــا مـــن الوجود، ووقوع هذه البقاع تحت السيادة الرومانية. وتعد الحضارة القرطاجية، وفتـــرة تأثيرها التي امتدت لما يقرب من سبعة قرون في شمال أفريقيا من أهم فترات التاريخ الفينيقـــي فـــي الغـــرب علي الإطلاق، فضلاً عن التاريخ الأفريقي وحوض البحر المتوسط، وخاصة الغربي منه.

وهذا ما دفعني إلى اختيار موضوع "**حضارة قرطاجة**"، لنيل درجة الماجستير.

وتنقـــسم هـــذه الدراســـة إلى تمهيد وخمسة فصول. ولقد تناولت في ***الفصل التمهيدي*** دراســـة موجـــزة لتاريخ مدينة صور "الوطن الأم لقرطاجة" منذ البداية وحتى سقوطها علي يد الاسكندر الأكبر في عام ٣٣٢ ق.م، بالإضافة إلى دراسة موجزة أخرى عن السكان المحليون وحضارتهم الأولى قبل وصول القرطاجيين إلى هناك.

أما الفصل الأول، فيتناول مدينة قرطاجة بشكل عام، من حيث أسطورة النشأة، وتاريخ التأسيس، والموقع الجغرافي، والتخطيط، والسكان، ودستورها ونظام الحكم فيها.

بيـــنما يتحدث الفصل الثاني عن النشاط الاقتصادي القرطاجي من زراعة، وصناعة، وتجارة، ورحلات استكشافية.

ويتناول الفصل الثالث الأحوال الاجتماعية، والمظاهر الحضارية في قرطاجة.

في حين يتناول ***الفصل الرابع*** الحياة الثقافية والدينية القرطاجية.

أما الفصل الخامس (والأخير)، فيتناول نهاية قرطاجة وتدميرها علي يد الرومان في عام ١٤٦ق.م، وذلك من خلال تناول أحداث ومعارك الحروب البونية الثلاثة.

ولـنا هـنا ملاحظة ضرورية، وهي أن البحث في موضوع حضارة قرطاجة ينطوي علـى الكثيـر من الصعوبات، كما يكتنف الغموض بعض جوانبه، فالمدينة دمرت ووثائقها ضـاعت، فـضلاً عن أن العون الذي يمكن أن يقدمه علم الآثار محدود. ففي معظم الحالات، أقيمت فوق المستوطنات القرطاجية مدن رومانية ضخمة. ومن ثم نجد أنفسنا مضطرين في الـنهاية إلـى الاعتماد على كتابات المؤرخين الرومان واليونان المشوبة بكثير من التجني والـتحامل، نظراً للعداء والكراهية والحقد الذي يكنونه للقرطاجيين في صدورهم، مما يجعلنا نأخذ كتاباتهم هذه بمزيد من الحذر والحيطة. فضلاً عن أن هذه الكتابات تركز بشكل ملحوظ ومـستفيض علـى الحروب القرطاجية سواءً ضد اليونانيين أو الرومان. أما بالنسبة لباقي جـوانب الـتاريخ القرطاجـي، فالمعلومات قليلة ومتفرقة وغير منظمة، ومليئة بالفجوات، وأحياناً يصعب تجميعها وترتيبها في تسلسل تاريخي منطقي.

ولكن في النهاية، أحمد الله الذي وفقني إلى إنجاز هذا العمل.

والله ولي التوفيق

الفهـــــرس

الموضـــــوع	الصفحة

التمهيد

لمــا كانــت قرطاجة هي مستعمرة فينيقية أسسها مهاجرون من مدينة صور كانوا قد وفــدوا إلـــى شـــمال أفـــريقيا، لذلك وجدت من الضروري، قبل الخوض في دراسة "حضارة قـــرطاجة" إعطــاء دراســـة موجـــزة عن الوطن القديم (صور)، وعن الوطن الجديد (شمال أفريقيا). ولذلك سوف ينقسم التمهيد إلى قسمين :

أولاً:- **صور** : وسوف أتناول فيه موجزاً لأهم الأحداث والهجمات التي تعرضت لها.

ثانــياً:- الــسكان المحليون من البربر(في الوطن الجديد الإفريقي): وسوف أحاول رسم صـــورة موجزة لحضارتهم القديمة عامة، وقبائلهم قبل وصول القرطاجيين إلى هناك.

أولاً:- صور:

هـــي مدينة فينيقية[١] ، وتعني في اللغة الفينيقية والكنعانية "الصخرة"[٢]. كان قد أسسها جماعـــة مـــن صيدا، فظلت خاضعة لهم وقتاً طويلاً، حيث تسلطت صيدا علي المدن الفينيقية حوالـــي ١٢٠٠ سنة[٣]. و تقع صور علي بعد ٤٠ كم جنوب صيدا، و٩٥ كم جنوب بيروت. وطـــبقاً لـــرواية هيرودوت، تم إنشائها قبل قدوم هيرودوت إليها (حوالي عام ٤٥٠ق.م) بألفين وثلاثمائة سنة. وبذلك تكون صور قد تأسست في حوالي عام ٢٧٥٠ ق.م[٤].

وكانـــت صور تتبع وسائل دفاع مزدوجة، حيث لم تمكنها البيئة الطبيعية التي سكنتها مـــن تكـــوين دولـــة موحدة قوية، مثل سائر المدن الفينيقية الأخرى، فلجأت إلى احتلال جزر صـــغيرة أمامهـــا إلـــى جانب موقعها علي الساحل، حتى إذا ما تعرضت للهجوم من أية قوة معادية التجأت إلى تلك الجزر التي كانت محصنة جيداً هي الأخرى.

وبفضل ذلك استطاعت صور مقاومة الكثير من الاعتداءات والحصار الذي كان أحياناً يـــستمر لسنوات طويلة[٥]. وكانت المدينة محاطة بسور له أبراج مرتفعة كما يتبين من الرسوم

---

(١) و يطلق علي الفينيقيين أيضا اسم الكنعانيون. وقد اختلف المؤرخون في أصل التسمية، فمنهم من يري أنه مـــن أصل سامي "كنع" أو "خنع" بمعني المنخفض، أي الأرض المنخفضة التي سكنوها. ومنهم من يري أن أصله هندو أوربي "كناجي" بمعني صبغة حمراء، التي حرفت إلى كنعان أي بلاد الأرجوان ولذا عرفها اليونان باسم فينيقيا كمرادف لهذه التسمية وتدل علي فلسطين وجزء كبير من سوريا. انظر:-
محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٥٨.

(٢) أحمد أرحيم هبو، تاريخ الشرق القديم (١) سورية، الطبعة الأولى، بيروت-صنعاء، ١٩٩٣، ص ٢٥٥.

(٣) هارفي بورتر، موسوعة مختصر التاريخ القديم، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩١، ص ٩٧.

(٤) محمد بيومي مهران، المغرب القديم، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ص ١٦٥، ١٦٦.

(٥) محمـــد أبـــو المحاســـن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر، بيروت، ١٩٧٩، ص ص ٢٧٨، ٢٧٩.

الموجـودة علـي بوابة الملك الآشوري شلمانصر الثالث (منتصف القرن التاسع ق.م)، وذلك رغم وجودها علي جزيرة(٦). وكانت بيوت صور تتكون من طبقات كثيرة. كما أنها كانت تعد مـن أغنـي المدن الفينيقية علي الإطلاق، حتى قيل أنه في حوالي أواخر القرن السادس ق.م، كانـت الفـضة التي تجمعت في صور كأنها التراب، والذهب كأنه وحل الطرقات. وكان هذا الـرخاء قائمـاً علـي الـتجارة في المقام الأول(٧).وبلغ من عظمة التجارة في صور واتساع أرجائهـا علـي مـستوي العـالم القـديم كله أن جاء ذكرها في التوراة علي لسان حزقيال، (الإصحاح ٢٦-٢٧)، حيث وصف تجارتها بالعبارات التالية:-

"يا صور أنت قلت أنا (سفينة) كاملة الجمال. تخومك في قلب البحور. بناؤوك تمموا جمالـك عملـوا كـل ألواحك من سرو حرمون. أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوه لك صواري. صـنعوا مـن بلوط باشان مجاديفك....كتان مطرز من مصر شراعك ليكون لك راية...جميع سـفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك.....ترشيش (تارتسوس) تاجرتك بكثرة كـل غني بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك... جزائر كثيرة تجار يديك. أدوا هديتك قروناً من العاج والأبنوس..... (٨)".

وكـان لـصور ميـناءان، الشمالي و يعرف بالمرسى الصيداوي لأنه مواجه لصيدا و الجنوبي و يطلق عليه المرسى المصري لأنه مواجه لمصر(٩).

لقـد سـبق وأن ذكـرنا أن صور كانت خاضعة لصيدا فترة طويلة من الوقت إلى أن أخذت صيدا تضعف تحت تأثير هجمات الفلسطينيين. ومنذ ذلك الوقت أخذت صور تتقدم حتى احـتلت مكانة صيدا وسيطرت علي بقية المدن الفينيقية، وكانت أنجح من صيدا في سيطرتها علـي تلـك المدن؛ فعظم أمر الفينيقيين كثيراً أيام رياسة صور. ومما ساعد علي نجاحها أكثر هو أن مصر أخذت تضعف فاستقلوا عنها واتسعت تجارتهم كثيراً(١٠).

ومـن أشـهر ملوك صور علي الإطلاق، أحيرام الأول (حوالي ٩٦٩ -٩٣٦ ق.م)، وهـو الذي قام مع أبيه أبى بعل، أول ملوك صور (٩٨٠- ٩٦٩ ق.م) بمحاولة الاستقلال عن صـيدا وبـناء الدولـة الخاصـة بهم والتي تحل محل صيدا بعد ضعفها. وهو الذي استكمل

(٦) يولي بركوفيتش تسيركين، الحضارة الفينيقية في إسبانية،(ترجمة: يوسف أبي فاضل، مراجعة: ميشال أبي فاضل)، الطبعة الأولي، بيروت، ١٩٨٨، ص٧١.

(٧) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ص ١٦٦، ١٦٧.

(٨) محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، لبنان، الجزائر، ١٩٨٢، ص ص ٥٩-٦٠؛ انظر أيضا:- أحمد أرحيم هبو، المرجع السابق، ص ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(٩) لبيب عبد الساتر، الحضارات، الطبعة الثالثة عشرة، بيروت، ١٩٩٣، ص ٧٦ ؛ انظر أيضا:- محمد الصغير غانم ، المرجع السابق، ص ٦٤.

(١٠) هارفي بورتر، المرجع السابق، ص ٩٨.

الخطوات اللازمة للاستقلال، واستطاع تحويل صور من مجرد مدينة عادية إلى مملكة عظيمة ذات شأن كبير. كما وسع في المدينة بردم البحر وضم الجزيرة الصغرى إلى الجزيرة الكبرى وجـدد بـناء معبد ملقرت وأنشأ معبداً جديداً لعشتارت (وسوف يتم الإشارة إليها فيما بعد في الفـصل الـرابع)؛ كما بني قصراً جميلاً لسكن ملوك صور ونظم الموانئ وحصنها جيداً مما سـاعد علـي ازدهـار التجارة بشدة في عهده. كما حصن المدينة كلها وجعلها قلعة حصينة اسـتطاعت أن تقف في وجه الأعداء مرات عديدة. ولقد اشتهر أحيرام بعلاقته مع سيدنا داود وسليمان؛ إذ عاون الثاني في بناء معبد أورشليم والقصر. كما أمده بالمواد الخام اللازمة لذلك وخاصـة خـشب الأرز. وأمده، أيضا، بالمهندسين والعمال اللازمين لذلك، وكذلك أعانه علي إنشاء أسطوله البحري. ولقد جمعت بينهما صلات تجارية ومصاهرة فقويت العلاقات والمودة بينهما(١١).

ولقـد تعرضـت صور لكثير من الهجمات الآشورية وغيرها، وذلك ابتداء من القرن التاسـع ق.م تقـريباً، وذلـك نظـراً لأهميتها كمدينة بحرية حيث تعد من أهم المنافذ البحرية الفينيقـية. وكانـت مملكة آشور في حاجة ماسة لتلك المنافذ البحرية الهامة من أجل ازدهارها وتقـدمها. فمـنذ ذلـك التاريخ بدأت أنظارها تتجه نحو فينيقيا عامة، وصور خاصة من أجل الـسيطرة عليها. ولقد أدت هذه الهجمات المتكررة إلى ضعف صور وتدهورها تدريجياً حتى آلت إلى السقوط في النهاية علي يد الاسكندر الأكبر، كما سوف نري.

ففـي عـام ٨٧٦ ق.م، اضـطرت صور إلى دفع الجزية والخضوع للملك الآشوري "ناصر بال الثاني"، وفي عام ٨٥٣ ق.م شاركت في حلف ضد "شلمنصر الثالث"، حيث دارت بين الفريقين موقعة "قرقر" الشهيرة. ولكن الملك الآشوري استطاع في عام ٨٤٢ ق.م، إرغام المدن الفينيقية- وخاصة صور وصيدا - علي دفع الجزية(١٢).

وعـندما اعتلـي تجـلات بلاسر الثالث عرش آشور قام بعدة حملات لفتح سوريا ثم اسـتطاع ولـده شلمنصر الخامس (٧٧٢- ٧٢٧) ق.م اجتياح فينيقيا ومدنها، وعاونته كل من صـيدا وعكـا وصور البرية حيث كانت ترغب في التحرر من السيطرة المالية لمدينة صور التـي فـي الجزيـرة، فاعترفت جميعاً بالغازي، وأمدته بأسطول يتكون من ستين سفينة. ولقد

---

(١١) أحمد صفر، مدنية المغرب العربي في التاريخ، الجزء الأول، تونس، ١٩٥٩، ص ٨٣ ؛ انظر أيضا:- أحمد أرحيم هبو، المرجع السابق، ص ٢٥٥ ؛ وأيضا:- هارفي بور تر، المرجع السابق، ص ٩٩.

(١٢) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ١٦٨ ؛ انظر أيضا:- لبيب عبد الساتر، المرجع السابق، ص ص ٧٨، ٧٩ ؛ انظر أيضا:-

Hutchinson's History Of The Nations, The Phoenicians And The Carthaginians, VoL. 1-11, Part. VIII, London, Not Dated, P. 317.

واجهه أهل صور البحرية باثنتي عشرة سفينة فقط، كما استبسلت في الدفاع عن كيانها، حتى غرق الأسطول الآشوري.

وأخيراً انتهي الحصار الذي دام خمس سنوات في عام ٧٢٢ ق.م، بمعاهدة تحفظ لصور كرامتها(١٣).

ولقد توالت الغزوات الآشورية علي صور بعد ذلك. ففي عهد "سرجون الثاني" أعلنت صور وعسقلان العصيان، إلا أنه استطاع إعادة السيطرة علي المدن الفينيقية والسورية. وبعد وفاة سرجون انتهز ألوليوس ملك صور الفرصة وتسلط علي مدن فينيقيا و أمتنع عن دفع الجزية. لكن سنحريب استطاع عند اعتلائه العرش إخضاع هذه المدن وهاجم صور فهرب ملكها وأقام عليها ملكاً آخر يدعي إثبعل.

ومنذ ذلك الوقت ضعفت صور وزالت سيادتها عن مدن فينيقيا. ولما ثارت بعد ذلك في وجه أسرحدون في نحو سنة ٦٨٠ ق.م، تمكن هذا الملك من إخضاعها و إخضاع فينيقيا كلها(١٤). ولقد ثارت أيضا في وجه آشور بانيبال، ولكنه استطاع إخضاع صور البحرية وحملها علي قبول شروطه بعد أن قطع عنها إمدادات المياه العذبة. ولكن صور كانت لديها مصادر مياه عذبة كافية داخل المدينة عن طريق ينابيع، وهذا ما جعلها تصمد لبعض الوقت وتسلم من الخضوع والاستيلاء عليها وقبول شروط الصلح، بينما تم إخضاع بقية مدن الساحل الأخرى(١٥).

وبقيت صور وفينيقيا كلها خاضعة لآشور حتى سقوط هذه المملكة، ولكن صور خضعت بعد ذلك للملك الكلداني "نبوخذ نصر" (٦٠٥- ٥٦٢) حيث حاصرها لمدة ثلاثة عشر عاماً تقريباً(١٦)، ولقد تحطمت مقاومتها بعدها، واضطرت إلى الإستسلام في النهاية ودخلتها قوات الكلدانيين ودمرت مبانيها. ومنذ ذلك الحين (٥٧٤ ق.م) تخلت صور عن مكانتها وخضعت لنبوخذ نصر وفقدت استقلالها(١٧).

ومن الجدير بالذكر أنه بعد تدمير صور وخضوعها للملك الكلداني، هاجر كثير من سكانها إلى مستعمرات صور الموجودة في غربي البحر المتوسط وكان من ضمنها قرطاجة

---

(١٣) محمد بيومي مهران، نفسه ؛ انظر أيضا:- محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر، ص ٢٨١ ؛ وأيضا:-

Hutchinson's History Of The Nations, OP. Cit., P. 317.

(١٤) هارفي بورتر، المرجع السابق، ص ١٠١.

(15) Hutchinson's History Of The Nations, Op. Cit., p. 317.

(١٦) وفي رواية أخرى يقال أن الحصار قد دام لمدة إحدى عشر عاماً. انظر:-

Hutchinson, Op. Cit., p. 318.

(١٧) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ١٦٩ ؛ انظر أيضا:-

www.xenohistorian.faithweb.com.

المديـــنة الناشـــئة في شمال أفريقيا، والتي يعتقد أنه تم إنشائها من أجل هذا الغرض خصيصاً، كما سوف نري عند الحديث عن أسطورة نشأة المدينة[١٨].

وفـــي تلـــك الأثـــناء اشتدت الاعتداءات اليونانية علي المستعمرات الفينيقية، وخاصة الـصورية، فـــي الغـــرب و تحديداً في صقلية. ولم تستطع مدينة صور حمايتها والدفاع عنها بـسبب الـضغط الآشـوري والبابلي الكلداني. وهنا بدأت مدينة قرطاجة تحتل مكان الزعامة وعملـت علي تحقيق تلك الحماية. ويمكن القول أنه منذ ذلك الوقت بدأت قرطاجة تظهر كقوة جديدة في غربي البحر المتوسط وأنها قد تحولت من مجرد مستعمرة صغيرة تابعة لصور إلى إمبراطورية شاسعة الأرجاء حيث ورثت كل تركة الفينيقيين في الغرب، وليس ذلك فحسب بل عملت أيضا علي تنميتها وتوسيعها[١٩].

وفـــي عهـد حيروم ملك صور (٥٥٢– ٥٣٢ ق.م)، دخل قورش بابل وبالتحديد في الـسنة الـرابعة عـشرة مـن حكمه، واستقل حيروم بصور. وبعد استيلاء الفرس علي بابل خـضعت لهم فينيقيا، واتصف حكم الفرس بالتسامح. لكن هزيمة الفرس في سلاميس اليونانية (٤٨٠ ق.م) أدت إلـــى الفتور في العلاقات، وبدأت الثورات ضد الفرس وظلت الحال مشوبة بالقلق حتى مجيء الاسكندر الأكبر[٢٠].

وفـــي تلك الأثناء قام الاسكندر بغزو كل ساحل فينيقيا الذي دان له بالولاء ورحبت به جمـيع المـدن الفينيقـية ماعدا صور، التي وافقت فقط علي الصداقة دون أن تقبل الخضوع والإذعـان لـه. وعندئذ أراد الاسكندر التحايل عليهم من أجل دخول المدينة فطلب السماح له بدخـول المديـنة وتقديم القرابين لملقرت، إله صور الرسمي. ولكن الصوريين رفضوا طلبه هـذا. عندئذ فرض الاسكندر الحصار علي المدينة، وأنشأ كوبري لكي يصل الشاطئ بالجزيرة ثـم جمـع أسـطول كبير يقدر بحوالي ٢٢٠ سفينة من صيدا و رودس وقبرص وغيرها من المـدن الفينيقـية. وعندئذ استطاع أن يتحكم في الشواطئ ويسد كل المداخل إلى ميناء صور. وحـارب الـصوريون ببـسالة وشـجاعة بالغة. لكن في الشهر السابع من الحصار استطاع الاسـكندر الاسـتيلاء علي المدينة وارتكب مجزرة بشعة فيها، وباع الناجيين في سوق العبيد. وبعـد دخـول الاسكندر المدينة بعد تدميرها قدم القرابين لملقرت ثم وضع حامية عسكرية في

---

(18) www.phoenicia.org.

(١٩) رشيد الناضوري، المغرب الكبير (١) العصور القديمة، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٧٢ ؛ انظـر أيـضا:– محمد الهادي الشريف، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاسـتقلال، تعـريب: محمد الشاوش– محمد عجنية، الطبعة الثانية، تونس، ١٩٨٥، ص١٩؛ انظر أيضا:– محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، بيروت، ١٩٨١، ص ٧٢.

(٢٠) هارفي بورتر، المرجع السابق، ص ١٠٢ ؛ انظر أيضا:– لبيب عبد الساتر، المرجع السابق، ص٨٠.

الجزيرة وجعلها قاعدة بحرية، وكان ذلك في يوليو عام ٣٣٢ ق.م(٢١). ومن الجدير بالذكر أن أهــل صــور قــبل الهجوم الأخير للاسكندر وقواته عليها، قاموا بإرسال النساء والأطفال إلى قرطاجة، كما هاجرت أيضا معظم العائلات القوية إلى هناك(٢٢). وبذلك تكون هذه هي الهجرة الثانــية مــن صور إلى قرطاجة. وهكذا سقطت صور المدينة الأم العظيمة لكي تفسح المجال لأبنــتها المزدهــرة، والتــي حلــت محلها في السيادة علي الإمبراطورية الفينيقية في الغرب، قرطاجة.

ثانياً: السكان المحليون:-

إن الــسكان المحليــين فــي أفــريقيا قــبل وصول الفينيقيين (القرطاجيين) هم البربر (*Barbaros*)، وكــان يطلــق علــيهم أيــضا اسم (الليبيين) (٢٣). وهناك من يري أن البربر يــرجعون فــي أصولهم البشرية إلى عنصر البحر المتوسط. ويطلق البربر علي أنفسهم تعبير "الأمازيــغ" أي "الأحــرار". وقــد كان انتقالهم إلى شمال أفريقيا عن طريق الهجرات الحامية الكبرى إلى القارة الأفريقية عبر مضيق باب المندب(٢٤).

ولقــد قــسم هيــرودوت الليبيــين إلى مجموعتين من القبائل وجعل بحيرة تريتونيس (Tritonis) الحد الفاصل بين الاثنين، إحداهما إلى الغرب من البحيرة و معظمهم من الزراع المستقرين، والثانية إلى الشرق منها وأغلبهم من البدو والرعاة. وأساس هذه التفرقة يرجع إلى اخــتلاف نــوع الحــياة فــي كــل مــنهما ولا يــرجع إلى اختلاف في العنصر(٢٥). وكان الأديــرماخيديين(*Adyrmachidae*) هــم الشعب الذي يسكن بالقرب من مصر بل يعد أقرب شعب منها، حتى أنهم كانوا يتبعون نفس العادات المصرية في معظمها(٢٦).

---

(21) Hammond, N.G.L, A History Of Greece To 322 B.C, Oxford, 1959, pp.611-612.
(22) Mommsen. T, The History of Rome,(Abridged By: Bryans. C. & Hendy. F),1st.Edition,U.S.A, London, 1960, p.118;

انظر أيضا:- هارولد لام، هانيبال، الألف كتاب ٤٢١، (ترجمة: رشدي السيسي، راجعه: توفيق الطويل)، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٩.

(٢٣) إن تــسمية "ليبيــين" أو "ليبــيا" هنا ليس المقصود بها ليبيا الحالية وسكانها، إنما هي التسمية التي أطلقها اليونان قديماً علي القارة الأفريقية من قبل أن تعرف باسم أفريقيا. ثم تقلص مدلول التسمية ليقتصر فيما بعد علي شمال أفريقيا .

انظــر:- جــان مازيــل، تــاريخ الحضارة الفينيقية (الكنعانية)، الطبعة الأولى،(ترجمة: ربا الخش، تقديم ومراجعة: عبد الله الحلو)، سوريا، ١٩٩٨، ص١٥٥.

(٢٤) رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(25) Herodotus, IV, 168.

انظر أيضا:- عبد العزيز عبد الفتح عمر حجازي، البحرية القرطاجية (دراسة في دورها الحربي)، رسالة دكتوراة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، فبراير ١٩٨٥، ص ٢٥.

(26) Ibid, 168.

ويـــبدو أن هـــؤلاء البربر كان لديهم حضارة متكاملة، من حياة اجتماعية و اقتصادية ودينـــية.........الـــخ، قبل مجيء الفينيقيين عامة، والقرطاجيين خاصة، إلى القارة الأفريقية. وفيما يلي سوف نحاول رسم صورة موجزة لهذه الحضارة وأهم أركانها.

وتـــدل المكتـــشفات الأثـــرية الكثيرة علي وجود حياة اجتماعية لدي الليبيين منذ أقدم العـــصور. والخلية الأولى في المجتمع البربري هي العائلة "الأغنية" التي تقوم علي ذكور من ســـلالة واحدة. وكانت لديهم عادة تعدد الزوجات، وهذا ما يفسر كثرة مرات الإنجاب الخارقة للعادة [٢٧]، مثل النسامونيين[٢٨] (*Nasamones*).

أما عن مساكن البربر، فكانوا في البداية يعيشون في الكهوف ولكن فيما بعد بمئات بل ربما بآلاف السنين، أصبحت هذه الأماكن لا تلائم البدو الرحل ولذلك كانوا يفضلون نوعاً آخر مـــن المنازل المتنقلة كان يمكن فكها وتركيبها وتغطي بالحصر، وكان يطلق عليها اسم مباليا (*Mapalia*). أمـــا الحضر فكانوا يعيشون إما في إخصاص من فروع الشجر، أو في أكواخ مـــربعة مبنية من حجر أو طين جاف. ولقد أنشأ البربر قلاعاً حصينة لحماية ثرواتهم. وكانوا يـــتجمعون في قري تتكون من مجموعات متناثرة من الأكواخ، يطلقون عليها اسم كاستيللا[*] (*Castella*) [٢٩].

وكـــان البربر يستخدمون الفخار في حياتهم اليومية. ولقد أثبتت الاكتشافات الأثرية أنه يـــشبه كثيراً الفخار المستخدم حاليا في هذه المناطق. كما استخدم البربر الحلي، رجالاً ونساءً، و كانـــوا يحملون أسلحة للزينة ويلبسون الأساور وعقوداً معدنية، أو خرزاً من العقيق الأحمر. وتـــشير بعض فضلات النسيج إلى ارتدائهم ملابس مخططة، كما تؤكد النقوش الصخرية التي عثـــر عليها قرب سيجوس "*Sigus*" وجود البرنس في الأزمنة القديمة[٣٠]. كانت المرأة الليبية تـــرتدي جلود ماعز بدون شعر فوق ملابسها، وكانت أيضا تجيد الغناء بفن[٣١]، وتجيد زخرفة آوانـــي الفخـــار اكثـــر من الرجل وتنسج بعض الملابس. وهن اللاتي حافظن علي تقاليد الفن

---

(٢٧) شـــارل انـــدري جولـــيان، تـــاريخ أفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي ٦٤٧م) ،(تعريب: محمد مزالي و البشير بن سلامة)، تونس ، ١٩٦٩ ، ص ٨٠.

(28) Herodotus,IV,172 .

(*) و هي لفظة لاتينية الأصل بمعنى الكوخ الصغير، اشتقاقاً من لفظة (Casa, ae) بمعنى كوخ. (عن د. السعدنى).

(٢٩) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ص ٧٥، ٧٦.

(٣٠) جـــيهان ديـــزانج، "البربـــر الأصـــليون"، (موسوعة تاريخ أفريقيا العام)، المجلد الثاني ، تورينو، ١٩٨٥، ص ٤٤٤.

(31) Herodotus, IV, 189.

المنزلـي العريقة التي لم تأت عليها الاضطرابات والغزوات. ولا يستمد الفن البربري نماذجه من الطبيعة، بل هو يتعلق بالزخرفة ذات الأشكال الهندسية.

ولـم يعـرف البربـر رغد العيش في البيت إذ كانوا ينامون علي الأرض أو علي المصاطب المبنية. وكان البربر عامة يحتفظون بشعرهم طويلاً، و كانوا يسيرون مكشوفي الرأس، و لهم دائماً اللحى الملسنة. وأحياناً كانوا يحتفظون بخصلة في أمهات رؤوسهم المحلوقة(٣٢).

أما عن طعامهم، فكان البربر عامة نباتيين مثل شعب الجيندانيين(*Gindanes*) الذين كانـوا يأكلـون نـبات الجلجلان فقط؛ وهو يشبه حبات التوت البري. أما البدو الليبيون فكانوا يأكلون اللحم ويشربون اللبن ولا يأكلون، مثل المصريون، لحم الأبقار والخنازير(٣٣).

وعـرف البربـر الـزارعة منذ نهاية العصور الحجرية الحديثة وقبل قدوم الفينيقيين، وكانوا يستعملون محراثاً يتكون من سلاح خشبي بسيط. وكان يتم درس الحبوب بواسطة الماشية عن طـريق المـشي علـيها، وزرعوا القمح، والشعير، والفول، والحمص. وعرفوا تطعيم شجر الـزيتون البري قبل أن ينشر القرطاجيون زراعته. أما التين فكان فاكهة البربر المفضلة(٣٤). وكانـت ملكـية الأرض فـي قـبائل الـرعاة جماعية. وكان البربر في أول أمرهم صيادين للحيوانات البرية. كما كانوا يربون البقر والجياد والضأن والغنم(٣٥). وكانت المناطق الزراعية الخـصبة تنتـشر في جميع أرجاء بلاد البربر، ومن هذه المناطق منطقة أوجيلا (*Augila*)، وهـو المكـان الذي كان يذهب إليه النسامونيين لجمع ثمار الأشجار والبلح. وعلي بعد رحلة لمـدة عـشرة أيام من أوجيلا توجد منطقة أخرى تتميز بكثرة أشجار النخيل المثمرة. والشعب الـذي كـان يـسكن هناك يسمي الجارمانت(٣٦) (*Garamantes*)، وهؤلاء الجارمانت كانوا يذهبون في عرباتهم الحربية ذات الأربعة خيول لمطاردة الأثيوبيين سكان الكهوف.

وفـي جهة الغرب من نهر تريتيون بعد بلاد الآسينين (*Aseans*) تبدأ بلاد الماكسيين (*Maxyes*) الـذين كانـوا يـزرعون الأرض ويملكون المنازل وكانت بلادهم الأكثر خضرة وأشجاراً من بلاد البدو.

ولقـد اشتهرت بلاد الجيزانتيين (*Gyzantes*) بإنتاج الكثير من العسل. وكانت هناك جزيـرة تـسمي كيـراويس (*Cyrauis*) مليـئة بالزيتون والكروم. وتعد منطقة نهر كينيبس

---

(٣٢) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ص ٧٦- ٧٨.

(33) Herodotus, IV,177,186.

(٣٤) جيهان ديزانج، المرجع السابق، ص ص ٤٤٣، ٤٤٤.

(٣٥) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ٧٥.

(٣٦) لـم تكن هذه القبائل من الزنوج السود بل كان جنسهم قريباً من الطوارق، وكانوا يعيشون في المكان الذي يسمي اليوم بفزان، وعاصمتهم جرمة "Garama".
انظر:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٢٤.

(*Cinyps*) مــن أخــصب أراضـــي القمح في العالم القديم آنذاك ، لأن التربة سوداء وممتازة الـــري بواســـطة الينابـــيع والأمطار. وكان لدي بلاد قورينة (*Cyrene*)[٣٧] ثلاثة مواسم من الحصاد تدوم وتستمر لمدة ثمانية أشهر[٣٨].

وكـــان البربـــر يتكلمون لهجات ليبية، من المحتمل أن يكون أصلها الأول هو اللغات الـــسامية. وكانـــوا يجيدون كتابة بقي أصلها مجهولاً وربما كانت فينيقية احتفظ علم الخطوط بآثارهـــا. وتـــم اكتـــشاف حوالي ١١٢٥ نقش وتؤكد حروفها الشبيهة بحروف خط الطوارق الحالي (التفيناغ) قرابة بين حروف اللغتين[٣٩].

أمـــا عـــن الحـــياة الدينية والعقائدية لدى البربر الليبيين فكانوا يعتقدون بظهور القوي الخارقـــة للطبـــيعة فـــي المناطق المحيطة بالريف. وكانت الصخور المستديرة أو المدببة مثل الحصي الجرانيتي الذي يرمز للوجه الإنساني أو للأعضاء التناسلية من الأشياء التي تعبد. هذا فـــضلاً عـــن عـــبادة مـــصادر المياه العذبة والأشجار، وهذه كلها تعد من مظاهر تقديس آلهة الخصوبة، مثل معظم الشعوب والحضارات القديمة. ولقد قدسوا الحيوانات التي ترمز إلى قوة التوالد مثل الثور والأسد والكبش. و لقد اعتبر الليبيون الكبش إلهاً مقدساً تحت اسم آمون. وقد اعتبـــرت الأسماك في منطقة تونس الحالية مقدسة، وكان السمك يقي من العين الشريرة، وهو عـــندهم رمز للذكورة. ولقد انتشر المحار انتشاراً واسعاً، كرمز للجنس المؤنث في كل أفريقيا الصغرى، وهي تخدم الأحياء، وتريح الموتى في قبورهم.

كما اعتبروا بعض أجزاء جسم إنساني، وخاصة الشعر، مكمن للقوة الخارقة للطبيعة، كما أنه كانت هناك عادة انتشرت بين الليبيين، وهي تجميع الشعر في ضفيرة واحدة تتجمع في خـــصلة (كالعـــرف أو الذؤابة) أعلي الرأس، مثل الموروسيين (*Maurusitans*) الذين كانوا يعتقدون أنه (أي الشعر) يرتبط ارتباطاً وثيقاً برجولتهم.

وكان الجسد يحاط بعناية كبيرة بعد الموت، حيث كان يتم دفن الميت علي جنبه ثم تتم إمالـــته أو ضـــمه. وقبل ذلك فإنه غالباً ما كان يتم نزع اللحم من العظم ثم يتم تغطية العظام واللحـــم بتـــراب أحمـــر. ويتم تزويده بالطعام والتمائم لحمايته. وكان النسامونيون يستشيرون أجـــدادهم حـــول المـــستقبل بالنوم فوق القبر. كما اعتادوا أيضا علي وضع اليد علي قبر أحد المـــشهود لهـــم بالعـــدل والخيـــر عند القسم علي شئ. ويبدو أن هذا كان رمزاً لعبادة الموتى الناشئة.

---

(٣٧) هي مستعمرة إغريقية تم تأسيسها في القرن السابع ق.م، وتسمي حديثاً جرنا أو عين شحات.
انظر:- أحمد فخري، بين آثار العالم العربي، القاهرة، سبتمبر ١٩٥٨، ص ١١٩.

(38) Herodotus, IV, 182, 183, 191, 192, 194, 195, 198, 199.

(٣٩) شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص ٧٨.

وكانت قرابين هؤلاء القوم مقتصرة علي آلهة الشمس ،والقمر، وأثينا، وبوسيدون، وتريتون[٤٠]. وهناك ما يشير إلى أن عبادة آمون قد انتشرت في الصحراء الغربية، ورغم أنها كانت قد بدأت تتقهقر في مصر في العصر المتأخر، غير أن الليبيين في الواحات تمسكوا بها في إخلاص، وازدهرت في القرن الخامس ق.م[٤١].

وكان لديهم ثلاثة أنواع من القبور:-

أولا:-نوع يسمي الحوانيت، وهي قبور مربعة مدخلها عمودي منحوتة في الصخر.

ثانيا:- ركام مخروطي الشكل كلها من حجارة ، أو نصفها من حجارة ونصفها من تراب وتسمي "بازينة".

ثالثا:- الشوشات وهي قبور أسطوانية الشكل متفرعة عن المصاطب.

وكانوا غالباً ما يدفنون أمواتاً كثيرين في القبر الواحد. ولقد قلدوا القرطاجيين واليونان؛ فحرقوا بعض أمواتهم في بعض الحالات الاستثنائية ابتداء من القرن الثالث ق.م[٤٢].

تلك كانت في إيجاز حضارة سكان ليبيا قبل قدوم القرطاجيين، ولقد بقي أمامنا أن نشير إلى عناصر السكان في العصر القرطاجي.

كان سكان ليبيا في العصر القرطاجي، من غير الفينيقيين، ينقسمون إلى ثلاث مجموعات رئيسية هي:-

١- ***الموريون (Mauri):*** وكانوا يعيشون في أقصى الغرب، فيما بين الأطلنطي و مولوكا (***Mulucca***) (وادي الملوية) وقد أطلق علي إقليمهم اسم موريتانيا، ومن قبل ماوروسيا (***Maurousia***). وقد امتد اسم موريتانيا بعد ذلك شرقا إلى ما وراء وادي شلف.

٢- ***النوميديون (Numidae):*** وكانوا يعيشون بين الموريين وأقصي امتداد غربي للقرطاجيين في الإقليم الداخلي، في إقليم نوميديا،(الجزائر حالياً).

٣- ***الجايتوليون (Gaetuli) (الجدالة) :-*** وهو الاسم الذي أطلق علي الرعاة الحقيقيين علي طول حواف الصحراء الشمالية[٤٣].

---

(٤٠) جيهان ديزانج، المرجع السابق، ص ص ٤٤٦، ٤٥٠، ٤٥١.

(٤١) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(٤٢) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ص ٧٩، ٨٠.

(٤٣) وارمنجتون. ب.هـ، "العصر القرطاجي"، (موسوعة تاريخ أفريقيا العام)، المجلد الثاني ، تورينو ، ١٩٨٥ ، ص ٤٥٤.

الفصل الأول

مدينة قرطاجة

تعـد مديـنة قرطاجة من أعظم المدن في العالم القديم عامة، والعالم الفينيقي الغربي خاصـة، إذ اسـتطاعت أن ترتقي بنفسها من مجرد مستوطنة صغيرة ناشئة ضمن الكثير من المستوطنات الفينيقية الأخرى حول العالم القديم إلى إمبراطورية كبيرة مترامية الأطراف، فلقد ورثـت تـركة الفينيقيين في الغرب، ولم تحافظ علي هذه التركة فحسب، بل عملت أيضا علي تنميـتها وتوسـيع أرجائها حتى قيل أنها عندما بدأت في شن الحروب البونية ضد روما كانت تملـك الـسيطرة علـي ٣٠٠ مدينة في أفريقيا وحدها(١). إن هذا الرقم وإن كان به كثير من المبالغة، إلا أنه يدل علي مدي ما وصلت إليه قرطاجة من تقدم وازدهار وقوة.

أولاً: أسطورة نشأة المدينة:

وقـرطاجة مدينة فينيقية أسسها مهاجرون من مدينة صور، ولكن هناك من يرى أنها ذات أصـل صيدوني وأن مؤسسيها قد جاءوا من مدينة صيدا(٢). ولكن ليس لدينا من الأدلة ما يؤيد ذلك الرأي، في حين أننا نستطيع وبسهولة تأكيد الأصل الصوري لتلك المدينة. فقد كانت قـرطاجة ترسل سنوياً سفراء إلى صور وكان هؤلاء يحملون معهم دائماً قرابين لمعبد ملقرت (هرقل). وإذا كان صحيحاً أن قيمة هذه القرابين كانت تقدر بحوالي عشر (١/١٠) دخل المدينة، كما يبين البعض فإنه من الممكن اعتبار هذه القرابين نوعاً من الضريبة. ولقد تم تخفيض تلك القـرابين فيما بعد، لكن في أوقات الخطر كان القرطاجيون يتذكرون إله صور ويعودون إلى تمجـيده ويـزيدون مـن القـرابين التي يقدمونها له(٣). وبذلك ظلت قرطاجة تابعة للحكومة المركـزية فـي مديـنة صور في أوائل العهد الفينيقي. ولقد ذهب البعض إلى أن صور كانت ترسل حكاماً يحكمون البلاد باسمها(٤).

واسـم قـرطاجة ذو أصـل فينيقي، وهو يتكون من كلمتين هما (قرت) و (حدشت)" *(Qart-Hadasht)* بمعنـي "المديـنة الجديدة". ويبدو أن تلك التسمية كانت تمييزاً لها عن

---

(1) Strabo, 17, 3. 15.

(2) Powell. E.A, In Barbary (Tunisia, Algeria, Morocco And The Sahara),New York, 1926, p.56.

(3) Moscati. S, The World Of The Phoenicians, (Translated From The Italian By: Alastair Hamilton), London, 1968, p. 116.

انظر أيضا:- محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم)، بيروت، ١٩٩٤، ص ٢٧٩.

(٤) إحسان حقي، تونس العربية، المكتبة المغربية (٣)، دار الثقافة - بيروت، ١٩٦١، ص ١٨.

CF. www.phoenicia.org.

مديـــنة صور القديمة (الوطن الأم)، أو ربما تمييزاً لها أيضا عن مستعمرة أوتيكا الأقدم منها، فهي تسبقها في المنطقة بما يقرب من ثلاثة قرون من الزمان تقريباً(٥).

ومـــن الجديـــر بالذكر أن، نشأة قرطاجة قد ارتبطت بقصة أسطورية شيقة تروى لنا عملـــية التأســـيس بشتى مراحلها. وتدور أحداث هذه الأسطورة كالتالي: " كانت البداية عندما توفـــي الملـــك مـــتان (*Matan*) ملـــك صور بعد أن أورث عرشه لولده الصغير بيجماليون (*Pygmalion*) وابنـــته إليسا (*Elissa*). ولكن الشعب خلع هذه الأخيرة، مفضلاً أن يكون بيجمالـــيون هـــو الملـــك بمفـــرده. وعـــندئذ تزوجت إليسا من عمها (أو خالها) "عاشرباس" (*Acherbas*) وهـــو الكاهن الأكبر لمعبد ملقرت. وكان ذا ثروة طائلة بالإضافة إلى أنه كان يحـــتل المكانة الثانية في المملكة. ولقد عاني عاشرباس كثيراً من أجل إخفاء ثروته تلك؛ وذلك خـــوفاً من طمع وجشع بيجماليون فيها. ولقد استقر به الحال، في نهاية الأمر، أن قام بإخفائها فـــي بـــاطن الأرض. ومـــع ذلك، صار هذا الأمر معروفاً بين الناس. وعندئذ ملأ الطمع قلب بيجمالـــيون فلم يتوان عن اغتيال هذا الشخص الذي هو عمه وصهره في نفس الوقت متناسياً كل القوانين وصلات الرحم(٦).

ومما تقدم يتبين لنا أن الطمع في ثروة عاشرباس كان السبب في اغتياله. بيد أن هناك رأى آخـــر يـــري أن الثروة لم تكن وحدها هي السبب؛ بل الرغبة أيضا في التخلص من نفوذ عاشـــرباس المتزايد والذي استمد قوته من مكانته الدينية بالإضـافة إلى ثروته الهائلة التي كان قـــد اســـتخدمها في استمالة الشعب وكسبه إلى جانبه بشكل أكبر. كما بدا أيضا أن، عاشرباس كـــان يمارس نوعاً من السيطرة علي بيجماليون مستغلاً صغر سنه، ولكن هذا الأخير لم يكن راغباً في أن يكون لعبة في يد زوج أخته فلذلك قام بقتله(٧).

ويـــروى لـــنا فـــرجيل (***Publius Virgilius Maro***)، الشاعر الرومانى الأول للعـــصر الإمبراطوري، ٧٠-١٩ ق.م) بعد ذلك أن؛ بيجماليون استطاع إخفاء جثة القتيل لمدة طـــويلة، وأنه استطاع أيضا بكثير من التظاهر والمكر خداع أخته بأمل كاذب إلى أن ظهر لها شبح زوجها القتيل في المنام وهو يبدو شاحب الوجه وفي هيئة عجيبة، حيث ظهر لها مستلقياً علـــي ظهره عاري الجسد وصدره مطعون بخنجر. وعندئذ أمرها بسرعة الفرار وترك البلاد وذلـــك بعد أن روى لها ما قد حدث له علي يد أخيها، ثم أحضر لها كنوزه التي كان قد أخفاها

---

(5) Church. A.J, Carthage or The Empire of Africa, 9th Impression, London, 1921, pp. 11, 12 ; CF. Herm. G, The Phoenicians (The Purple Empire Of The Ancient World), (Translated By: Caroline Hillier),1st ed., London, 1975, P. 186.

(٦) فرانسوا ديكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، (ترجمة: عز الدين أحمد عزو، مراجعة وتحقيق: عبد الله الحلو)، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٦، ص ص ٥٤، ٥٥.

(7) Herm. G, Op. Cit., p. 182 .

فـــي بـــاطن الأرض وذلك لكي يساعدها في رحلتها[٨]. ولقد حزنت إليسا كثيراً لفراق زوجها وظلـــت لأيـــام كثيرة غاضبة علي أخيها بشدة. وعندئذ، شعرت بأنها مضطرة إلى الفرار كما نـــصحها زوجهـــا القتيل، فأخذت تعد لرحيلها في سرية تامة. واشترك معها في مخططها هذا بعض من النبلاء والأشراف في مدينة صور، الذين كانوا من أعداء الملك وغير راضيين عن حكمـــه. ومـــن أجـــل تنفيذ مخططها هذا بنجاح لجأت إلى الحيلة، فادعت أنها تود ترك قصر زوجهـــا الـــذي يوحي لها بالحزن الدائم قائلة ***: "لقد احتملت من الحزن فوق ما أطيق، فدعني أتـــي إلـــى بيتك وأعيش في كنفك، حتى لا أبقي في أحزاني أكثر من ذلك"***. ولقد استقبل الملك هذا الحديث بسعادة بالغة وترحاب شديد، معتقداً أنه بذلك قد آمن جانب أخته، وفي نفس الوقت ضمن أيضا حصوله علي كل كنوز وثروات زوجها المتوفى. ولقد أرسل بيجماليون بعضاً من خدمـــه لمساعدة أخته علي الانتقال[٩]. وبمجرد حلول المساء، كانت جميع كنوزها قد وضعت فـــي ســـفينة، ثم أبحرت إليسا ومعها رسل الملك. وعندما أصبحت السفينة في عرض البحر، بـــدأت إليـــسا فـــي البكاء والنحيب علي زوجها المقتول بصوت مرتفع متوسلة إليه أن يستعيد الـــذهب الـــذي قـــد إدخـــره لها، لأنه كان ملطخاً بدمائه. وعلي الفور قام خدمها، الذين كانوا ينتظـــرون مجـــرد سماع تلك الكلمات، بإلقاء أكياس مزيفة ربطت بعناية لتوهم الناظرين أنها تحـــتوى علـــي الـــذهب في البحر، بينما كانت في الواقع مليئة بالرمل. وبعد ذلك توجهت إلى رسل الملك، الذين تملكتهم حالة شديدة من الخوف والفزع، وأنذرتهم بأنهم سيلقون عذاباً شديداً مـــن الملـــك لأنهم تركوا ثروة عاشرباس تضيع منهم بهذه الطريقة. وعندئذ قرروا، خوفاً من المـــصير الـــذي ينتظرهم علي يد الملك، الانضمام إليها ومن معها في رحلة هروبها. وهكذا انطلق الجميع أملين حماية ملقرت[١٠].

ولقـــد وصـــلت الـــرحلة في محطتها الأولى إلى قبرص. وهناك عرض عليها كاهن عـــشترت أن يـــصحبها مقابل أن تكون وظيفة الكهانة وراثية في أسرته. ولقد قبلت إليسا هذا الـــشرط. وكانـــت العـــادة بقبرص أن يرسلوا بناتهم، في أوقات معينة، إلى الشاطئ ليضحين بعذريـــتهن للآلهـــة . وهـــذه العـــادة تعـــرف بالبغاء المقدس، فأخذت إليسا منهن ثمانين فتاة عذراوات، وبذلك ضمنت زوجات للشباب الذين كانوا معها وضمنت أجيالاً جديدة للمدينة التي كانـــت تنوي إنشاءها[١١]. أما بيجماليون فلما علم بنبأ فرار أخته، استشاط غضباً، وعزم علي

---

(8) Virgil, Aeneid, 1, 335.

(9) Church.A.J, Op. Cit., pp. 3,4.

(10) Herm. G, Op. Cit., p.183 ; CF. www.Xenohistorian.faithweb.com.

(11) Warmington. B. H, Carthage, London, 1960, p. 21.

انظر أيضا:- رشيد الناضوري، المغرب القديم، بيروت، ١٩٧٥، ص٦١.

مطاردتهـــا وقـــتلها. وعندئذ توسلت إليه أمه كثيراً أن يعفوَ عنها، فاستجاب لها خوفاً من لعنة الآلهـــة وانـــتقامها، خاصة بعد أن أنبأه العرافون بنبأ المدينة التي سوف تنشئها أخته فيما بعد، وحـــذروه مـــن عـــرقلتها، ومـــن تعطيل إقامتها التي سيقدر لها أن تكون أعظم مدن الأرض وأكثـــرها قـــوة علي الإطلاق. ومما قالوه أنه:- " **لن تمر دون عقاب محاولتك عرقلة إنشاء مدينة شملتها عناية الآلهة دون بقية أرجاء العالم**(١٢) " .

وهكـــذا، تمكنت إليسا ومن معها من الوصول إلى سواحل أفريقيا. وكان أول ما قاموا بـــه سعيهم لإقامة علاقات صداقة مع السكان المحليين الذين كانوا يميلون إلى الغرباء ويقبلون علـــي الـــتجارة معهم بالمقايضة. وهناك أطلق أهل البلاد الأصليون علي إليسا اسما جديداً هو "ديـــدو" (*Dido*) (١٣). ويـــرى الـــبعض أن هذا الاسم يرجع إلى كثرة ترحالها وأيضا بسبب الرحلات البعيدة التي قامت بها(١٤).علي حين يرى البعض الآخر أنه يعني "**الهاربة**" (١٥).

وبعـــد ذلـــك، طلبت إليسا من أهل البلاد الأصليين شراء قطعة أرض منهم بمقدار ما يمكن لجلد ثور أن يغطيها. ونظراً لبساطة الطلب لم يتردد السكان المحليين في تلبيته. غير أن ديـــدو لجأت إلى حيلة ذكية، إذ قامت بقص جلد الثور إلى سيور رفيعة جداً، واستطاعت هكذا الحصول علي قطعة كبيرة جداً مّن الأرض حول التل حيث أقامت بعد ذلك قلعة المدينة. ومن هـــنا جـــاء اسم (بيرسا) (*Byrsa*) الذي أطلق علي المكان فيما بعد. ولكن اسم بيرسا صار يطلـــق علي قلعة قرطاجة بعد ذلك، وهو الآن يطلق علي جبل القديس لويس (*St. Louis*). أمـــا بالنسبة لمعنـــي كلمة بيرسا، فهي في اليونانية تعني "جلد حيوان"، ولكنها في الفينيقية تنطق بورصـــة (*Borsa*) بمعنى القلعة أو الحصن المنيع، وهو المعني المقصود هنا، ولكن يبدو أنه قد تم تحريفها علي يد اليونانيين لتصبح بيرسا(١٦).

وبعـــد ذلـــك توافدت علي ذلك المكان جموع من الناس من البقاع المجاورة من أجل الـــتجارة والربح، ثم استقروا بأنفسهم في ذلك المكان. وجاء سكان أوتيكا (**Utica**) الفينيقيون لـــزيارة أبناء وطنهم، محملين بالهدايا(١٧)، وحثوهم علي إنشاء مدينة على هذا الشاطئ. وكان

---

(١٢) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص٥٦.

(١٣) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ٨٨.

(١٤) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، قرطاج البونية (تاريخ حضارة)، تونس، ١٩٩٩، ص٩١.

(15) Powell. E. A, Op. Cit., p.56

(16) Perry. A, Carthage And Tunis (Past And Present), New York, 1869, pp. 16, 17 ; CF. www.Phoenicia.org.

(١٧) وفي رواية أخرى يقال أنه قد نشأت متاعب وصراعات بين أوتيكا وبين الوافدين الجدد من أتباع ديدو، لدرجة أن أوتـــيكا أرسلت سفارات إلى زعيم البربر تشكو من هؤلاء الوافدين الجدد، وطالبوا برحيلهم عن هذا المكان والعودة من حيث قدموا. انظر:-

Herm. G, Op. Cit., p.184 ; CF. Church. A.J, Op. Cit., p. 5.

الـسكان المحلـيون يودون أن يبقي هؤلاء المهاجرون الشرقيون، إذ أنهم كانوا يتقاضون منهم إتاوة سنوية كأجرة(١٨) للأرض التي يشغلونها(١٩).

وفـي تلك الأثناء، بدأت أعمال الحفر من أجل وضع أساسات المدينة الجديدة. و أثناء الحفـر عثـروا علـي رأس ثور مدفونة في الأرض. ولقد اعتبر الكهنة الفينيقيون هذا رمزاً للعبودية والرق ومن ثم اعتبروا هذا فألاً سيئاً. وواصلوا الحفر علي مسافة قصيرة من المكان الأول فعثـروا في هذه المرة علي رأس حصان. فرأوا فيه رمزاً للقوة والانتصارات الحربية، فكـان هـو المكان المختار. وفيما بعد، توافد الكثير من أهل تلك البلاد للسكن في هذه "المدينة الجديدة" بسبب ذيوع شهرتها(٢٠).

وكـان الناس يتسابقون في الحديث عن إليسا، وعن جمالها الفتان، حتى بلغت أحاديثهم سـمع هـيارباس (*Hiarbas*) ملك المكستيانيين (*Maxitani*)- وهم شعب أفريقي- فقام باسـتدعاء الـذين يتزعمون المدينة الجديدة، وأبلغهم أنه يريد الزواج من ملكتهم وأن رفضها سـيؤدي إلـى نشوب حرب ضارية تنتهي بدمار مدينتها الناشئة وفنائها. ولقد سبب هذا الطلب الذعـر للرسل، فلم يجرؤا علي نقل الرسالة إلى ملكتهم بشكل مباشر، فاحتالوا في عرض هذا المطلب عليها وقالوا لها أن الملك يبحث عن شخص يستطيع تمدين شعبه وتهذيبه؛ لكن من ذا الـشخص الـذي يستطيع أن يترك وطنه ويذهب للعيش مع شعب بربري يشبه أبناؤه الوحوش فـي الخـشونة لـيهذب طباعهم، ويحمل نفسه كل هذه الصعاب والمشاق الجسيمة؟ ، غير أن الملكـة وبختهم علي ذلك متهمة إياهم بالجبن والإحجام عن التضحية في سبيل سلامة وطنهم. وعـندئذ أطلعـوها بصراحة علي ما طلبه منهم "هيارباس" ، طالبين منها تنفيذ النصائح التي تـسديها للآخـرين(٢١). فـشعرت بأنها قد أوقعت نفسها في الشرك، لأنها كانت تحترم عهدها ووعدها، وتعتبر نفسها قدوة للشعب بها يقتدي ويسير علي هداها. ولكنها من ناحية لا تستطيع تنفيذ هذا المطلب، فهي لم تتحمل مشاق السفر والهجرة إلا لإرضاء زوجها في قبره. وتذكرت طـويلاً زوجهـا عاشـرباس، فانفجرت باكية ترثي زوجها. ثم طلبت منهم أن يمهلوها ثلاثة أشـهر، وقالـت لهـم أنها ستذهب حيث يناديها حظها وحظ المدينة. وقبل انقضاء المهلة التي طلبـتها، أقامـت إليـسا محرقة كبيرة عند بوابة المدينة، وقدمت الكثير من القرابين من شياه وثيـران، بحجة تهدئة روح زوجها قبل إتمام الزواج. ثم تسلحت بسيف وصعدت إلى المحرقة

(١٨) ومن الجدير بالذكر أن، هذه العادة قد توقفت في حوالي عام ٤٥٠ ق. م تقريباً، حيث رفض القرطاجيون منذ ذلك الحين دفع المزيد من الأموال مقابل هذه الأرض التي يشغلونها. انظر:-

Mommsen. T, Op. Cit., p. 117.

(١٩) فرانسوا ديكريه، نفس المرجع.

(20) Perry. A, Op. Cit., p. 18.
(21) Church. A. J, Op. Cit., p. 6.

بنفسها. وعندئذ استدارت نحو شعبها صارخة:- "إنكم تريدون مني أن أذهب إلى زوجي....هاأنذا ذاهبة" ثم استلت السيف من غمده وغيبته في صدرها وألقت بنفسها في النيران. وهكذا انتهت إليسا وهكذا صارت تقدس في قرطاجة طوال حياة المدينة مثلما كانت تقدس الآلهة[٢٢]". ولقد وردت هذه الأسطورة في كتابات الكثير من الكتاب القدامى، أمثال: فرجيليوس، و يوستينوس ***(Justinus)*** (وهو مؤرخ لاتيني عاش في القرن الثاني ق.م)، وغيرهم[٢٣].

الآن، وبعد أن انتهينا من سرد أحداث أسطورة نشأة قرطاجة بكل تفاصيلها، يتبين لنا أن خوف إليسا من ظلم أخيها وطمعه في ثروة زوجها كان السبب في هروبها من صور (الوطن الأم) إلى أفريقيا وتأسيسها لمدينة قرطاجة. ولكن هناك رأياً آخر يرى أن خوف أهل صور من استيلاء الآشوريين علي ثرواتهم الطائلة، كما حدث لبقية المدن الفينيقية الأخرى، هو الذي جعلهم يعملون علي تهريب تلك الثروة مع الأميرة إليسا وأصحابها، خاصة مع توقع السقوط القريب علي أيدي العدو من يوم إلى آخر. وذلك بعد أن تكررت وتواصلت هجمات الآشوريين علي المدينة (كما سبقت الإشارة في التمهيد). فلذلك كان خروج إليسا من المدينة سراً. ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن تأسيس قرطاجة قد تم وفقاً لخطة مدبرة، وأنه كان تنفيذاً لمهمة رسمية بتفويض من حكومة صور، وليس ضد رغبتها كما جاء في أحداث الأسطورة[٢٤]. والدليل علي ذلك أن العلاقة بين قرطاجة وصور لم تنقطع، فكانت قرطاجة ترسل القرابين سنوياً لمعبد ملقرت في صور مما يدل علي اعترافها بتبعيتها للوطن الأم، وكثيراً ما كانت تسرع إلى نجدة مستعمرات مدينة صور في الغرب نيابة عن صور نفسها بحكم قربها منها كلما استنجدت بها. وأيضا عندما خضعت صور لسيطرة الفرس شارك الصوريون في جميع غزوات قمبيز ملك فارس، إلا أنهم رفضوا تنفيذ أوامر الملك في الزحف ضد قرطاجة والاستيلاء عليها. ولقد تكرر منهم مثل ذلك الموقف مرة أخرى مع الاسكندر الأكبر[٢٥].

---

(٢٢) توفيق الطويل، قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة، الطبعة الثالثة، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٥، ص ص ١٥ ،١٦.

(٢٣) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٥٤ ؛ ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:- الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ص ٩٠- ٩٥.

(24) Khader. A & Soren. D, Carthage: A Mosaic Of Ancient Tunisia, New York, 1987, p. 101 ; CF. Picard. G&C, Daily Life In Carthage At The Time Of Hannibal, (Translated From The French By:- Foster. A.E), London, 1961, pp. 18, 27.

(٢٥) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ٨٥ ،٨٦.

ومـن الجديـر بالإشارة أن، هناك رواية أخرى تنسب إلى فيليستوس (*Philistus*)، وهـو يونانـي من سيركوزا عاش في القرن الرابع ق.م، ذكر فيها أن تأسيس مدينة قرطاجة يـرجع إلى رجلين من صور وهما أزوروس أو زوروس (*Azoros; Zoros*) و كارخيدون (*Karchedon*) قـبل الحـرب الطـروادية بقلـيل، وأن إليسا هي التي عملت علي تنميتها وازدهارهـا فقط. ويرى موسكاتي أن هذه الرواية مستحيلة ولا تتفق مع الواقع، وأن استحالتها واضـحة تماماً من نطق الاسمين فقط، حيث يبدو أنهما مشتقان من صور وقرطاجة[٢٦]. كما أنـنا ليس لدينا من الأدلة التاريخية ما يؤكد صحتها ، علي حين أن هناك الكثير من الروايات القديمـة التي تؤكد علي أن إليسا هي المؤسسة الفعلية للمدينة. وبعض من هذه الروايات تعتمد علـي مصادر تاريخية مؤكدة ومن هنا تأتي أهميتها. ومن هذه الروايات تلك الخاصة بالمؤرخ الـيهودي يوسـيفوس (**Josephus**) (القرن الأول الميلادي) والتي كتبها استناداً إلى الكاتب الهيللينستي ميناندروس الافيسوسي (*Menandre Ephese*) (القرن الثاني ق.م) الذي اعتمد فـيها علي وثائق ملوك مدينة صور، سجل فيها تسلسل ملوك المدينة الذين حكموها لمدة قرن ونصف من الزمان، ثم أعطى معلومات إضافية حول بعض الأحداث التي جدت في عهودهم. وقد ذكر يوسيفوس أن بجماليون قد عاش ٥٦ سنة حكم منها ٤٧ عاماً، وأنه في السنة السابعة مـن حكمه هربت أخته إليسا إلى ليبيا وأسست هناك مدينة قرطاجة. وعلي ذلك فهناك عنصر تاريخي سليم يتعلق بارتباط إليسا بعملية تأسيس قرطاجة[٢٧].

ثانياً: تاريخ تأسيس المدينة:

أمـا بالنـسبة لتاريخ تأسيس مدينة قرطاجة، فتكاد المصادر الكلاسيكية أن تجمع علي اعتـبار عـام ٨١٤ ق.م تاريخاً رسمياً لتأسيسها، علي اعتبار أن تأسيسها كان قد سبق بداية الألعاب الأولمبية الأولى (٧٧٦ق.م) بحوالي ٣٨ سنة.

أمـا المـصادر الأثرية فترى عكس ذلك، حيث قام الأثريون بعمليات تنقيب عن أقدم الآثـار الفينيقية في مختلف المواقع القرطاجية، فلم يعثروا علي أية آثار فينيقية الأصل في تلك المـناطق قبل حوالي عام ٧٥٠ ق.م. ولقد اعتمد الأثريون في رأيهم هذا علي الفخار الفينيقي الـذي وجد في المقابر الأولى لمدينة قرطاجة. وقد وجد مع هذا الفخار فخار يوناني وجعارين وتمـائم مـصرية. وعلي ذلك أمكن بالدراسات المقارنة معرفة زمن هذا الموقع الأثرى. ومن المراكـز الهامـة التي كانت من أقدم المواقع الأثرية والتي عثر فيها علي هذا الفخار الفينيقي الأول هـو موقـع سلامبو (*Salambo*) ، حيث عثر علي معبد الإلهة تانيت (*Tanit*). وقد

---

(26) Moscati. S, Op. Cit., p. 114 ; CF. Perry. A, Op. Cit., p. 17.

(٢٧) محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص ١٠٦ ؛ انظر أيضا:- رشيد الناضوري،المغرب القديم، ص٦١.

وجدت فيه الأواني الفخارية الفينيقية التي احتوت على البقايا المحترقة لعظام الأطفال المضحي بهم(٢٨).

بـيد أن التاريخ التقليدي لتأسيس قرطاجة، وهو عام ٨١٤ ق.م، قد لاقي مساندة كبيرة وتأيـيداً عظـيماً من جانب كثير من الباحثين المتخصصين في هذا المجال، حيث تم تأكيد أن المقابـر الأولـى في المدينة ما تزال في طور الاكتشاف وأن كثيراً منها ربما ما يزال ينطوي علي آثار أقدم(٢٩).

ثالثاً: الموقع الجغرافي وتخطيط المدينة:

علـى كل حال امتازت قرطاجة بجودة موقعها الجغرافي الممتد وسط أراضى خصبة يحيط بها مناطق ساحلية كبيرة. فهي تقع علي شبه جزيرة محاطة بالبحر من جهة و ببحيرتي تـونس(٣٠) (البحيـرة) (*El Bahira*) وسبخة الريانة، التي كانت قديماً خليجاً في البحر، من الجهتـين الأخـرتين. وكانـت شبه الجزيرة قديما تنتهى عند رأس قرطاجة، وهي الآن قرية سـيدي بوسـعيد (*Sidi bou Said*). كما كانت تتصل بالبر الرئيسي فقط عن طريق برزخ يـبلغ عرضه حوالي ميلين أو ثلاثة عند نقطته الغربية الضيقة. وإلى الجنوب الغربي من رأس قـرطاجة تـوجد إمـتدادات سهلية إلى جانب تل يصل ارتفاعه إلى حوالي ٢٠٠ قدم (هو تل سـانت لويس حالياً). ولقد أقيمت عليه قلعة بيرسا (قلعة قرطاجة الأولى). وكان هذا التل يقع علي بعد أقل من ميل من البحر(٣١) (انظر شكل رقم ١).

أما بوليبيوس (*Polybius*) الذي شهد سقوط قرطاجة في عام ١٤٦ق.م، فقد ذكر أن قـرطاجة تمـتد علـي شاطئ خليج وسط شبه جزيرة محاطة بالبحر من جهة، وبالبحيرة من الجهـة الأخـرى. ولا يزيد عرض البرزخ الذي يربطها بليبيا على ٢٥ ستاداً (٣٢) (*Stades*)

---

(28) Warmington. B. H, Op. Cit ., pp. 20, 22-23 ; CF. Carpenter. R, "Phoenicians In The West", AJA, vol .62, No. 1, 1958, pp. 37, 39-40.

(٢٩) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ص ٥٩، ٦٠.
CF. Picard. G&C, Op. Cit., p. 26 ; Moscati. S, Op. Cit., p. 115.

(٣٠) هي بحيرة طبيعية تقع بين مدينة تونس العاصمة وخليج تونس (علي البحر المتوسط). تبلغ مساحتها حوالي ٣٧كـم^2 (تقريباً ١٤ ميلاً مربعاً) وهي ضحلة العمق جداً. وكانت أحد الموانئ الطبيعية لتونس قديماً. انظر:- www.en.wikipedia.org.

(31) Warmington. B.H, Op. Cit., pp.14,15 ; CF. Ogrizek. D, North Africa, WCS, London, 1996,p. 268.

(٣٢) الأستاد هو وحدة قياس إغريقية تساوي ١٨٤,٩٧ متراً. انظر:-
ا الأمين علي الأمين، العقائد الفينيقية في المدن الطرابلسية الثلاث، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٦، ص٢٤. حاشية ٤.

وعلـــي مـــسافة غير بعيدة من قرطاجة عبر الشاطئ، كانت تقع أوتيكا، بينما تقع تونس علي الجانب الآخر من البحيرة(٣٣).

وكـــان موقـــع قـــرطاجة الجغرافي يساعد علي تبادل العلاقات مع بلاد شرق وغرب البحـــر المتوســـط، فكانـــت تبسط للشرق يمناها وللغرب يسراها، فضلاً عن المزايا العسكرية العديدة التي يتمتع بها هذا الموقع، فهي آمنة ضد الهجمات الداخلية حيث لا يربطها بالداخل إلا لـــسان ضـــيق مـــن الأرض. كما أنها كانت قريبة من عدد من المدن الموجودة علي الساحل الأوربـــي، وقـــد أعطاهـــا ذلك فرصة التحرك السريع والنشاط البحري بين مدن غرب البحر المتوسط المختلفة(٣٤).

ويبدو مما تقدم أن إليسا وصحبها لم يتركوا اختيار موقع المدينة الجديدة للمصادفة، بل كـــان اختيارهم بعناية ودقة. فكان أول ما يبحث عنه المستوطنون الفينيقيون في المكان المراد الاســـتيطان بـــه هي عناصر الأمن الطبيعي المتوفرة في المكان، كما رأينا في موقع قرطاجة الجغرافـــي. ومع ذلك، كان يتم تعزيز هذه الدفاعات الطبيعية للمكان عن طريق بناء الأسوار الضخمة العالية، بالإضافة إلي التحصينات الأخرى مثل الخنادق وغيرها.

فكانت قرطاجة، في زمن الحرب البونية الثالثة، محاطة بثلاثة أسوار ضخمة تحميها، مما جعلها تبدو مثل حصن حصين. ولكن هذه الأسوار كانت تتقاطع عند البرزخ الذي يربطها بالبـــر الرئيسي لتترك فتحة للدخول أو الخروج من المدينة. وتعد تلك النقطة هي مكمن الخطر بالنـــسبة للمدينة، فمن هناك كان يصل الطريق القادم من القارة. لذا تم تعزيز السور الموجود فـــي هذا القطاع. وكان جملة طول هذه الأسوار حوالي ٣٤ كم، وارتفاع كل سور من الأسوار الـــثلاثة يبلغ ٤٥ قدماً (أي حوالي/١٣,٢٢ م)، دون احتساب ارتفاع الأبراج، التي تم وضعها جمـــيعاً علي مسافات منتظمة تقدر بحوالي ٢٠٠ قدم (أي حوالي/٦٠م)، وكان كل واحد منها يـــتكون مـــن أربعة طوابق، بينما يقدر عرض كل جدار عند القاعدة ثلاثين قدماً (أي حوالي/ ٨,٨٨ م). ولم تقتصر مهمة تلك الأسوار علي مجرد حماية المدينة من الأخطار التي تهددها، فقـــد كانت هذه الأسوار من الضخامة بحيث يتم استخدام جدرانها الداخلية بعد تجهيزها كثكنات وإســـطبلات. وكـــان كـــل سور مقسم إلي طابقين. وكان الطابق الأسفل يسع لثلاثمائة فيل مع مـــؤونة غذائية كاملة لها. أما الطابق العلوي، فكان يضم إسطبلات تسع لأربعة آلاف حصان مـــع مخـــازن للأعلاف والشعير، إضافة إلي ثكنات يمكن أن تستوعب عشرين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان(٣٥).

---

(33) Polybius, I, 73 ; CF. Appian, VIII, XIV, 95.

(٣٤) عبد العزيز عبد الفتح عمر، المرجع السابق، ص ٢٣.

(35) Appian, VIII, XIV, 95.

وكـــان الـــسور الأول الخارجـــي عبارة عن خندق كبير عرضه عشرون متراً وكان مـــزوداً بـــسياج من أوتاد خشبية. أما السوران الآخران فكانا يرتفعان وراء ذلك الخندق الذي كـــان بمثابة الخط الدفاعي الأول. ومن الجدير بالذكر أن، هذين السورين لم يبق لهما أي أثر، وذلك لأن الصخور الضخمة التي كان يتألف منها السوران والتي تم هدمها في عام ١٤٦ ق.م علـــي يـــد جـــنود ســـكيبيو، قـــد أعيد استخدامها مرة أخرى على يد الرومان لما أعادوا بناء قـــرطاجة. أما الخندق فما يزال ظاهراً حتى الآن ويمكن رؤيته بسهولة من الطائرة، وهو يبدو علـــي هيئة خط واضح وبارز يتقاطع عبر البرزخ لأكثر من ميل. ولقد اكتشفه الجنرال دوفال *(Duval)* عـــن طـــريق عمليات تصوير جوي في عام ١٩٤٩، ثم شرع بعد ذلك في حفره فـــوجد حافـــة صـــخرية تمتد بجانبه من الجهة الشرقية فيها حفر مستديرة مرتبة في صفوف متتالـــية. وكانت هذه الحفر معدة بدون شك لتثبيت أوتاد من الخشب، وهذه الأوتاد كانت تحمل المراصد فوق السد الترابي الذي كان مكدساً من وراء الخندق ليتكون منه السور الأول(٣٦).

أمـــا قلعة بيرسا أو الأكروبول *(Acropole)* فكان لها تحصيناتها الخاصة بها والتي جعلـــتها بمـــثابة معقل قوي للغاية. فقد كانت أكثر تحصيناً من أي مكان آخر بقرطاجة.وكان يحـــيط بهـــا سور سمكه متر واحد وطوله ١٠٦٠ م. وقد اكتشف الأب ديلاتر *(Delattre)* والأب لابيـــر *(Laperre)* آثـــار هـــذا الـــسور أثـــناء عملـــيات التنقيب التي تمت في سنة ١٩٣٧ (٣٧). ويـــبدو أن هـــذا السور لم يكن يضم القلعة فقط، بل أيضا منطقة التلال مثل تلال جونـــو *(Juno)* و أوديون *(Odeon)* وسانت لويس(٣٨). ويحيط بأسفل قلعة بيرسا سور ثان كان طوله حوالي ٣ كم(٣٩).

ولكن يبدو أن، هذه التحصينات القوية السالفة الذكر لم تكن تشمل كافة أرجاء المدينة. فقـــد كان السور الذي يحمي منطقة ميغارة *(Megara)* عبارة عن جدار بسيط يحاذي شاطئ البحـــر، كما أنه في نقاط أخرى كان ينتصب فوق الصخور المشرفة علي الشاطئ. وربما كان ذلـــك نابعـــاً مـــن إحـــساس القرطاجيين بتفوق وقوة أسطولهم البحري الذي كان يحرس هذه الـــشواطئ(٤٠).والحقـــيقة، أنـــنا لا نعرف من تواريخ إنشاء كل هذه الأسوار، إلا تاريخ إنشاء الـــسور الرئيـــسي الموالي للمدينة مباشرة؛ فيرى البعض أنه يرجع إلى حوالي القرن الخامس

انظر أيضا:- فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ص ٦٧- ٦٩.

(36) Picard. G&C, Op. Cit., pp. 33,34.

(٣٧) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ١٠١، ١٠٢.

(38) Warmington. B.H, Op. Cit., p. 117.

(٣٩) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٤٠) فرا نسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٦٩.

ق.م [٤١]، بينما يري البعض الأخر أنه يرجع إلى حوالي القرن الثالث ق.م، وبالتحديد بعد انتهاء أحداث الحرب البونية الأولى وثورة المرتزقة، وأن هانيبال بارقا (*Hannibal*) قد شاهد، وهو في التاسعة من عمره حينئذ، أول الإستعدادات لبناء ذلك السور. ولكنه، وقبل الشروع في العمل بحالة مرضية، تأهب للرحيل مع أبيه هاميلكار (*Hamilcar*) إلى أسبانيا[٤٢]. بيد أنه ليس لدينا من الأدلة ما يؤيد أحد الرأيين دون الآخر، فلذلك يبقي الاثنان قيد الافتراض إلى حين ظهور أدلة جديدة في المستقبل تساعدنا علي ترجيح أحدهما علي الآخر.

تعد الموانئ بالنسبة لقرطاجة قلب المدينة النابض ومحور حياتها، وذلك نظراً لارتباطها بحياة المدينة الاقتصادية والحربية والبحرية. وكان لقرطاجة ميناءان: واحد تجاري، والآخر حربي. ومن الجدير بالذكر أن، بيلي (*M.Beule*) قام بالبحث في سنة ١٨٥٩ عن موقع هذين الميناءين، فوجد آثارهما شمال جون الكرم، بين سلامبو ودرمش، حيث نرى اليوم بحيرتين، إحداهما منبسطة ومستطيلة وهي القريبة من جون الكرم، والأخرى مستديرة[٤٣]. ويبدو أن حجم هاتين البحيرتين كان صغيراً جداً مقارنة بالشهرة العالمية التي تمتعت بها موانئ قرطاجة، فقد كانت بقايا الميناء المستطيل حوالي خمسين متر عرضاً ومائة وخمسين متر طولاً، بينما كانت بقايا الميناء المستدير أكثر من مائة متر في قطر الدائرة[٤٤]. ومع ذلك، لا يمكننا نبذ فرضية تطابق الميناءين مع البحيرتين السابقتين، خاصة وأنه كان قد تم تدمير حي الموانئ هذا أولاً وقبل سقوط المدينة أثناء أحداث الحرب البونية الثالثة. كما أعيد ترميمه واستخدامه مرة أخرى في العصر الروماني. ولقد تمت إضافة منشآت هامة أخرى إلى الغرب من البحيرة المستطيلة، إلا أنها تعرضت للتدمير عام ٣٠٦ م بفعل زلزال قوى أدى أيضا إلى القضاء علي ما بقي من الآثار القديمة[٤٥].

ومن الجدير بالذكر أيضا، أنه تبين من خلال الحفائر الأثرية التي قام بها بيلي أن هذه الموانئ قد غطي الطمي أكبر جانب منها إلى درجة جعلت المقيمين هناك يزرعون الكروم والتين في ذلك المكان الذي أطلق عليه اسم (الكرم) [٤٦].

كان الميناء التجاري مستطيل الشكل، وطوله ٤٥٦ م، وعرضه ٣٢٥م. يحيط به رصيف عرضه ٤,٥٣م، ويحميه سوران؛ سمك الأول ١,٢١م، وسمك الثاني ٨٢سم[٤٧]. وكان

---

(٤١) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ١٧٩.

(٤٢) هارولد لام، المرجع السابق، ص ص ٢٢، ٢٣.

(٤٣) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ١٠٨.

-CF. Warmington. B.H, Op. Cit., p. 114.

(44) Herm. G, Op. Cit., p. 185.

(٤٥) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٧٤.

(٤٦) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ٩٥.

لهـذا الميناء مدخل عام من جهة البحر عرضه سبعين قدما (٢٠,٧٢م)[٤٨]، وكان من الممكن إغلاقــه بواسطة سلاسل حديدية عند الضرورة[٤٩]. ويري بيلي أن هذا المدخل انطمس وسدته الــرمال التـــي كان يجرفها وادي مجردة[٥٠]. وكان الدخول والخروج من الميناء يصبح صعباً فـــي فصل الشتاء لذلك زود هذا المدخل برصيف يصعد فوقه البحارة ثم يشدون السفن بالحبال إلـــى الــداخل حتـــى تكـــون في مأمن من تقلبات الجو. أما في الطقس المعتدل فكانت السفن الــتجارية ترســو في عرض خليج الكرم خارج الميناء[٥١]. أما الميناء الحربي، فكان مستدير الــشكل ويعرف باسم القاطون (*Cothon*) ولعل هذه الكلمة مشتقة من أصل سامي، يحمل في أصـــله مفهوماً يدل علي: القطع أو النحت، فلقد كانت هذه الموانئ صناعية مستقطعة، حفرهما القــرطاجيون بأيديهم فلذلك كان منظرهما يشهد لهما بالعظمة والنبوغ[٥٢]. وكانت السفن تصل مـــن الميناء التجاري إلى الميناء الحربي بعد اجتياز قناة موجودة بينهما عرضها سبعون قدما. ولقد أحيط هذا الميناء بسرية تامة، فلم يكن باستطاعة القادمين من عرض البحر أن يروا بدقة ما يدور بداخل الميناء، وحتى التجار الذين كانوا يدخلون بسفنهم إلى الميناء، لم يكن بمقدورهم أن يـــروا ترسانات الأسلحة، فلقد أحيط كل ذلك بسور مزدوج يحتوي علي بوابات يمر التجار عبـــر أول بوابة منها إلى المدينة دون المرور علي الترسانات وأحواض السفن[٥٣]. ولذلك كان مـــن الطبيعـــي وجـــود الميناء الحربي بعد الميناء التجاري، فكان الأول بمثابة الميناء الداخلي والثانـــي بمـــثابة الخارجي. وكان الميناء الحربي يحتوي علي رصيف كبير عرضه ٩,٣٥م، وطول محيطه ١٠٢١م، وبه أيضا حجرات لإيواء السفن عرض كل واحدة منها حوالي ٥,٩٠ م. وكان يوجد في مدخل كل حجرة عمودان من المرمر. ومن الجدير بالذكر أن، هذه الأعمدة قـــد أقـــيمت كاملة بتيجانها وأفاريزها...الخ، مما جعلها في النهاية تبدو كرواق مستدير رائع المنظـــر. وقد أقيم فوق هذه الحجرات مخازن من أجل مستلزمات السفن وعتادها. ويوجد في وســـط هـــذا الميـــناء جزيـــرة مستديرة أيضا قطرها ١٠٦م، ويحيط بها رصيف مماثل تماماً للرصـــيف المقابـــل لها بحجراته وأعمدته، وكان طول محيطه ٣٣٣م. وكانت جملة الحجرات بالرصـــيفين المتقابلين ٢٢٠ حجرة (منها ١٦٠ –١٧٠ من أجل السفن الخماسية الصفوف من

---

(٤٧) نفسه.

(٤٨) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٧١.

(49) Appian, VIII, XIV, 96.

(٥٠) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ٩٦.

(٥١) محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص ١١٠.

(٥٢) فرانسوا ديكريه، نفس المرجع.

-CF. Picard. G&C, Op. Cit., p. 28.

(53) Appian, VIII, XIV,96.

المجاديــف[٥٤]). وكـــان هناك أيضا رصيف عرضه ٩,٦٠م، ويربط بين الجزيرة والرصيف المقابـــل ثـــم يـــؤدي إلــى الطريق الموصل إلى السوق والساحة العامة[٥٥]. ولقد أقيم في هذه الجزيـــرة مركز خاص بقائد الأسطول، ومنه كانت تصدر إشارات النفير وتذاع الأوامر، بينما يـــشرف قائـــد الأسطول بنفسه علي كل شئ، إذ كانت الجزيرة تقع في مواجهة مدخل الميناء وتتميز بارتفاع مناسب يستطيع معه قائد الأسطول رؤية كل ما يدور في البحر[٥٦].

ويـــبدو أن أمـــن الميـــناء كان يحظى باهتمام كبير من حكومة قرطاجة، حيث وجدت مجموعة من الرجال تقوم بحراسة الميناء لمنع أية تسللات أجنبية إلى الداخل، كما كانت هناك هيـــئة مشرفة علي الأسطول مهمتها مساعدة السفن على الدخول والخروج من الميناء خاصة فـــي فـــصل الشتاء، حيث تتوقف عمليات الملاحة لبعض الوقت بسبب الظروف المناخية[٥٧]. ومـــن المدهش أنه، على الرغم من الشهرة البحرية التجارية والحربية العظيمة التي اشتهرت بهـــا قـــرطاجة، إلا أن موانـــيها قد تميزت بصغر الحجم (عشرة أفدنة للأول، وأكثر قليلاً من عشرين فدان للثاني) [٥٨].

أمـــا الـــساحة العامـــة فكانـــت تقع بين الموانئ والقلعة، وهي تماثل الأجورا اليونانية (*Agora*)، والفـــوروم الرومانـــي (*Forum*). وكانت هذه الساحة تضم مبني مجلس الشيوخ القرطاجـــي، وخارج هذا المبني كان القضاة يقرون العدالة ويفصلون في الدعاوى في الفضاء كمـــا كـــان شائعا في كثير من عالم البحر المتوسط[٥٩]. كما كانت تضم أيضا السوق، ومعبد أبوللـــو، ودار الـــندوة حيث كان يجتمع الشعب للمناقشة والحوار. وكانت مساحة هذه الساحة تقـــدر بحوالـــي سبعمائة متر تقريباً. وبذلك كان لساحة قرطاجة العامة دور سياسي، وتجاري، وديـــني، واجتماعـــي [٦٠]. وكان هناك ثلاثة شوارع تصعد من الساحة العامة إلى قلعة بيرسا. ولقـــد أقيم علي جانبي هذه الشوارع منازل ارتفعت لستة طوابق أو أكثر، وكانت تبنى متقاربة من بعضها البعض[٦١]. ويبدو أن هذه المنازل كانت مخصصة لسكني الطبقة الشعبية.

---

(٥٤) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٣٧.

(٥٥) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ٩٧.

(56) Appian, VIII, XIV, 96 .

(٥٧) عبد العزيز عبد الفتح عمر، المرجع السابق، ص ٢٧.

(58) Picard. G&C, Op. Cit., p. 33.

(59) Warmington. B.H, Op. Cit., p.117 ; CF. Herm. G, Op. Cit., p.186.

(٦٠) أحمد صفر، المرجع السابق، ص٩٨ . ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: -
Picard. G&C, Op. Cit., pp.44- 45.

(61) Appian, VIII, XIX, 128.

وفي الناحية الجنوبية من بيرسا توجد مقابر قرطاجة. ومن الجدير بالذكر أن، المواقع التـــي احتلـــتها مدن المقابر كانت تبتعد تدريجياً بتتابع القرون عن المنطقة الساحلية. فقد كانت المقابـــر الـــواقعة حـــول المديـــنة تتراجع تدريجياً إلى منطقة المرتفعات، وذلك لصالح امتداد الأحياء السكنية ونمو المدينة(٦٢).

أمـــا حـــي ميغارة فكان يقع بعد مقابر المدينة محتلاً مساحات شاسعة من ناحية سيدي بوســـعيد الحالـــية(٦٣). ويـــبدو أن هـــذا الحي كان ريفي الطابع، حيث يذكر لنا آبيان أنه كان مـــزروعاً بالحدائـــق وبساتين الفاكهة التي كانت تروى بواسطة أقنية عميقة متعرجة، وكانت أيـــضا مقـــسمة بواسطة أسوار منخفضة و أسجية من أشجار شائكة وشوكية(٦٤). وكان سكان ذلـــك الحـــي من أثرياء المدينة، فلذلك كانت المنازل هناك تدل علي آيات الترف والثراء. أما حـــي سلامبو فيعد من أقدم الجهات في المدينة، وذلك بناءاً علي بقايا معبد الآلهة تانيت العائدة إلى منتصف القرن الثامن ق.م(٦٥).

ومما تقدم يبدو أن مدينة قرطاجة كانت مقسمة إلى ثلاثة أجزاء مختلفة:-

جـــزء علـــوي (قلعـــة بيرسا)، وجزء سفلي (يضم الموانئ، والساحة العامة...الخ)، وأخيراً، ضاحية ميغارة الريفية.

رابعًا:- السكان:

أمـــا ســـكان المدينة فإن معلوماتنا عنهم ضئيلة جداً. وقد أشار سترابون إلى أن عدد ســـكان مدينة قرطاجة وحدها قد بلغ حوالي سبعمائة ألف نسمة، وذلك عندما بدأ القرطاجيون فـــي شن الحروب البونية ضد روما في القرن الثالث ق.م (٦٦). ولكن يكاد يجمع الباحثون علي أن هـــذا الـــرقم يعـــد مستحيلا، وأن الرقم الذي يبدو معقولاً لعدد سكان قرطاجة أثناء الحرب البونـــية الثالثة هو حوالي مائتي ألف نسمة، بما في ذلك العبيد الذين تم تحريرهم في ظل هذه الأزمـــة، وأن هذا الرقم ارتفع إلى الضعف (أي أربعمائة ألف نسمة) تقريباً في فترة أوج قوة قـــرطاجة فـــي بداية القرن الثالث ق.م، بما في ذلك العبيد والسكان الأجانب. ويعتقد أيضا أن الـــرقم الذي قد أورده سترابون ربما يكون صحيحاً إذا ما اشتمل أيضا على سكان شبه جزيرة رأس الطـــيب (*Cape Bon*) والمـــنطقة التي بجوار المدينة، فقد كان سكان هاتين المنطقتين

---

(٦٢) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص٧٥.

(٦٣) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص١٠٨.

(64) Appian, VIII, XVII, 117.

(٦٥) محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص ص ١٠٨، ١١٢.

(66) Strabo, 17, 3, 15.

خاضـــعين لقرطاجة[٦٧]. وكان سكان مدينة قرطاجة يتشكلون في الأساس من مزيج عنصرين بشريين، هما العنصر الليبي والعنصر الفينيقي؛ وهما اللذان كونا شعب قرطاجة فيما بعد، كما كانـــا أيـــضا همـــا العنصران الأوليان اللذان عملا علي تنمية وازدهار قرطاجة ونقش اسمها بحروف من ذهب في تاريخ إمبراطوريات العالم القديم[٦٨].

خامساً:- الدستور ونظام الحكم:

"لقد عرف القرطاجيون بأنهم منظمون بشكل جيد، كما أن دستورهم هو أرقي بكثير، وفـــي نـــواح عديـــدة، من الدساتير الأخرى الخاصة بأمم أخرى"[٦٩]. هكذا وصفهم أرسطو وامـــتدح دستورهم. كما أشاد بوليبيوس أيضا بهذا الدستور ونظم قرطاجة السياسية عامة وأكد علـــي حسن انتظام أمورهم وقوانينهم حتى زمن الحرب الهانيبالية[٧٠] (الحرب البونية الثانية). ومـــن الجدير بالذكر أنه كان المظهر الوحيد في قرطاجة الذي حظي بمديح اليونان والرومان. ويـــبدو أنـــه كـــان يكفـــل لهـــا الاستقرار، وهو مطلب عزيز كانت تنشده المدن في العصور القديمـــة[٧١]، وهـــو الدســـتور الأجنبـــي (غيراليوناني) الوحيد الذي تم احتواءه في مجموعة الدراسات الدستورية التي قام أرسطو بإجرائها[٧٢].

ولكـــــــن، علي الرغم من ذلك، هناك بعض الصعوبات التي تواجه البحث في هذا الموضـــوع منها؛ أن معظم المصادر القديمة التي تحدثت عن دستور قرطاجة لم تكن مصادر متخصـــصة في هذا المجال. ولذا فقد تم تناوله بصورة عمومية وبطريقة عرضية أيضا، ومن ثـــم قدمـــوا أوصـــافا وأســـماءاً لا تطابـــق الحقيقة تماماً، وذلك لأنهم عالجوا هذا الموضوع بمـــصطلحات لغاتهم الأم. ويلاحظ أيضا أن كثيراً من المصادر التي تناولت موضوع حكومة قـــرطاجة لـــم تتعرض لمراحل تطورها كما لو أنها كانت كياناً ثابتاً لم يتغير منذ نشأتها وحتى

---

(67)Warmington. B.H, Op. Cit., p. 124.

ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:-

Picard. G&C, Op.Cit.,p .61 .

(68) Perry. A, Op. Cit., p. 19.

انظر أيضا:- سيد أحمد علي الناصري، تاريخ وحضارة الرومان من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٢، ص ص ١٣٦، ١٣٧.

(69) Aristotle, Politics, II, VIII. 1.

(70) Polybius, VI, 51. 1.

(٧١) وارمنجتون. ب.هـ، المرجع السابق، ص ٤٦٤.

(72) Warmington. B.H, Op. Cit., p. 119.

سقوط المدينة في يد الرومان في عام ١٤٦ق.م[٧٣]. ولكن، في الواقع، كانت الحكومة القرطاجية متطورة ومتغيرة بصورة مستمرة تبعاً للظروف التي أحاطت بالمدينة في مختلف مراحل حياتها. ومن الجدير بالذكر أن هذه التطورات السياسية والدستورية التي شهدتها الحكومة القرطاجية كانت تتصل اتصالا وثيقاً بالظروف والعوامل الاقتصادية والتي تعد، في الواقع، هي الطبيعة الأولى لهذه العناصر الفينيقية الأصل[٧٤]. ومن ثم فقد مرت الحكومة القرطاجية بعدة مراحل من التطور السياسي، وذلك منذ نشأتها وحتى سقوطها في عام ١٤٦ ق.م.

ويمكن إجمال هذه المراحل في أربعة مراحل مختلفة هي: -

المرحلة الأولى:

وتمتد منذ بداية نشأة المدينة و حتى منتصف القرن السادس ، وهي مرحلة الملكية. وهذه تعد في الواقع استمراراً لما كان موجوداً في حكومات المدن الفينيقية في الشرق وفي مدينة صور تقريباً[٧٥]. وهناك مصادر كثيرة تشير إلى وجود هؤلاء الملوك القرطاجيين، فأسطورة نشأة المدينة تتحدث عن إليسا بصفتها ملكة علي المدينة. ولابد أن إليسا قد أسست أسرة ملكية في قرطاجة، ولكننا لا نملك سجلا بحكامها[٧٦]. كما يشير يوستينوس إلى ملك قرطاجي يدعي مالخوس (*Malchus*) كان علي رأس الدولة خلال القرن السادس[٧٧]. وكان الملك، بالطبع، يختار من الطبقة الأرستقراطية الثرية ذات الجاه التقليدي بالوراثة. كما كان أصحاب الثروة الاقتصادية في المرتبة الأولى في السلطات السياسية.و يلاحظ أن الطبقة الأرستقراطية قد تركزت بصفة خاصة في عدد من الأسر التي احتكرت السلطات السياسية في الدولة. وكان علي رأس هذه الأسر، الأسرة الماجوية[٧٨].وفي البداية، كان منصب الملك انتخابيا وليس وراثيا، ولكن أعضاءاً من أسرة ماجو (*Mago*) تولوا المنصب فترة طويلة من الزمن[٧٩]. وكان الملك يحكم مدى الحياة في الفترة المبكرة من تاريخ المدينة ولكنه كان في حاجة دائمة لتجديد الثقة في قدرته علي قيادة المدينة. ولعل هذا ما قصده يوستينيوس عندما ذكر أن هاسدروبال (*Hasdrobal*) قد أختير دكتاتوراً علي قرطاجة إحدى عشرة مرة.

---

(٧٣) فوزي مكاوي، " تطور نظام الحكم في قرطاج "، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد الثامن، القاهرة، ١٩٧٩، ص ص ٨٢، ٨٣.

(٧٤) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ١٨٠.

(٧٥) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٠٣.

(76) Harden. D, The Phoenicians, London, 1963, p. 79.

(77) Moscati. S, Op. Cit., p. 131.

(٧٨) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ص ١٨٠، ١٨٣.

(٧٩) وارمنجتون. ب.هـ، المرجع السابق، ص ٤٦٤ .

ويــري الباحــثان الفرنــسيان الأخوان بيكار (*Picard*) في هذا التجديد تأثيراً فرعونياً علي قــرطاجة[٨٠]. ويبدو أنه كان يؤخذ في الاعتبار الصفات والميزات العسكرية للملوك عند شغل ذلــك المنــصب، فقد تم اختيار هاميلكار (*Hamilcar*) ملكاً (وهو الذي هزم وقتل عام ٤٨٠ ق.م في معركة هيميرا *Himera* بصقلية) ليس لأنه كان ينحدر من أسرة الماجويين فقط، بل أيــضا بسبب شجاعته التي ذاع صيتها[٨١]. ومن ثم فقد كان الملك القائد الأعلى للجيش، ولكن هــذا لم يمنع من تعيين قادة آخرين في بعض المعارك. وكان للملك حق دعوة مجلس الشيوخ ورئاسة جلساته وحق عرض القضايا المطلوب اتخاذ قرار فيها عليه. وكان له نفس الحق فيما يــتعلق بالمجلس الشعبي. ويبدو أيضا أن الملك كانت له مهام دينية وأخري قضائية كان يقوم بهــا[٨٢]. ولكن، علي الرغم من ذلك، لم تكن سلطة الملك في قرطاجة مطلقة، بل كانت مقيدة مــن قبل مجلس الشيوخ ويتضح ذلك من خلال القصة التي ذكرها يوستينيوس حول الصراع الــذي نــشب في منتصف القرن السادس بين مالخوس وجنوده من ناحية ومجلس الشيوخ من ناحية أخرى؛ ولقد انتهى ذلك الصراع بنفي الملك وجنوده خارج البلاد[٨٣].

المرحلة الثانيــة:

تمــتد مــن النصف الثاني للقرن السادس إلى نهاية النصف الأول من القرن الخامس. وتتميــز هــذه المــرحلة من التنظيم السياسي القرطاجي بسيطرة آل ماجو علي الحكم سيطرة تامــة. فقــد تولت هذه الأسرة الحكم في قرطاجة لمدة ثلاثة أجيال متتالية[٨٤]، فقد اعتلي ماجو نفــسه العــرش ثم تولى بعده أبناه هاسدروبال وهاميلكار وكذلك أبناء هاسدروبال الثلاثة وهم هانيــبال (*Hannibal*)، وهاســدروبال، وسافو (*Sapho*) ، كما تولاه أبناء هاميلكار الثلاثة وهم هميلكون (*Hamilcon*)، وحانون (*Hannon*)، وجيسكون (*Giscon*) [٨٥].

ولقد لعب آل ماجو دوراً خطيراً في تاريخ قرطاجة، فكانوا هم (بعد مالخوس الذي تقدم ذكره مــن قــبل) المــشيدين الفعليين لمجد قرطاجة العظيم. وصارت قرطاجة في عهدهم عاصمة لإمبراطورية واسعة مترامية الأطراف، وذلك بفضل شجاعتهم وعبقريتهم الحربية، فضلاً عن استخدامهم لجنود من المرتزقة مكنتهم من خوض الكثير من المعارك الفاصلة في تاريخ وحياة المديــنة. وبفضل الانتصارات الباهرة التي حققها آل ماجو، استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم مجداً

---

(٨٠) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص ٨٧.

(٨١) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٨٠.

(٨٢) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص ٨٨.

(83) Moscati. S, OP. Cit., P. 131.

(٨٤) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٨٥) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص ٨٦.

عظيماً، كما فتحوا للصناعة والتجارة أسواقاً في الخارج، ومنحوا الطبقة الأرستقراطية أراضى زراعــية خصبة في العمق الأفريقي. كل ذلك مكن آل ماجو من السيطرة علي الحكم والإدارة في البلاد سيطرة تامة، مما جعلهم يستبدون بالأمر في النهاية(٨٦).

وفي منتصف القرن الخامس ق.م تقريباً نشبت ثورة داخلية في قرطاجة؛ نتيجة هزيمة القــرطاجيين في معركة هيميرا(٨٧)عام ٤٨٠ق.م. وكان من نتائج هذه الثورة سقوط آل ماجو ونفــي أهــم أعــضاء هذه الأسرة وهما: -حانون و جيسكو (Gisgo). وبذلك تغيرت الهيئة الحاكمــة التــي استمرت ثلاثة أجيال متتالية. والأكثر من ذلك، تم إنشاء محكمة المائة كاتجاه أوليجركــي لحماية الدولة من تزايد قوة الفرد. وفي ذلك الوقت أيضا تغير لقب ووظيفة الملك إلــى لقب قاضي أو حاكم، مع تقليص لاحق في مدة المنصب(٨٨) (وهو ما سنتناوله بشيء من التفــصيل فــي المــرحلة التالية). وهناك نص ليوستينوس يعد بحق نصاً معبراً عن الظروف والأوضــاع التي كانت سائدة في قرطاجة في ذلك الوقت، يقول فيه:- "**ولأن أسرة ماجو هذه كانــت تــضغط علي الحرية العامة وتتدخل في سير أمور العدالة، بالإضافة إلى حكم الدولة، فقــد تم تكوين محكمة عليا، وكان علي قواد الجيش، بعد كل حرب، أن يقفوا أمامها ليقدموا لهــا تقارير عن عملياتهم العسكرية. وتهدف هذه العملية إلى غرس احترام سلطة الدولة في نفــوس هــؤلاء القــادة، ولكــي يكــون الخوف من القضاء والقانون محركاً لهم في سبيل خضوعهم لقرطاجة**(٨٩)". ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن هذه الثورة كانت عبارة عن تصدي الطبقة الأرستقراطية للحكم الفردي الملكي الذي كان مجسداً في آخر ملوك آل ماجو.

ولقــد مكــن سـقوط هذه الأسرة الملكية الطبقة الأرستقراطية من إقامة حكم الأقلية (Oligarchic) بدلاً من الحكم الفردي الملكي(٩٠)، مما ساعد، علي ما يبدو، علي ازدياد نفوذ الطــبقة الأرســتقراطية وقوتها وسيطرتها علي أجهزة الحكم والإدارة في البلاد. ومن الجدير بالملاحظــة أن قوة هذه الطبقة قد ازدادت بعد أن استقرت أوضاعها. فمن المعروف أن ثروة

---

(٨٦) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ١٠٤، ١٠٥.

(٨٧) كانــت هــذه المعــركة بــين جيلون (Gelon) دكتاتور سيراكوزا وثيرون (Theron) دكتاتور أجريجينتوم (Agrigentum) من ناحية، وهاميلكار بن ماجو من ناحية أخرى. ولقد هزم الأخير في المعركة وقتل، كما قتل جنوده أيضاأو استعبدوا، كما تم حرق أسطوله. وانتهت هذه المعركة بمعاهدة سلام عقدت بين الطرفين. انظر :- محمــد أبــو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ص ٧٦، ٧٧ . ولمزيد من المعلومات حول هذه المعركة وظروفها وبنود صلحها، انظر: -

Perry. A, Op. Cit ., pp. 23-24 ; Church. A.J, Op. Cit., pp. 25-26.

(88) Moscati. S, Op. Cit., pp. 123, 124, 132.

(89) Warmington. B. H, Op. Cit., p. 121.

(٩٠) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٠٥.

الأرســـتقراطية كانت تعتمد علي التجارة البحرية، ومن ثم كانت أية أسرة أرستقراطية معرضة للإفلاس إذا ما غرقت أموالها. ومن المؤكد أن هذا الوضع المضطرب كان يحد من ازدياد قوة هــذه الطــبقة. ويبدو أن هذا الوضع غير المستقر هو الذي ساعد علي استمرار الملكية رغم هــزيمة هيميرا. ولم تبدأ الملكية في فقد قوتها إلا بعد تزايد استقرار رأس المال الأرستقراطي. وقــد تــم ذلــك إثر اهتمام القرطاجيين بتملك الأراضي الزراعية الخصبة في العمق الأفريقي كنتيجة مباشرة لهزيمة هيميرا عام ٤٨٠ ق.م أمام اليونانيين الصقليين. وبذلك أصبحت رؤوس أمــوال الأرســتقراطية غيــر قابلة للغرق وصارت هذه الأسر غير معرضة لاحتمال الوقوع المفاجــئ في شباك الفقر. وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى حدوث التغييرات السالفة الذكر في نظام الحكم القرطاجي(٩١).

المرحلة الثالثة:-

ويتميــز نظام الحكم القرطاجي فيها بأنه كان نظاماً جمهورياً أوليجركيا(٩٢). وتمتد من حوالــي منتــصف القرن الخامس ق.م، إلى حوالي بداية القرن الثالث ق.م(٩٣)، بينما يضع لها الــبعض الآخــر تاريخاً أكثر تحديداً يمتد من النصف الثاني من القرن الخامس ق.م إلى نهاية القــرن الــرابع ق.م (قــبل الحروب البونية) (٩٤). ولكن، في الواقع، يبدو أن ليس هناك فارق زمنــي كبير بين التاريخين. وتتميز هذه المرحلة بتعدد الوظائف والمناصب السياسية،التي كان علي رأسها؛ منصب القاضيين (الحاكمين).

ولقــد أطلق أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) عليهما لقب الملوك، كما ماثل بينهما وبين ملــوك إســبرطة. بيد أن الميزة التي تتفوق فيها قرطاجة هي أن ملوكها لم يكونوا منتمين إلى عائلة واحدة أو إلى عائلة بحد ذاتها(٩٥). وكان يطلق عليهما أيضا لقب "**الأسباط**" **(Shofetin)** وهــي كلمة فينيقية عبرانية الأصل. ويبدو أن المعني المقصود منها، علي الارجح، لا يتعدي مدلــولها بالعبرانية وهو معني الحكام أو القضاة(٩٦). وقد عثر علي هذا اللقب (أسباط) منقوشاً علــى كثير من الأنصاب النذرية في قرطاجة. و في الواقع ، كانا اثنان يتم انتخابهما في المرة الــواحدة. وكــان هــذان الــسبطان يقــومان بمهــام وظائفهما لمدة سنة كاملة كانت تعرف

---

(٩١) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص٩٠.

(٩٢) إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان، الجزء الأول. منذ أقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق.م.، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي. ليبيا، ١٩٧١، ص ٢٤٨ .

(٩٣) محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم) ، ص ٢٩٦ .

انظر أيضا:- رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ١٨٣.

(٩٤) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(95) Aristotle, Politics, II, VIII .2.

(96) Picard. G&C, Op. Cit., p. 98.

باسميهما[٩٧]. ومن الجدير بالذكر أن مهام منصبهما لم تكن تختلف علي الإطلاق عن المهام التي كانت موكلة إلى الملك القرطاجي في المرحلة الأولى من تاريخ التنظيم السياسي في قرطاجة.

ولقد تشابه منصب الأسباط هذا مع نظام القنصل الروماني من حيث مدة حكمه السنوية وأيضا ثنائية المنصب. وكان الرومان يطلقون علي السبطين القرطاجيين لقب (سوفيتس) (**Suffetes**)[٩٨].

ويبدو أن تجديد الانتخاب لهذا المنصب كان ممكنا في تلك الفترة[٩٩]، بينما يري البعض الآخر أنه لم يكن جائزاً[١٠٠]. وكان يراعي عند اختيار هذين الحاكمين شرطان أساسيان هما، الجدارة والثروة العظيمة. كما كانت هي أيضا الشروط المتبعة عند اختيار القادة العسكريين[١٠١].

أما الهيئة السياسية التالية في سلم التنظيم السياسي القرطاجي في تلك المرحلة هي، مجلس الشيوخ، وهو يشبه مجلس الشيوخ الذي كان موجوداً في مدينة صور الوطن الأم. وكان يتألف من ثلاثمائة عضو يتم اختيارهم من الطبقة الأرستقراطية ويشغلون منصبهم مدي الحياة. وقد أطلق أرسطو عليه اسم "جيروسيا" (**Gerousia**) وهي كلمة يونانية مشتقة من (جيرون) أي شيخ. ويدل هذا علي أن أعضاء هذا المجلس لم يكونوا طاعنين في السن بمعني الكلمة، بل كانوا علي الأقل في سن الكهولة[١٠٢]. وكان يتم اختيارهم (مثل القضاة والقادة العسكريين) وفقا لدرجة الثراء والجدارة والكفاءة بغض النظر عن السن، وذلك لأن هؤلاء الشيوخ كانوا يقومون بمهام خطيرة وجسيمة فإذا كانوا رجالاً غير أكفاء أضروا بالبلاد كما أضر شيوخ إسبرطة بدولتهم[١٠٣].

ويبدو أن مجلس الشيوخ هذا قد شهد ازدياداً كبيراً في السلطة والنفوذ والقوة، فقد كان يضطلع بمهام واختصاصات كثيرة و هامة مثل:- الأمور السياسية والإدارية، وتقرير مسائل الحرب والسلم،و مناقشة الشئون الخارجية والسفارات،و الإشراف علي تنظيم الجيش واختيار

(٩٧) أحمد صفر، نفس المرجع .

(98) Cook. S (& Others) ,The Hellenistic Monarchies And The Rise Of Rome, (C.A.H),Vol. VII, Chap. XXI, Cambridge, 1928, p. 666.

(99) Heitland. W. E, A Short History Of The Roman Republic, Cambridge, 1929, p. 95; CF. Warmington. B.H, Op. Cit., p. 120 ; Moscati. S, Op. Cit., p. 133.

(١٠٠) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص ٩١.

(101) Aristotle, Politics, II, VIII. 5-7.

(١٠٢) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(103) Aristotle, Op. Cit., VIII. 2.

المرتـــزقة،و اختيار القادة العسكريين ومحاسبتهم، وتقييم سير العمليات العسكرية، مع الاهتمام بالشئون الداخلية، بالإضافة إلى كل ما من شأنه المساس بأمن الدولة وإصدار القوانين المختلفة وخـــصوصاً تلك الخاصة بالضرائب والشئون المالية وتنظيم الخزانة العامة، وبذلك كان يمثل السلطة العليا والرئيسية في قرطاجة(١٠٤).

وكان يتفرع من مجلس الشيوخ هذا مجلس آخر يسمي "محكمة المائة وأربعة" ، حيث كـــان يضم (١٠٤) عضواً أو قاضياً. و يتم اختيارهم علي أساس الكفاءة والجدارة. وكانت هذه المحكمـــة تشبه مجلس (الإفورس) **(Ephores)** الإسبرطي(١٠٥). وكانت هذه المحكمة شبيهة بالمحكمـــة العلـــيا، ومـــؤهلة لمراقبة وفحص أي أمر في شتي المجالات، وذلك بالإضافة إلى صفتهم القضائية الخاصة بالحق العام.وكان الأعضاء غير قابلين للعزل، ومسئولين عن توفير الأمـــن العام في البلاد عن طريق إشرافهم المباشر علي شرطة قوية جداً(١٠٦). كما كان موكلاً لهـــذه المحكمـــة مهمة محاسبة القادة العسكريين بعد كل معركة حربية (كما سبق وأن ذكرنا). ومـــن الجديـــر بالذكر أنه، أثناء الحرب البونية الأولى تم صلب أربعة قادة بأمر محكمة المائة والأربعة(١٠٧).

وكـــان يتم انتخاب محكمة المائة والأربعة بواسطة لجان خماسية أطلق عليها أرسطو اســـم (**Pentarchies**)، وهـــي عبارة عن هيئات مكونة من خمسة أعضاء وتتمتع بسلطات واسعة وهامة، وتظل في الحكم مدة أطول من غيرهم ويمارسون مهام عملهم أثناء وجودهم أو غيابهم عن المدينة (وهذه كانت من السمات الأوليجاركية في الدستور القرطاجي). وتؤدي هذه اللجان مهام منصبها بدون أجر، كما أن اختيارهم لم يكن يتم عن طريق القرعة أو بأي طريقة مـــشابهة (ســـمات أرســـتقراطية) (١٠٨)، بل يري البعض أن الأعضاء هم الذين كانوا ينتدبون أنفـــسهم بأنفسهم من بين أعضاء مجلس الشيوخ. وتعتبر هذه الهيئات كلجان تتكون من مجلس الـــشيوخ وتتفـــرع عنه للاختصاص ببعض المهام مثل الشئون الخارجية، والجيش، والبحرية،

---

(104) Moscati. S, Op. Cit., pp. 123,124,132.

انظر أيضا:- لبيب عبد الساتر، المرجع السابق، ص ١١٧.

(105) Aristotle, Loc. Cit.

(١٠٦) فرا نسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٨٥. ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر أيضا:- فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص ص ٩٥، ٩٦.

(107) Picard. G &C, Op. Cit., p. 98.

ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:- الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ص ١٨٦ ، ١٨٧.

(108) Aristotle, Politics, II, VIII. 2-5.

والمالية، والأمور الدينية.......الخ(١٠٩). وبذلك يبدو أن القرطاجيين قد أسندوا إدارة البلاد إلى هيئات كثيرة ومتعددة، وكانت كل واحدة منها تؤدي المهام الموكلة إليها بصورة مستقلة؛ وذلك بدلاً من تركيز كل السلطات في أيدي جماعة أو هيئة واحدة بذاتها. وكان ذلك كله مرده الحذر الشديد من أية محاولات طموحة للاستئثار بالحكم والإدارة مثلما حدث في عهد الأسرة الماجوية(١١٠). ويري البعض أن سلطة هذه الهيئات لم تكن مدى الحياة(١١١).

ولقد أشار أرسطو أيضا في معرض حديثه عن الدستور القرطاجي وتنظيماته المختلفة إلى المآدب الجماعية لأعضاء جمعيات الأصدقاء أو الرفقاء "الهيتيريات" (***Hetairies***) التي تشبه الفيديتيات (***Phidities***). ويعتقد أنها كانت وحدات ممثلة للعائلات الأرستقراطية القرطاجية، وتشبه أفخاذ القبائل "الفراتريات" (***Phratrie***) الإغريقية، والأحياء "القوريا" (***Curia***) الرومانية التي كانت عبارة عن خلايا انتخابية. ويتفق ستيفان جزيل (***Gsell***) مع هذا الرأي ويضيف إليه أيضا أن كل المواطنين، لا الأرستقراطية فحسب، كانوا موزعين علي الهيتيريات التي كونت وحدات انتخابية، وتحتسب نتيجة تصويت المواطنين في كل واحدة منها صوتاً واحداً في الانتخاب العام(١١٢). وكانت هذه الهيتيريات جمعيات قانونية يتم إنشاؤها بتصريح من القانون العام. ويعتقد أن تكلفة ولائمهم هذه كانت علي نفقة رؤساء هذه الجماعات، الذين يستفيدون لاحقا من مساندة زملائهم في أعمالهم السياسية(١١٣).

ومن الجدير بالذكر أنه كان هناك مجلس آخر قد أشار إليه أر سطو عند حديثه عن الصفات الديمقراطية المتمثلة في الدستور القرطاجي هو "مجلس الشعب"، حيث أشار إلى أن الحاكمين ومجلس الشيوخ كانوا أحراراً في أن يعرضوا أو لا يعرضوا علي الشعب قضية ما إذا ما تم الاتفاق بينهم جميعاً بشأنها. ولكن في حالة الاختلاف يتم اللجوء إلى الشعب من أجل حسم القضية. وكان يسمح للشعب بالحديث أثناء هذه الاجتماعات بحرية تامة وليس مجرد الإصغاء لقرارات الحكومة في القضايا المعروضة عليه. والأكثر من ذلك ، أنه كان بمقدور كل مواطن أن يناقش هذه القضايا بحرية مطلقة. وهذا ما كان أرسطو يعتبره ميزة في الدستور القرطاجي، حيث لم يكن هذا متاحاً في دساتير أخرى(١١٤).

---

(١٠٩) أحمد صقر، المرجع السابق، ص ص ١٠٨، ١٠٩ ؛ انظر أيضا:- Church .A.J, Op. Cit., p: 104.

(١١٠) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٨٥.

(111) Moscati. S, Op. Cit., p. 133.

(١١٢) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ص ١٨٢، ١٨٣ .
انظر أيضا:- شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ١١٥.

(113) Picard. G&C, Op. Cit., p. 97.

(114) Aristotle, Politics, II, VIII. 2-5.

ويــبدو مما سبق، أن مجلس الشعب هذا كان يتمتع بسلطات كبيرة. ولكن في الواقع، فإنــه كان محكوماً في ممارسة تلك السلطات إما برغبة الملك والشيوخ أو باختلافهم. ولم يكن اللجوء إلى الشعب يحدث كثيراً، بل كان نادراً ما يتم اللجوء إليه. **ولم تسجل المصادر القديمة إلا ثــلاث حالات فقط تم فيها اللجوء إلى الشعب وعرض الأمر عليه**(١١٥). ويري البعض أن ذلك كان مجرد وسيلة يستطيع من خلالها الأسباط إيهام الشعب بأنهم يشاركون في الحكم، كما تمكــنهم أيــضا فــي بعض الظروف الخطيرة من إشراك الشعب في المسئوليات ليأخذ نصيبه مــنها(١١٦). وكــان مجلس الشعب هو الذي ينتخب الأسباط و القادة سنوياً، ولكن كان يحد من ســلطته أن مجلــس الــشيوخ هو الذي كان يعرض عليه أسماء المرشحين للانتخاب(١١٧). أما شروط الانضمام لهذا المجلس فكان أساسها بالطبع المواطنة وبلوغ سن محددة وتوفر حد أدني من الدخل(١١٨).

أمـــا القيادة العسكرية في قرطاجة فكانت متميزة وذات طابع خاص، بل ومختلفة أيضا عــن مثيلاتها في بلاد العالم القديم، حيث لم يكن لدى قرطاجة هيئة للضباط المحترفين. وكان قــوادها يعيــنون عند الحاجة ولحملات محددة الجهة، ولكنهم لم يكونوا كما في روما الحكام الرئيــسيين للعــام، كما لم تكن قيادتهم هذه محددة بمدة معينة؛ فطالما يكونون ناجحين وأقوياء يظلــون في القيادة سنوات طويلة كما حدث بالنسبة لآل برقا (**Barcid**) قبل و أثناء الحرب البونية الثانية. ولابد أن ذلك قد مكن قرطاجة من التفوق علي خصومها(١١٩).

ومن الجدير بالذكر أنه ،في القرن الرابع أو الثالث ق.م تم فصل القيادة العسكرية في قرطاجة فصلاً تاماً عن منصب رئاسة الدولة(١٢٠). وحدث ذلك عندما سيطرت الأرستقراطية تمامــاً علــي الحكم في المدينة في تلك المرحلة، حيث رأت في اجتماع هاتين السلطتين في يد واحدة خطر كبير علي سلطانها ونفوذها(١٢١). ويبدو أن ذلك أيضا كان كرد فعل لما كان سائداً في عهد أسرة ماجو (التي استبدت بالحكم بصفة مطلقة) ورغبة قوية أيضا في عدم تكرار ذلك فيما بعد في المستقبل.

---

(١١٥) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص٩٧.

(١١٦) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٠٩.

-CF. Heitland. W.E, Op. Cit., p. 95.

(١١٧) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

(118) Moscati. S, Op. Cit., p. 131.

(119) Harden. D, Op. Cit., p. 126 ; CF. Cook. S (& Others), Op. Cit., p. 666.

(١٢٠) وارمنجتون ب. هــ، المرجع السابق، ص ٤٦٤.

(١٢١) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص ٩١.

ولقـد كانـت قرطاجة في بداية تاريخها تعتمد علي أبنائها في حروبها المختلفة شأنها في ذلك شأن بقية المدن القديمة، إلا أنها منذ منتصف القرن السادس ق.م، وتحت قيادة ماجو- زعيم الأسرة الماجوية- اتبعت سياسة استخدام القوات المرتزقة علي نطاق واسع، ولقد داومت علـي إتـباع هذه السياسة حتى نهاية تاريخها. ولعل السبب الذي دفع قرطاجة إلى التوسع في إتـباع هـذه السياسة هو قلة عدد سكانها، فضلاً عن الحروب الضخمة والكثيرة التي خاضتها إبان الحركة التوسعية التي قامت بها في تلك الفترة(١٢٢).

ولكـن يـبدو أن اسـتخدام المرتزقة كان سلاحاً ذو حدين، فبالرغم من الانتصارات الباهرة التي حققها القرطاجيون أثناء حروبهم هذه، إلا أنه من المؤكد أيضا أنها كانت لها نتائج سـلبية أثـرت بشدة علي قرطاجة، أهمها إضعاف القوات العسكرية القرطاجية خاصة بعد أن لجـأت قرطاجة إلى سياسة إعفاء المواطنين القرطاجيين من الخدمة العسكرية منذ بداية القرن الخامس ق.م- ماعدا في حالات استثنائية. وقد حال ذلك بين القرطاجيين وبين تعميق الشعور بمـدى قوتهم الذاتية التي كانت عاملاً مؤثراً في تطور الاتجاهات الديمقراطية في بلاد اليونان والـرومان، فضلاً عن إضعاف الروح القومية وإبعاد القرطاجيين تدريجياً عن الجيش والحياة العـسكرية(١٢٣). و بـصفة عامة يعد الاعتماد الكلي علي المرتزقة في الجيش القرطاجي من الجـوانب الخطيـرة فـي تنظيمهم العسكري، وذلك لأن هؤلاء الجنود المرتزقة لا يشعرون بالـولاء نحـو الدولـة التي يعملون لديها بالأجر وبصفة مؤقتة. كما أن عدم حملهم للمواطنة القـرطاجية لا يـدفعهم إلـى الإخلاص في أداء مهمتهم(١٢٤). ولكن هناك رأياً آخر يري أن التوسـع فـي اسـتخدام المرتزقة وإعفاء المواطنين القرطاجيين من الخدمة العسكرية كان له جـوانب إيجابـية أيـضا مـثل عدم تعريض السكان لمخاطر الحروب، كما أن استبعاد تجنيد الطبقات الشعبية أدى إلى تحقيق استقرار حكم الطبقة الأرستقراطية(١٢٥).

ولكـن علـى أيـة حـال، فقد تسببت فرق المرتزقة هذه في كثير من الاضطرابات والهـزائم لقرطاجة، كما أنها كانت أحياناً ما تثور ضد قرطاجة مسببة لها أضراراً خطيرة، بل وتهديـد قرطاجة نفسها في عقر دارها مثلما حدث أثناء "حرب المرتزقة" التي أعقبت الحرب البونية الأولي والتي تحالفت فيها مع الرعايا الليبيين، مما زاد من خطرها كثيراً. **ولـذلك يمكن**

---

(١٢٢) محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية(تاريخ لبنان القديم)، ص ٢٩٨.

(١٢٣) محمد بيومي مهران، المغرب القديم، ص ٢٠٠ ؛ انظر أيضا:- وارمنجتون. ب.هـ، نفس المرجع.

(١٢٤) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ١٨٥.

(١٢٥) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص٩٩.

-CF. Cook.S (& Others), Op. Cit., p. 665.

القــول بــأن الاعــتماد علي المرتزقة في الجيش القرطاجي بشكل أساسي كان أحد الأسباب الهامة التي أدت إلى سقوط قرطاجة في النهاية.

ولقــد وجه أر سطو بعض الانتقادات للدستور القرطاجي في تلك المرحلة كان أهمها مــراعاة الثــروة في كل شئ وقبل كل شئ فكانت الثروة والكفاءة الشروط الأساسية لانتخاب كثير من المناصب الهامة مثل القضاة والحكام وأعضاء مجلس الشيوخ. **ولكن الأسوء من ذلك أن كثيــراً مــن المناصــب الهامــة في الدولة مثل السلطة العليا والقيادة كانت قابلة للبيع والشراء، مما تسبب في انتشار الرشوة الصريحة في المجتمع. فقد جعل القانون الثروة أكثر أهمــية مــن الكفاءة والجدارة.** كما أنه من المؤكد أن هؤلاء الذين قاموا بشراء تلك المناصب كانــوا لــن يعملــوا علي تعويض تلك المبالغ فحسب، بل سيعملوا علي الاستفادة منها لأقصي درجــة وتحقــيق المكاسب الطائلة من ورائها. ومن النقاط التي أخذت أيضا علي الدستور في تلــك المرحلة هي إمكانية جمع شخص واحد بين أكثر من وظيفة في وقت واحد. وتعتبر هذه النقطة من الأمور الشهيرة والواضحة في قرطاجة. ويري أرسطو أنه كان من الأفضل توزيع المهام والاختصاصات بين كثير من الأشخاص بدلاً من تكديس كثير من المناصب في يد رجل واحــد، وذلــك من أجل ضمان سير العمل بكفاءة وفاعلية، كما أن هذا يبدو أكثر أمناً وسلامة للبلاد(١٢٦).

وعلــي الرغم من ذلك، امتدح أر سطو الدستور القرطاجي عامة، ولاحظ بعد صدوره ندرة الثورات والقلاقل الداخلية التي تستحق الذكر، وذلك لأنه لم يكن مع ذلك نظاماً استبدادياً، بل كان يقوم ويعتمد علي إرادة الشعب(١٢٧).

و خلاصــة القول، يمكن وضع الدستور القرطاجي في تلك المرحلة في صف الدساتير المخــتلطة، حــيث كــان يجمــع بين الصفات الديمقراطية من ناحية والصفات الأرستقراطية والأوليجاركية من ناحية أخرى.

المرحلة الرابعة:-

و تمــتد في القرنين الثالث والثاني ق.م (من الحروب البونية إلى سقوط قرطاجة)، و فيها تركزت السلطة العليا في يد آل برقا (هاميلكار وهانيبال وهاسدروبال). ولقد اعتمدت هذه الأســرة علي سلطة الشعب فنالوا مكانة عالية في البلاد. أما مجلس الشيوخ فقد ضعف نفوذه وتــضاءلت قوته بعض الشيء عما كان سائداً في المرحلة السابقة. ويرجع ذلك إلى اعتماد آل بــرقا علي الشعب وليس علي الطبقة الأرستقراطية. وبالرغم من ذلك كان هذا المجلس كثيراً

(126) Aristotle, politics, II,VIII.5-9.
(127) Ibid, I.

ما يبت في المسائل الهامة، فهو الذي قرر مثلاً إعلان الحرب البونية الثالثة والأخيرة في حياة المديـــنة. وعلي العكس تماماً من ذلك كان مجلس الشعب الذي قام في هذه المرحلة بدور من أهـــم الأدوار وازدادت أهميته وعظم شأنه وصار كثيراً ما تتم استشارته وأخذ رأيه(١٢٨).وبدءاً مـــن القـــرن الثالث ق.م أصبح من حق هذا المجلس وحده اختيار قادة الجيش، كما أصبح في عهد هانيبال برقا أنه هو الذي يقوم بتعيين القضاة ومجلس الشيوخ(١٢٩).

ولقـــد شـــهد مجلـــس الشيوخ في تلك الفترة المعارضة المنظمة التي تمثلت في وجود حـــزب يـــؤيد آل بـــرقا ويدافـــع عـــن قيادتهم للبلاد ويمكن تسميته الحزب الشعبي في مقابل معارضـــة حزب الأرستقراطية الذي حذر من قيادة البرقيين وعارض بشدة الحرب ضد روما حتى أخر لحظة، وكان زعيمه يسمي حانون(١٣٠).

وفـــي نهايـــة القـــرن الثالث، وجد مجلس مكون من ثلاثين عضوا من أعضاء مجلس الـــشيوخ، و كان يمثل هيئة دائمة في مجلس الشيوخ. ويبدو أنها كانت تعتني بالأمور اليومية والعاجلـــة الهامة(١٣١). وكان مجلس الثلاثين هذا مؤلف من أكثر أعضاء مجلس الشيوخ نفوذاً وقـــوة، ومـــن المرجح أن السبطين كانا من بين أعضائها. ويعتقد أن السلطة الفعلية في البلاد كانـــت فـــي قبضتها، حيث كانت تجتمع بانتظام؛ أما بقية أعضاء مجلس الشيوخ فإنهم علي ما يبدو كانوا لا يجتمعون إلا في مناسبات خاصة(١٣٢).

لقـــد وجـــد أيضا في تلك المرحلة مجلس أخر يسمي "مجلس العشرة"، نسبة إلى عدد أعـــضائه، وكـــان يهتم بشئون المعابد والأمور الدينية وخاصة أعمال البناء والتنظيم الداخلي حسبما تتطلبه إقامة الشعائر والطقوس الدينية(١٣٣).

ومـــن الجديـــر بالملاحظـــة في هذه المرحلة استمرار ممارسة الرشوة وبيع الوظائف والمناصـــب العامـــة علـــي نطـــاق واســـع وبـــشكل علنـــي وصـــريح. كما أشار بوليبيوس (٢٠٠-١٢٢ ق.م) أيـــضا إلـــى تدهـــور الدســـتور القرطاجي وفساد الحياة السياسية في تلك المرحلة وخاصة في بداية الحرب الهانيبالية (الحرب البونية الثانية عام ٢١٨ ق.م) (١٣٤).

ومـــن الجديـــر بالذكر أن، هانيبال (البرقي) قام بحركة إصلاحية عظيمة في قرطاجة لإصـــلاح تلـــك الأوضاع الفاسدة، وذلك بعد أن عجزت قرطاجة عن دفع الغرامة المالية التي

---

(١٢٨) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ١١٠، ١١١.

(١٢٩) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٨٥.

(١٣٠) فوزي مكاوي، المرجع السابق، ص ص ٩٤، ٩٥.

(131) Warmington. B.H, Op. Cit., p. 122.

(١٣٢) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

(١٣٣) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١١١.

(134) Polybius, VI, 51.1, 54. 5-56. 2, 56. 2-13.

فرضــت علــيها بعــد هزيمتها في معركة زاما (*Zama*) عام ٢٠١ ق.م. وكان هذا في عام ١٩٥ ق.م، عــندما تــم انتخابه سبطاً في ذلك العام.وقد شملت هذه الإصلاحات جوانب كثيرة وهامــة في قرطاجة، وكان أولها وأهمها نظام الحكم والإدارة؛ فقد قام هانيبال بإصلاح محكمة المائــة والأربعــة التي كان أعضاؤها يتولون المنصب لمدى الحياة في ذلك الوقت مما جعلهم يستبدون بالأمور، فأصدر قانوناً يقضي بسنوية هذا المنصب، كما يمنع توليه مرتين متتاليتين.

كمــا أصلح أيضا الإدارة المالية وضبط الإيرادات والمصروفات العامة للدولة، ونظم الضرائب ....الخ[١٣٥].

والخلاصــة أن، الدستور القرطاجي كان متأثراً إلى حد كبير بما كان سائداً في الوطن الأم فــي فينيقــيا عامة، وصور خاصة؛ حيث كان النظام القرطاجي قائماً علي سيطرة التجار الأثرياء وهم الذين سيطروا علي السلطة الفعلية في البلاد من خلال مجلس الشيوخ وأيضا من خــلال محكمــة المائــة وأربعة. وفي نفس الوقت كان الدستور القرطاجي يشبه إلى حد كبير الدستور اليوناني الذي كان سائداً في أسبرطة وكذلك الدستور الروماني.

وهكــذا يمكن القول أن دستور قرطاجة ونظام حكمها كان يجمع بين أصلها كمدينة فينيقــية وبــين تأثيــرات اكتسبها ذلك النظام من خلال اتصاله بالنظم السياسية الأخرى في الغــرب. والحقيقة أنه يمكن سحب هذه النتيجة الأخيرة علي مدينة قرطاجة عامة، فكثيراً ما جمعــت هــذه المديــنة بين الموروث الفينيقي في الوطن الأم وبين صفات ومؤثرات البيئة المحيطة بها في الغرب وذلك في شتى مجالاتها، وحتى في مبانيها وأيضا الأسطورة الخاصة بنشأتها، فجميعها قد جمعت بين الموروث الفينيقي وبين المؤثرات اليونانية وغيرها.

(135) Livy, XXXIII, XLVI.7, XLVI.7-XLVII.5.

الفصل الثاني
النشاط الاقتصادي

الآن بعد أن تناولنا في الفسل السابق أسطورة نشأة المدينة، وموقعها الجغرافي، وتاريخ تأسيسها، وسكانها، ودستورها ونظام الحكم فيها ، ننتقل إلى دراسة النشاط الاقتصادي في قرطاجة من زراعة، وصناعة، وتجارة.........الخ .

أولاً:- الــــــزراعة

تعــد الزراعة من أهم وأقدم الأنشطة الاقتصادية في العالم القديم على الإطلاق، حيث كانــت بمثابة أساس ودعامة للأنشطة الاقتصادية الأخرى مثل الصناعة والتجارة. ومع ذلك لم يكن هناك اهتمام كبير بالزراعة في قرطاجة في البداية، حيث كانوا يعتمدون على التجارة في المقـــام الأول، وظل الوضع هكذا حتى منتصف القرن الخامس ق.م، فمنذ ذلك التاريخ أخذت قرطاجة تتوسع في امتلاك الأراضي الزراعية الخصبة في أفريقيا(١).

ولقــد تطــورت المنطقة الزراعية لقرطاجة من مجرد ظهير محدود حول المدينة إلى مجــال زراعـــي شاســع. وكان يشمل مناطق ملكيات القرطاجيين المباشرة مثل الوطن القبلي وســهول مــنخفض وادي ملــيان (Miliana) ومجردة الأسفل وهو المجال الممول لقرطاجة والــذي ذكرته المصادر الإغريقية بصيغة (Chora) (٢). وكانت هذه المنطقة كثيرة التلال ذات تــربة صلــصالية، جــيدة الري، وأصلاً كانت مغطاة تقريباً بأشجار كثيفة من الزيتون البري وأشجار الصمغ(٣).

غيــر أن ملكــية قرطاجة لهذه المقاطعة الإفريقية لم تحول قرطاجة من المدينة الدولة إلـــى مرحلة الدولة. لكن أعطت لها سيادة مباشرة على مساحة شاسعة من الأراضي الزراعية الخــصبة وزودتهــا بمــصدر من الطعام كافي لحمايتها من شر المجاعة إذا حدثت في وقت الحــروب والحصار. وفي سردينيا وأسبانيا مارست قرطاجة الحكم المباشر على كل الأراضي الخــصبة،وخاصة الــصالحة لإنتاج الحبوب. ففي سردينيا ضمت لها سهول المناطق الجنوبية والغــربية فـــي شكل ولاية ونقلت إليها أهالي من أفريقيا لزراعة الأرض هناك، وقد أصرت قرطاجة على زراعة الأرض الخصبة بالغلال(٤).

وكانت الأرض القريبة من العاصمة مثل منطقة رأس الطيب (*Cape Bone*) مشغولة مــن قبل القرطاجيين تماماً، وكانوا يستغلونها بواسطة الخدم والعبيد. أما بقية البلاد فكانت ملك الدولـــة ولكن تدار بواسطة السكان المحليين الذين فقدوا استقلالهم باستثناء بعض العائلات التي

---

(١) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٢) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٥١.

(3)Picard. G & C, Op. Cit., P. 85 .

(4) Harden. D, Op.Cit. ,pp. 77, 78.

حصلت على امتيازات وتكيفت بسهولة مع النظام الجديد؛ ولكنها في نفس الوقت كانت ملتزمة بدفع ضرائب عينية من الغلال للحكومة القرطاجية(٥).

ويـــبدو أن القـــرطاجيين قـــد استغلوا الأراضي التي سيطروا عليها أحسن استغلال، وعـــندما نزل أجاثوكليس بالوطن القبلي في عام ٣١٠ ق.م بقصد غزو قرطاجة وقف مذهولاً أمـــام مـــا شاهدوه من خيرات في مزارع الكروم والزيتون والمراعي، ويؤكد على ذلك أيضا بوليبـــيوس عـــند وصفه للمنطقة، إثر حملة القنصل أتيليوس ريجيلوس (***Atilius Regulus***) سنة ٢٥٦ ق.م أي في أثناء الحرب البونية الأولى(٦).

وهـــناك دلـــيل على تقدم الزراعة القرطاجية والاهتمام بها، ويتمثل في مؤلف "**ماجو**" الزراعـــي المكون من ٢٨ كتاباً ضاعت معظمها ولم يتبق منه سوي فقرات قليلة تقدر بحوالي ٤٠ أو ٦٦ فقرة(٧). ولقد أمر السناتوس الروماني بترجمة هذا المؤلف إثر تدمير قرطاجة عام ١٤٦ ق.م إلـــى اللاتينية، ويعتبر كوليملا (***Columelle***)، وهو الذي قام بترجمة هذا المؤلف مـــع زمـــيله فارو(***Varro***) ، ماجو (أباً للعلوم الريفية). وترجم بعدها إلى اليونانية أيضا. ولقد فقدت هاتان الترجمتان أيضا(٨).

واستناداً إلى محتويات هذا الكتاب يري البعض، أن الزراعة في قرطاجة كانت منظمة بعـــناية؛ ذلـــك أن الأربعين فقرة التي لدينا منه تغطي كل أنواع الإنتاج الحيواني، والزراعة، والمحاصـــيل مـــن كروم، وزيتون، وغلال، وتربية ماشية......الخ، كما سوف نري(٩). فضلاً عـــن أن الكتاب يضم الكثير من النصائح العلمية لزراعة العديد من المحاصيل، وضبط قواعد إدارة الأمـــلاك الريفية(١٠). وقد عارض ماجو امتلاك المواطنين للأراضي الزراعية وإهمالهم العناية بها، وطلب ممن يزاول الزراعة أن يتفرغ لها؛ فيقول في إحدى فقراته:-

---

(٥) فر انسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ص ٩٣، ٩٤.

انظـــر أيـــضا:- جـــايمس هنـــري براســـتد، العـــصور القديمة، (ترجمة/ داود قربان) ، بيروت،١٩٨٣ ، ص ص ٥١٣، ٥١٤.

انظر أيضا:- محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص ٢٠.

(٦) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٨.

انظر أيضا:- الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ص ٢٥١، ٢٥٢.

انظر أيضا:- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص ١١٥.

(٧) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

(٨) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص٩٥.

(9) Harden. D, Op. Cit., P. 139.

(١٠) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ١١٢.

"كــل من اقتنى أرضاً يجب عليه أن يبيع مسكنه حتى لا يتخير السكن بالمدينة على الـسكن فــي الــريف، حتــى لا تبقي لديه تلك الرغبة التي تدفعه إلى عبادة آلهة منزله في المديــنة بدلاً من عبادة آلهة الريف. وإذا اختار أحد الإقامة بالمدينة فليس هو في حاجة إلى اقتناء أرض في الريف"(١١).

ويــذهب البعض إلى عدم وجود دليل يؤيد وجهة النظر القائلة أن هناك قسم كبير في المجتمع القرطاجي كان يكسب ثروته من الأرض فقط. ويبدو أن التجار كانوا يملكون أراضى فــي الريف، والتي منها كانوا يحصلون بدون شك على بعض الربح، والتي كانوا يلجئون إليها فــي حرارة الصيف، لكنها لم تكن مجال اهتمامهم الرئيسي(١٢)، فكان هانيبال مثلاً يملك أرضاً قرب المهدية يقيم بها من حين لأخر(١٣).

ولكن هذا لا ينفي وجود طبقة من الملاك الزراعيين القرطاجيين الذين كانوا يستمدون ثــرواتهم مــن الــزراعة فقــط، لذلك كان مالك الأرض القرطاجي يختلف تماماً عن نظيره الرومانــي، فهــو لــم يكن السيد العظيم الذي يهتم قليلاً لما تنتجه مزارعه، فقد كان يعيش في الــريف ويهــتم كثيراً بالحصول - بواسطة الطرق الجيدة والعناية الفائقة - على دخل مساو لما يمكن أن تجلبه لهم التجارة أو الصناعة(١٤).

ومــع ذلــك، لم تكن الإقطاعيات القرطاجية ذات مساحة شاسعة، إنما كانت متوسطة المــساحة يخصــصها أصــحابها لــزراعة الفاكهــة وتربية الماشية، وكانت تعتمد على مبدأ الاستغلال المكثف(١٥).

ولكــن يــبدو أن ماجو لم يكن العالم الزراعي الوحيد الموجود في قرطاجة، وإن كان أشــهرهم على الإطلاق، حيث يرد ذكر عالم زراعي آخر يدعي هاميلكار ألف هو الآخر كتاباً فــي الــزراعة، ولكــن ليس لدينا أية معلومات عنه ولا عن شخصيته أو حتى عن مؤلفه هذا سوي الإشارة إليه في المصادر(١٦).

---

(١١) محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص ١١٦.

انظر أيضا:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٦٠.

-CF. Moscati. S, Op. Cit., P. 176 .

(12) Warmington. B.H, Op. Cit., P. 128.

(١٣) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(14) Picard. G & C, Op. Cit., pp. 86, 93.

(15) Warmington. B.H, Loc. Cit.

(١٦) ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية ،(ترجمة/ محمد عبد الهادى شعيرة ، مراجعة/طه حسين)،الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية للكتاب ،القاهرة ،١٩٩٧، ص ص ٣٤١، ٣٤٢ .

انظر أيضا:- محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية(تاريخ لبنان القديم) ، ص ٣٩٣.

كانت المحاصيل التي تزرع في قرطاجة كثيرة ومتنوعة كما ورد في الشذرات المتبقية من مؤلف ماجو، وأول وأهم هذه المحاصيل على الإطلاق هي الغلال التي كانت تمثل الغذاء الرئيسي للسكان. وكانت المناطق الرئيسية لزراعتها في كل من وادي الباجرادس ووادي المجردة ووسط تونس[١٧]، يقوم بزراعتها الليبيون. وتظهر نصب التوفيت عادة محراث خشبي بسيط بدون عجلات تجره الثيران. وقد اخترع القرطاجيون ماكينة لدرس المحاصيل متقدمة، وهي نوع من المركبة مجهزة بعجلات صغيرة مسننة كان الرومان يسمونها "**عربة نقل البضائع البونية**"[١٨]. وكانت الغلال، بعد أن يتم حصادها ودرسها، توضع في أهراء تحت الأرض[١٩].

وكانت زراعة الشعير على قدر من التقدم، حيث كان لدي القرطاجيين مخازن مخصصة لها في الأسوار. وقد عثر الأب ديلاتر على الشعير المحمص في قبر بونيقي، ونري أحياناً صورة سنبلة القمح منقوشة على قطع النقود القرطاجية [٢٠].

ويبدو أن القمح كانت له أهمية كبري، حيث اعتبره بعض الكهنة القرطاجيين تحت الحماية المباشرة لبعل حمون؛ الذي عثر على تمثال له في هادروميتوم، يظهره ممسكاً بمجموعة من سنابل القمح[٢١]. وكان إنتاج الغلال وفير لدرجة أن سكيبيو، عندما غزا المنطقة طلب ضريبة تقدر بحوالي نصف مليون بوشل من القمح و ٣٠٠,٠٠٠ بوشل من الشعير، كجزء من عرض معاهدة سلام بين روما وقرطاجة في عام ٢٠٣ ق.م[٢٢]. وكان صافي إنتاج القمح من الأملاك القرطاجية في أفريقيا يقدر بحوالي ١,٥ مليون بوشل. وهذا الرقم يمثل حوالي نصف إنتاج القمح في مملكة نوميديا في منتصف القرن الأول ق.م، وواحد على ثلاثين (١/٣٠) مما حصلت عليه روما من أفريقيا تحت حكم الإمبراطورية، وكانت هذه الكمية مخصصة من أجل الاستهلاك المحلي. أما صافي الإنتاج في صقلية وسردينيا كان أعلي كثيراً، حيث كان يقدر بحوالي من سبعة إلى تسعة مليون بوشل تقريباً؛ وكانت هذه الكمية مخصصة للتصدير إلى الخارج، وخاصة إلى اليونان[٢٣].

---

(17) Harden. D, Op. Cit., p.139.

(18) Picard. G & C, Op. Cit., P. 89 ; Moscati. S, Op. Cit., P. 176.

(١٩) ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ٣٤٢.

(٢٠) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(21) Picard. G&C, Op. Cit., P. 94.

(22) Harden. D, Op. Cit., P. 139.

(23) Picard. G&C, Op. Cit., P. 183.

ويـــبدو أن أوديـــة القمح كانت ذات أهمية كبري في اقتصاد شمال أفريقيا، فلم يكن هم ماسينيـــسا، ملـــك نومـــيديا، في الحملات الأخيرة التي شنها على قرطاجة- كما سوف نري- سوي الاستيلاء على مزارع القمح الخصبة في سهول وادي مجردة الوسطي(٢٤).

وكانـــت زراعة الكروم محل عناية القرطاجيين الذين احتكروا زراعته، بالإضافة إلى كـــل الزراعات الأخرى ماعدا التي كانت من اختصاص الليبيين، ويبدو أنه كان ذا عائد كبير نظـــراً لـــتحويله إلى خمور يتم بيعها في مناطق كثيرة حول العالم القديم. ولقد قدم ماجو عدة نـــصائح تخـــدم زراعة الكروم، فهو ينصح بتوجيه الكروم في أفريقيا نحو الشمال نظراً لشدة الحـــرارة هـــناك في الجنوب، ويشير إلى استعمال الأسمدة مثل ثمالة العنب (أي ما يتبقى بعد عصره) وتقليمها في الربيع، وبإزالة التربة عن أسفلها في الشتاء. وكان النبيذ القرطاجي لاذعا بعـــض الشيء فكانوا يتغلبون على هذا العيب" بالتجصيص" أي بخزن النبيذ في أوعية مختومة بالطـــين(٢٥). ولقـــد اكتـــسب القرطاجيون شهرة واسعة في صناعة نوع من الخمر أطلق عليه الـــرومان اســـم باســـوم (*passum*) وكان يصنع من العنب الجاف، وما تزال هذه الطريقة مستخدمة في تونس، وبفضلها يتم إنتاج نبيذ غالي الثمن. وفيما يلي طريقة تصنيعه كما ذكرها ماجو:-

"اجمـــع العنب الناضج، وتجنب تلك الحبات الفاسدة. عرض العنب للشمس، وغطيه لـــيلا؛ كـــي لا يـــبلله الندي. عندما يجف العنب، انزعه من العيدان وضعه في جرة أو قدر. أضف قدراً كافيا من نبيذ جديد عالي الجودة حتى يغطي العنب. في اليوم السادس، عندما يتم امتـــصاص النبيذ الجديد وتنتفخ حبات العنب، ضعه في سلة وقم بعصر العنب في المعصرة، ثـــم اجمع العصير. وبعد ذلك، نهرس التفل ونضيف عليه الخمر الطازج المصنوع من عنب آخـــر الـــذي تم تركه في الشمس لمدة ثلاثة أيام، ونضع هذا الخليط في المكبس بعد مزجه بـــشكل جيد. ثم نقوم بوضع السائل الناتج عن مرة العصر الثانية هذه في أوان محكمة الغلق بالطـــين كي لا يصبح النبيذ لاذعاً. وبعد عشرين أو ثلاثين يوماً، حينما يتوقف التخمر، نفرغ النبيذ في أوان أخرى وندهن أغطيتها فوراً بالكلس ثم نغطيها بالجلود"(٢٦).

ويذكـــر الباحـــثان الفرنـــسيان الأخـــوان بـــيكار في قوانينه أنّ القرطاجيين كانوا من المداومـــين علـــى شـــرب الخمـــر حتى أن الحكومة اضطرت إلىَ تحريم شربه على الجنود،

---

(٢٤) محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص ٢٣.

(٢٥) ج. كونتنو، المرجع السابق، ص٣٤٣ ؛ انظر أيضا:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص١٥٩.

(26) Picard. G & C, Op. Cit., PP.148, 149 ; انظر أيضا:- فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٩٦.

والرقيق، وقباطنة البحر، والحكام في سنة حكمهم والقضاة أثناء قيامهم بوظائفهم، ولكنهما يعتقدان أن هذا التحريم لم يكن سارياً بحذافيره[٢٧].

أما الزيتون فقد بدأت زراعته منذ القرن الخامس بجزر كركنه، وبالوطن القبلي في نهاية القرن الرابع. ويذهب المؤرخون بأن هانيبال قد نشر زراعته في كافة أنحاء البلاد واستخدم في ذلك جنوده، حيث رأي في بطالتهم خطراً يهدد الجمهورية. وينصح ماجو بترك مسافة طولها ٢٢,٣٠م (٧٥ قدم)[٢٨] بين كل شجرة وشجرة بحيث تفصلها عن بعضها من جميع الجهات أو على الأقل ١٣,٣٢م (٤٥ قدم)، وذلك إذا كانت الأرض ضعيفة ووعرة وعرضة للرياح. ويشير ماجو إلى ضرورة حفر الحفر التي يوضع فيها الغرس قبل الزراعة بسنة كاملة لتمتص الشمس والأمطار. ويكون دائماً فم الحفرة ضيق. ومن الجدير بالذكر أن القرطاجيين لم يكتفوا بتطعيم الأشجار البرية بل زرعوا أشجاراً جديدة[٢٩]. ويجب أن تكون الزراعة في الخريف، وكانت بعض الأشجار تنتج حوالي ألف رطل من الزيتون، ومؤكد أنه رقم مبالغ فيه ولكنه يشير إلى خصوبة حدائق الزيتون في الشمال الأفريقي[٣٠].

ولزيت الزيتون استخدامات عديدة، منها:-

أولاً: أنه كان يمثل نوع الدهن الوحيد المستخدم عبر حوض البحر المتوسط كله في ذلك الوقت، كما كان يستخدم في الإنارة، وفي الأغراض الطبية وكان مرهم للجروح، ويدخل في صناعة الدهون العطرية[٣١].

ولقد شغلت زراعة نخيل البلح مكانة هامة في شمال أفريقيا. وتظهر النخلة على الكثير من النصب القرطاجية، واحدة منهم تصور رجلين واقفين على قمة ساق نخلة و آخر يظهر قرد (أو رجل، لاحظ الذيل الطويل) يقف بالمثل على قمة النخلة المثمرة، وهذه المشاهد ربما تمثل حصاد البلح، ولكن جيزيل(Gsell) يعتقد أنهم يمثلون عملية تلقيح النبات. النخلة تظهر أيضا مع حصان الحرب على العملة القرطاجية[٣٢]. وكانت منطقة الجريد (***Jerid***) تنتج أفضل ثمار البلح في تونس، بينما كانت منطقة جابس (***Gabes***) وتريبوليتانيا (طرابلس) (***Tripolitania***) الساحليتين تقدمان فقط ثماراً أقل جودة[٣٣].

---

(27) Ibid, P. 148 ; انظر أيضا:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٢٨) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٥٣.

(٢٩) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٩.

(30) Moscati. S, Op. Cit., P. 177.

(٣١) محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية(تاريخ لبنان القديم)، ص ٣٨٧.

(32) Harden. D, Op. Cit., P. 139.

(33) Picard. G & C, Op. Cit., P. 91.

كانت شجرة الرمان من الأشجار المحببة في الشرق والغرب، كانت تحظى باهتمام كبير من جانب القرطاجيين. وكان يتم تصديره إلى إيطاليا، وخاصة إلى روما، حتى أن الرومان قد أطلقـوا علـيه اسم التفاح البوني (*Mala Punica*) . وهي زراعة وافدة من فينيقيا أدخلها القرطاجيون إلى الشمال الأفريقي.

ومــن الجديــر بالذكر أن هذه الفاكهة كانت من شعارات الربة تانيت، وكانت توجد في مكان مميــز علــى النــصب. وفــي الحقيقة، كانت هذه الفاكهة تبدو أقرب الرموز التى ترمز إلى الخصوبة، نظراً لما تحتويه قشرتها على آلاف من البذور والتقاوي.

كمـا كان القرطاجيون فخورين بالتين الخاص بهم وكان ذا جودة عالية لدرجة أن كاتو ألقــي بعــضاً منه في مقر السناتوس لإثارة حسد وغيرة الرومان ضد أرض قرطاجة الغنية، ولــيدلل على رخائها ومدي تقدم الزراعة بها، كما سوف نري في فصل الحروب البونية(٣٤). ويذكــر ماجــو طــريقة تخزين هذه الفاكهة، حيث ينصح بتخزينها في نشارة خشب الحور أو السنديان في جرة من الفخار.

وكانــت قــرطاجة تــشتهر أيــضا بزراعة الخضروات في حي ميجارا، فلقد ورد ذكر زراعــة الخرشــوف والكــرنب والثوم والعدس...الخ(٣٥). أما زراعة اللوز فكانت عادة تنمو مقتــرنة مــع الزيتون، وكانت من الزراعات المربحة جداً. ويذكر ماجو أن أشجار اللوز تنمو فــي مشاتل بعناية فائقة أولاً؛ ثم يتم بعد ذلك زراعتها في الخارج مثل أشجار الزيتون. وكان يــزرع في منطقة أسفل الصحراء حيث توجد أرض منحدرة تمتد بين الجبل والشاطئ الشرقي مــن تــونس(٣٦). وكانــت هــناك حقــول أخرى مخصصة من أجل زراعة اللوز في رأس بورتو فارينا (*porto farina*) (٣٧).

ويبدو أن القرطاجيين قد مارسوا الزراعة الجافة، ولكننا لا نعرف معلومات كثيرة عنها ســوي أنهــا قــد طــبقت في دكلا (*Dakla*)، وفي بيجا (*Beja*)أحد أهم سهول نهر مجردة و أخصبها جميعاً(٣٨).

أمــا تربية الحيوانات والماشية كانت ذات أهمية كبري سواء للقرطاجيين أو لدي الليبيين حــيث كانــت مصدراً رئيسياً للغذاء، وكثيراً ما ارتبطت بعبادة بعض الآلهة. وكان من ضمن هــذه الحيوانات الأبقار، والأغنام، والماعز، والخيول، وغيرها. ويبدو أن القرطاجيين قد أولوا

(34) Ibid, p. 90.

(٣٥) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٦٠.

(36) Picard. G & C, Op. Cit., P. 91.

(37) Ogrizek. D, Op. Cit., P. 268.

(38) Ibid, p. 283.

اهـــتماماً كبيراً لتربية الماشية حتى أن ماجو أفرد لها جزءاً في مؤلفه وتحدث في إحدى فقراته عن صفات البقرة الجيدة، فيقول:-

"**يجــب أن تكـــون صـــغيرة الـــسن، ممتلئة الجسم، ضخمة الأطراف، (وثورها طويل القرون) قوية ذات لون ضارب للسواد، كثة وعريضة الحاجبين......الخ**(٣٩)."

ولقــد اســتخدم القــرطاجيون الخــيول فـــي حروبهم، التي تظهر كثيراً على العملات البونـــية(انظر شكل رقم ٢)، وقد تحسنت سلالتها بواسطة تربية سلالات وافدة. ولقد تم تقديم الكــباش على النصب النذرية وتشبه النوع الشائع جداً في تونس حالياً، من حيث الذيل الطويل السميك. أما الطيور الداجنة فكانت متنوعة مثل الديوك، و الدجاج، واليمام، والحمام، وجميعها تم تصويرها مراراً وتكراراً على مختلف النصب.

وكانــت تربية النحل ذات أهمية كبري، نظراً لأن العسل كان مصدر السكر الوحيد في ذلــك الـــوقت، كمـــا أشـــتهر أيضا الشمع البوني حيث كان يستخدم في الأغراض الطبية(٤٠). وأخيـــراً، يمكـــن أن نجـــد إشارة واضحة عن تربية الحيوانات في الأراضي البونية في وثيقة "*تـــسعيرة ذبـــائح القرابين*" ، والتي تذكر : الثيران، والعجول، والكباش، والتيوس، والحملان، والجديان، والطيور الداجنة(٤١).

أمـــا فيما يتعلق بالعمالة الزراعية فكانت تتكون من العبيد في المقام الأول، ولذلك اهتم بها ماجو كثيراً وأوصي بحسن معاملتهم فيقول:-

"**من الضروري أن نشركهم في الإفادة بإعطائهم التسهيلات، كتكوين عائلة، وإمكانية تجميع مبلغ يشتري به حريته يوماً ما. وأن نرد عنهم من يعاملونهم بقسوة**"(٤٢).

ولكـــن يـــبدو أنه لم يفعل هذا من منطلق المشاعر الإنسانية، وإنما لأن الرجال الذين كانـــوا يعاملـــون بالضرب يصبحون سريعاً عمال غير مباليين أو مكترثين، ولأن رأس المال البــشري الحر كان غالي وذو فاعلية قوية في ميدان العمل الزراعي(٤٣). وينصح ماجو أيضا بــشراء القـــادرين على العمل الزراعي ويفضل عبيد الولادة الذين ينشوؤن في الضيعة. كما ينصح ماجو باختيار الأكفاء من بين الأكبر سناً للإشراف على العمل(٤٤).

---

(٣٩) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٢٨.

(40) Moscati. S, Op. Cit., P. 178.

(٤١) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٤٢) لبيب عبد الساتر، المرجع السابق ، ص ١٢٧.

(43) Picard. G & C, Op. Cit., P. 88.

(٤٤) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

ويـــبدو أن هـــذه العودة إلى التربة من جانب البعض من النبلاء القرطاجيين في القرن الخامس ق.م كان حيوياً وهاماً لتطور الحضارة القرطاجية. ومن المؤكد أنه كان العامل الأول في الاستقرار النسبي للجمهورية في أخر قرون لها. كما ساعد هذا على إحياء الإيمان في آلهة الأرض، إلـــى جانـــب آلهـــة السماء والنجوم، لأن قواهم في منح الدفـء والمطر هي العوامل الهامة في نمو النبات(٤٥).

والخلاصة أنه، يمكننا تقسيم الأراضي الزراعية القرطاجية داخل أفريقيا إلى قسمين:

الأول: كـــان يتبع القرطاجيين مباشرة ويقع بالقرب من العاصمة ويقوم على زراعة محاصيل ثميـــنة مثل الزيتون، والكروم، والرمان وغيرها، وكانت تستخدم في زراعتها السكان المحليين بعد أن قامت بطردهم منها وتحويلهم إلى أقنان.

الثانـــي: كـــان يتبع الليبيين ويقوم على زراعة الغلال وخاصة القمح، ولقد سمح لهم الاحتفاظ بأراضيهم مقابل دفع جزية عينية تقدر بالعشر من محاصيلهم، وكانت أحياناً ترتفع في وقـــت الأزمات والحروب إلى الربع والنصف أيضا. وكان هذا له أثارا سلبية خطيرة على القرطاجيين حيث أدى إلى تذمر الليبيين وثورتهم.

كانـــت الـــزراعة القرطاجية قائمة على نوع من التخصص الدقيق؛ حافظ عليه النبلاء القـــرطاجيين بـــأن حظـــروا علـــى الليبيـــين وعلـــي أهل سرد ينيا زراعة الأشجار المثمرة واقتـــصارهم على زراعة الغلال. ويبدو واضحاً أن المجال الزراعي القرطاجي داخل أفريقيا كان يكفي للاستهلاك المحلي فقط، أما حصة التصدير فكانت تأتي من سردينيا وصقلية. ولقد أدى الاهتمام بالزراعة إلى نمو قرطاجة، إذ أصبحت إلى جانب قوتها البحرية والتجارية، قوة زراعـــية. ونـــشأت بها فئة أرستقراطية من ملاك الأراضي الزراعية، إلى جانب طبقة النبلاء التجارية، وهذا بدون شك ساعد على حدوث تغيرات في نظام الحكم، أدت إلى استقرار أحوال الجمهورية.

---

(45) Picard. G & C, Op. Cit., P. 96.

ثانياً: الصناعة

تعد الصناعة من أهم النشاطات الاقتصادية، إذ أنها تمثل الحلقة الوسطي في اقتصاد أية دولة. وشملت الصناعة القرطاجية العديد من المجالات مثل، صناعة النسيج وصباغة الأرجوان وصناعة المعادن وغيرها. وكانت الصناعة القرطاجية في بادئ الأمر بسيطة، ولكنها لم تزدهر إلا منذ القرن الخامس ق.م عندما اصطدمت قرطاجة بالمدن اليونانية في معركة هيميرا سنة ٤٨٠ ق.م وهزيمتها.

ولقد اتضح لقرطاجة بعد هذه الهزيمة أنها لا تستطيع الصمود في أي صراع مقبل ما لم تكن لديها صناعة قوية. كما أن اليونانيين بحكم الاستيطان في كل من شرق صقلية، وقورينة بليبيا؛ كانوا قد وقفوا عائقاً دون اتصال قرطاجة بشرقي المتوسط فأضطر القرطاجيون إزاء ذلك الموقف، إلى تصنيع المواد الخام المختلفة التي كانوا يحضرونها من المناطق المجاورة لهم(٤٦). وفي ذلك الوقت، منعت الدولة دخول منتجات كاملة الصنع من الخارج. وحاول البعض أن ينسب إلى هذه الحماية المفرطة المستوي المتوسط لمنتجاتهم، حيث كانت معفاة من المنافسة وكانت كافية لإرضاء السكان البربر، الذين اهتموا قليلاً بجودة هذه البضائع(٤٧). وهناك عامل أخر ساعد على ازدهار الصناعة في قرطاجة، ألا وهو تأسيس الممالك الهللينستية، حيث وجد منذ ذلك الحين سوق جديدة لكل أنواع البضائع الرخيصة المصنعة التي برع فيها القرطاجيون(٤٨).

وبالرغم من ذلك، يكاد الجميع يجمع على أن الصناعة القرطاجية، كانت تفتقر إلى المهارة الفنية والإبداع وكانت تقتصر على التقليد ومجرد تحويل المواد الخام إلى الاستخدام العملي(٤٩). وكانت منتجاتهم تفتقر إلى الذاتية، لكن خلطهم بين العديد من الأنماط كان متناسباً تماماً من أجل التجارة مع المدن العالمية الموجودة في العالم الهللينستي(٥٠).

ويري البعض أن الصناعة القرطاجية تشبه إلى حد ما الصناعة الرأسمالية اصطلاحاً, بل كانت رأسمالية سليمة؛ بدليل أنها لم تتعرض لأزمة خانقة أو انهيار(٥١).

---

(٤٦) محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص ١١٤.

(47) Picard. G & C, Op. Cit., P. 116.

(48) Warmington. B.H, Op. Cit., p. 126.

(٤٩) جان مازيل، المرجع السابق، ص ١٦٣.

(50) Warmington. B.H, Loc .Cit.

(٥١) شوقي خير الله، قرطاجة العروبة الأولى في المغرب، الطبعة الأولى، تونس، ١٩٩٢، ص ص ١٥١، ١٥٤ .

كــان العمــال وأصــحاب الحرف من المواطنين الأحرار إلا أنهم لم يدخلوا في طبقة الأشراف التي كانت تنحصر في عناصر ذات أصول معينة(٥٢).

لــم يلعب عمال قرطاجة، بالرغم من كثرة عددهم وأهمية نشاطاتهم، الدور الهام الذي ربمــا قــد تــوقعه البعض منهم خاصة في منطقة تجارية هامة وعظيمة مثل هذه. فقد اكتفوا بتوفيــر الاحتياجات اليومية لمواطنيهم، ولم يكونوا قادرين على المنافسة سواءً مع المصريين أو اليونانيــين. ولكن يبدو أنهم قد احتفظوا بتفوق وبراعة تقنية أعلي من السكان المحليين وأن هــذا مــا قــد ساعدهم على البقاء والاستمرار. ويبدو أيضا أن القرطاجيين كان لهم دوراً في تجنيد وتدريب الصناع المحليين(٥٣).

ولقــد تــم ذكــر الصناع والحرفيين كثيراً على نصب مهداة من قبل بعضهم أو على نقــوش تخلــيداً لذكري عمل ما. فقد عثر على نقش ذات محتوي معماري، يرجع إلى القرن الــثالث ق.م. يتــناول ذكــر إنــشاء طــريق جديد شارك في إنجازه العديد من الصناع مثل المهندســين ونقابــة النــساجين و وزانــو القطع النقدية وسباكو الذهب والملاحون وأصحاب الأفران والإسكافيون(٥٤) (انظر شكل رقم ٣).

وربما كان هذا عملاً تطوعياً أو كما نطلق عليه بمفهومنا الحديث إنجاز عمل بالجهود الذاتــية، شارك فيه كل هؤلاء الصناع سالفي الذكر. وربما يدل هذا على مكانة اجتماعية هامة لهــؤلاء الــصناع. ويتضح من خلال النص أنهم كانوا ينتظمون في نقابات خاصة بهم، ومن المــؤكد أنــه كان لكل نقابة رئيس يكون من مهامه رعاية شئون أفراد النقابة وتمثيلهم والنيابة عنهم أحياناً وفض ما قد ينشب بين أفرادها من خلافات.

وكــان الحرفي يطلق عليه لفظ (فـ ع ل)، وعادة كان هذا اللفظ يصحبه نعت وظيفي: مــثل الصائغ (فـ ع ل. خ رش). ومن الحرف الأخرى نجد وظيفة النجار (ن ج ر)، ومهنة الــسباك (ن س ك) وتحديداً لمادة السبك أو الصهر: سبك الحديد (ن س ك. هــ د ر ز ل) أو البرونــز (ن س ك . هــــ ن خ ش ت) أو الذهب (ن س ك. هــ ن ر س) (٥٥). وكان أمام كل حرفي فرصة للترقي، إذا أثبت كفاءته في العمل، لإدارة مشغل جديد أو لتأسيس ورشة في أرض جديــدة أو ليصبح صاحب عمل خاص به(٥٦). وننتقل الآن إلى استعراض أهم مجالات هذا النشاط الصناعي كما يأتي:-

---

(٥٢) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٤٩.

(53) Picard. G & C , Op .Cit., PP. 116, 117.

(54) Fantar. M.H, Tunisie (Terre De Rencontres Et De Civilisation), Seville, 1992, P. 48.

(٥٥) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٦٢.

(٥٦) شوقي خير الله، المرجع السابق، ص ١٥٥.

الصباغـــة:

تعــد صناعة صباغة الأرجوان من الصناعات الهامة و الشهيرة في قرطاجة، كما أنها تحتاج إلى أيدي عاملة كثيرة.

ولقــد اشـــتهرت فينيقـــيا، وخاصـــة صور، بصناعة صبغة الأرجوان، ولأهمية هذه الصناعة في اقتصادها؛ أحاطت طريقة استخراج الصبغة بهالة من الكتمان والسرية التامة، بل لقد نسب القوم اكتشاف هذه الصبغة إلى معبودا تهم مثل هرقل(٥٧). وقد تم الحصول على هذه الــصبغة من أصداف المريق (*Murex*) التي تعيش قرب الشاطئ الفينيقي(٥٨). وكانت هذه الأصـــداف بعد أن تموت وتتعفن الكائنات بداخلها يتكون فيها سائل أصفر اللون من خصائصه أن يعطـــي حـــسب قوة تركيزه- مجموعة من الألوان تتدرج بين اللون الوردي والأرجواني القــاتم، ومن أجل الحصول على الألوان القاتمة، كان لابد من تعريض الصبغة لضوء الشمس لمدة كافية- وكانت الطريقة المتبعة في الصناعة هي تكسير الأصداف و إخراج الحيوان الذي بداخلها ووضعه في أحواض حيث تسيل منه الصبغة، ويبدو أن معامل هذه الصبغة كانت تقام عــادة فـــي موقع جانبي من المدينة غير مواجه لهبوب الرياح تجنباً للرائحة الكريهة جداً(٥٩). وبعــد ذلــك يضاف ملح الطعام للسائل الأصفر، ثم يترك لينقع ثلاثة أيام، ثم يغلي في حرارة معــتدلة، وفـــي اليوم العاشر تقريباً تغطس الملابس فيه، وتترك لامتصاص السائل مدة خمس ســاعات، ثــم تسرح وتوضع ثانية، حتى تتشرب اللون تماماً، وتعتبر الصباغة ممتازة، عندما يــصبح لونها بلون الدم المتجمد. وكان أنسب أوقات صيد هذا الحيوان في أخر الشتاء، وأوائل الربيع؛ قبل أن تبدأ إناثه في وضع البيض(٦٠).

وبالإضـــافة إلى هذه الصبغة عرف نوع أخر منها لونه قرمزي استخرجوا مادته من حـــشرات كانـــت تعـــيش على أشجار السنديان حول الساحل وذلك بوضع هذه الحشرات بعد تجفيفها في بعض الأحماض(٦١). وكانت الأقمشة المصبوغة بالأرجوان باهظة الثمن بحيث لا

(٥٧) ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:- محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم)، ص ٣٩٤.

(٥٨) رمـــضان عـــبده علي، تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته (منذ فجر التاريخ حتى مجيء حملة الإسكندر الأكبر)، الجزء الثاني،الطبعة الأولى، القاهرة، يناير ٢٠٠٢، ص ١٨٢.

(٥٩) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١١٥؛ انظر أيضا:-

Harden. D, Op. Cit., P. 146.

(٦٠) محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم)، ص ٣٩٥.

(٦١) رمضان عبده علي، المرجع السابق، ص ١٨٢.

يقــدر علـــى اقتــنائها سوي علية القوم حتى أصبحت، في الشرق، رمزاً للملوك فيقال عنهم *"مولود فـي الأرجوان"*[٦٢].

وكانــت هــذه الـصناعة شائعة جداً في العالم البوني. ولقد كان صدف المريق ينتشر بــشكل واسع في مياه الشواطئ الأفريقية مثل شواطئ جربة في تونس، و كولو (*Collo*) في الجزائر، و الصويرة في الشاطئ الأطلسي للمغرب، بالإضافة إلى شواطئ شبه جزيرة الرأس الطيب والمدينة البونية القديمة كركوان[٦٣]. وبعض من هذه المواقع لم يتم شغلها مرة أخرى بعد سقوط قرطاجة مثل دار الصافي، بالقرب من كركوان وحول ميناءها الصغير عند مصب الــوادي، تم استخدام أحواض كثيرة حفرت في الصخر الصلب لتضم الموريكس بينما تتحلل. وكانت الأصداف عادة تترك حولهم وهي مازالت هناك[٦٤].

وكان أرجوان جربة يضاهي إن لم يفوق أرجوان صور[٦٥].

صناعــة النسيج:

كانــت هـــي الأخرى من الحرف الشائعة جداً في المجتمعات القديمة. فكان إلى جانب النــساء اللاتـــي كن يغزلن و ينسجن الصوف والكتان في البيوت للاستخدام العائلي الخاص، وجــدت بعض المغازل في عدد من القبور. و يبدو أنه كان يوجد نساجون يعملون في ورش خاصــة. ولقــد أشير إلى هذه المهن في بعض نصب سلامبو[٦٦]. وهناك من يري أن الغزل والنــسج كــان صـــناعة منزلية، وليست تجارية بالمعني الصريح، على الرغم من أن بعض مالكـــي هذه المنازل كان يستخدم العبيد للقيام بها على مقياس منظم. وعادة كانت هذه الورش تقام في الجزء المخصص للنساء في بيوت النبلاء تحت إشراف سيدة المنزل و ملاحظيها[٦٧].

وقــد اشتهرت وسادات وسجاد قرطاجة المطرز كثيراً لدي المؤلفين القدامى وقيل أنها كانــت ذات جودة عالية وخاصة[٦٨]. وقد وجدت أيضا حرفة وشغل دبغ الجلد. وقد نمت أولاً بين البدو، ومارسها الليبيون منذ القدم، ومن المحتمل جداً أن القرطاجيين قد تعلموا منهم صنع

---

(٦٢) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، ص ١٦٠.

(٦٣) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٠١.

(64) Picard. G & C, Op. Cit., P. 107.

(٦٥) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٦٦) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٠٠.

(67) Harden. D, Op. Cit., P. 145.

(68) Moscati. S, Op. Cit., P. 179.

نـــوع مـــن جلـــود الأغنام المغربية-أو جلد الماعز المصبوغ باللون الأحمر، الذي كان مقدراً كثيراً لدي الرومان لصناعته الماهرة الممتازة(٦٩).

صناعة صيد السمك وتمليحه:

وهـــي صناعة خاصة بالغرب البوني. وكان يطلق عليها اسم (*Garum*) ولقد أكسب إنـــتاجها في جاديز (*Gadiz*) في أسبانيا شهرة واسعة عبر العالم القديم، وفي المنطقة الداخلية حـــول جاديز آثار لبقايا المصانع. ونفس الشيء ينطبق على شمال أفريقيا، كما ثبت من خلال اللقـــي الحالية على الساحل الشمالي الغربي للمغرب. كما نمت صناعة الملح في منطقة الإقليم البونى، وارتبطت ارتباطا وثيقاً بصناعة تمليح السمك(٧٠).

وكانت حرفة صيد السمك وتصنيع منتجاته، ميلاً شائعاً لدي الفينيقيين الأسبان. وتشهد نقوش العملة على أهمية صيد السمك في اقتصاد المدن الفينيقية الأسبانية. فقد كانت كل المدن الفينيقـــية فـــي أسبانيا الجنوبية تسك عملات تحمل رسوم التونة أو الدلافين. ولقد ارتبط بصيد الأســـماك صـــناعة مهمـــة، وهي تلك المدعوة هاروما، وهي عبارة عن تحضير متبل سمكي خـــاص. ولديـــنا دلائـــل على استهلاك اليونانيين لها في القرنين الخامس والرابع ق.م بكميات كبيرة(٧١).

صناعة المعادن:

تعـــد هـــذه الـــصناعة مـــن الصناعات الهامة على الإطلاق، حيث أنها لم تكن توفر الاحتـــياجات اليومـــية للسكان فحسب، بل أيضا كانت توفر الاحتياجات العسكرية للمدينة وقت الحروب والأزمات. وفي وقت الحروب، كانت هذه المصانع تخضع للإشراف المباشر للدولة. أمـــا في وقت السلم، فكان عمال المعدن يعملون لحسابهم الخاص في ورشهم الخاصة أو لدي أصـــحاب عمـــل آخـــرين. وتمدنا المقابر البونية بكثير من نماذج أدوات العمل مثل الفؤوس، والمطـــارق، والملاعـــق، والـــسكاكين (وجـــد ســـبعة عشر نصلاً في قبر صانع للسكاكين)، وبالمقابـــل، لـــم يعتد القرطاجيون على دفن الأسلحة في المقابر(٧٢). وفي هذا المجال لم ينتج القـــرطاجيون أعمـــال أصلية، فقد قلدوا الأصول اليونانية. إن صناعة المعادن كان يتم إمدادها عبـــر الـــبحار، حـــيث كـــان يتم استيراد النحاس والقصدير من أسبانيا، ومن الكاسيتيريديس (Cassiterides) في الجنوب الغربي من بريطانيا، والحديـــد مـــن بجزيرة إلبا (*Elba*) في

---

(69) Picard. G & C, Op. Cit., P. 107 ; انظر أيضا:-أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص١٥٢، ١٥٣.

(70) Moscati. S, Op. Cit., P. 178.

(٧١) ولمـــزيد مـــن المعلومات حول هذه الصناعة وطريقة تحضيرها، انظر:- يولي بركوفيتش تسيركين، المرجع السابق، ص ص ٨٠، ٨١.

(٧٢) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٠٠.

شـمال غـرب إيطاليا. الشيء الغريب هو أن القرطاجيين لم يحاولوا مطلقاً بيع منتجات كاملة الصنع في الخارج حيث كانوا يكتفون ببيعها على حالتها الأولى. ويمكن إرجاع فشلهم في فعل ذلـك إلـى رداءة نوع صناعتهم، مقارنة بتلك الخاصة باليونانيين(٧٣). ولكن يبدو أنهم قد نسوا أنهم بهذه الطريقة كانوا يخدمون صناعة غيرهم واقتصاد منافسيهم على حساب صناعة بلادهم واقتـصادها. ولم يضطر القرطاجيون إلى صنع أشياءهم الخاصة على الأقل إلا عندما فرض نظام الاكتفاء الذاتي إثر معركة هيميرا سنة ٤٨٠ ومن المحتمل أنها استقدمت في ذلك الوقت جماعـات مـن الـصناع مـن فينيقيا ولكن يبدو أن معظم المصانع وقع تنظيمها زمن الحملة الكبرى على صقلية (٤٠٩– ٣٣٨) ق.م باستخدام الأسرى الذين وقعوا في قبضة قرطاجة(٧٤).

أمـا عـن الإنتاج الحربي، فيبدو أنه كان ضخماً ونستدل على ذلك من خلال ما كانت تنـتجه قـرطاجة أثناء الحرب البونية الثالثة، عندما قررت المقاومة؛ فقد استطاعت في خلال شـهر واحد فقط إنتاج:– ٣٠٠٠ ترس، و ٩٠٠٠ سيف، و ١٥,٠٠٠ رمح، و ٣٠,٠٠٠ سهم وهـو مـا يتناسب مع نشاط ما يقرب من أربعمائة مصهر (أي معمل للحديد)، وإذا فرضنا أن كـل مـصهر كان يشتغل فيه خمسة من العمال، فإن جملة عددهم يكون ألفين على الرغم من عـدم وجـود تعبئة عامة للتصنيع، لأن ليس من الحكمة توظيف عمال غير مدربين في عمل متخصص ودقيق مثل هذا(٧٥).

صناعـة الخشب:

إن اتـساع الإمبـراطورية القرطاجية وعظم حركة التجارة والاستكشاف فيها، جعلتها مديـنة بارعة في أعمال النجارة وبناء السفن وإصلاحها. ومن المؤكد أنهم ورثوا هذه المهارة عـن أجدادهم الفينيقيين في الشرق، حيث كانوا ملاحون ماهرون لا يضاهيهم أحد في مهارتهم هذه.

وكان القرطاجيون يستخدمون خشب الأرز الذي اشتهرت به، وأيضا كانوا يستخدمون خـشب الـسرو، وكانـوا يجلـبون المواد الأولية من أسبانيا لصنع الأشرعة والحبال. وكان الرومانيون يعجبون بالأبواب والآسرة البونية، ويقدرون طريقة القرطاجيين في تركيب الألواح وذلك باستعمال المسمار الخشبي، أو بتذويب الرصاص وصبه في الثقوب(٧٦).

---

(73) Picard. G & C, Op. Cit., PP. 103, 104.

(٧٤) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٠.

(75) Picard. G & C, Loc. Cit.

(٧٦) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ١٥٠، ١٥١.

وكـــان بقـــرطاجة نحاتون خشب غاية في المهارة؛ فرأس ديميتر مصنوعة من خشب الأرز المطلـــي بالـــذهب يظهر، بالرغم من بعض التلف الطفيف، نقاء متميز في العمل، رغم أنها كانت تقريباً مقلدة تماماً من نموذج يوناني.

ويبدو أن عمال الخشب كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية أعلي من بقية الصناع والحرفيين(٧٧).

ثالثــاً :- التجـــارة والعملة والـــرحلات الاستكشافيـــــة:

١- التجارة والعملة:

تعــد قـــرطاجة من أعظم المدن التجارية في العالم القديم. وكانت التجارة من أعظم مـــواردها الاقتـــصادية على الإطلاق، فقد حققت لها الرخاء العظيم والثروة الهائلة. ولكن هذه الثـــروة كانـــت أيضا مصدر نكبة على قرطاجة، حيث سببت لها حسد الشعوب الأخرى. فما الـــسبب الحقيقـــي وراء الحروب البونية ضد روما، سوي حسد هذه الأخيرة لمكاسب قرطاجة مـــن التجارة ومستعمراتها ورغبتها أيضا في نيل نصيب من هذه المكاسب التجارية ومن هذه المستعمرات وخاصة في صقلية، كما سوف نري.

وكـــان الهـــدف الرئيسي لتأسيس قرطاجة على يد الصوريين هو أن تكون محطة أو مركز تجاري للسفن الفينيقية المتجهة نحو الغرب للحصول على الذهب والفضة والقصدير من بلدانها الأصلية، فهذا يدل على أهمية التجارة فيها منذ البداية(٧٨).

والأكثـــر مـــن ذلك، أن الصورة التي انطبعت في أذهان الناس، وخاصة لدي اليونان والـــرومان، عـــن الرجل القرطاجي الأصيل أنه كان تاجر بطبيعته(٧٩)، حتى تم نسج الأعمال الدرامـــية والكوميدية حولـــه. ومن هذه الأعمال مسرحية كوميدية تسمي "***Poenulus***" كتبها بلاوتـــوس "***Plautes***" (٨٠)فـــي مطلع القرن الثاني ق.م . ولكن من المعتقد أنه نقلها أو حاكي فـــيها مـــسرحية يونانـــية مـــن مطلع القرن الثالث ق.م تسمي "***القرطاجي***"، وتدور حول تاجر قرطاجـــي يسمي "حنون" كان يتاجر في الأطفال(٨١). ويرسم الشاعر صورة ساخرة لشخصية حنون، حيث قدمه لنا على أنه شخص حاذق وماكر:-

---

(77) Picard. G & C, Op. Cit., pp. 105, 106.

(٧٨) أحمد أرحيم هبو، المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٧٩) ب.هــ. وارمنجتون، المرجع السابق، ص ٤٥٩.

(٨٠) وهو شاعر لاتيني ولد سنة ٢٥٤ ق.م وعاش حتى سنة ١٨٤ ق.م، وهو كاتب مسرحي اشتهر بالكوميديا. انظر:- محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١١٨.

(٨١) المرجع نفسه، ص ص ١١٨، ١١٩.

"كان يفهم جميع اللغات، غير أنه كان يتظاهر عن خبث أنه لا يعرف منها شيئاً. إنه قرطاجي حقيقي"(٨٢).

ومــن هنا يتضح مدي العداء والحقد الذي كان تكنه الشعوب الأخرى لقرطاجة، حسداً منهم لها علــى المكاســب الهائلة التي كانت تجنيها من التجارة. وعلي الرغم من قوة النشاط التجاري القرطاجــي وعظمته، إلا أنه لم يترك لنا آثارا تتفق مع هذه القوة، والباقي منها أقل بكثير من آثــار المــدن الكبرى الأخرى الموجودة في حوض البحر المتوسط. وكان السبب الرئيسي في ذلك هو أن معظم تجارة قرطاجة إنما كانت في سلع لا تترك أثراً، فأغلبها معادن خام – وهي الهــدف الرئيسي من حركة الاستكشاف – ثم المنسوجات والرقيق والمواد الغذائية. ليس هناك شــك أنه حتى القرن الثالث أن التجارة التي جنت منها قرطاجة معظم الأرباح كانت تلك التي تمــت مــع القــبائل البدائية الداخلية، التي تم الحصول منها على المعادن الثمينة مثل الذهب، والفضة، والقصدير، ومن المحتمل الحديد، في مقابل سلع ذات قيمة صغيرة.

وكانــت أشــهر صادرات قرطاجة لهذه القبائل من السلع الاستهلاكية مثل الخمر أو الثياب الفاخرة. وجزء كبير من هذه التجارة كان يتم عن طريق النقل بعربات نقل بري. وكان يتم استيراد السلع من أجل إعادة تصديرها، وخاصة المعادن(٨٣). وكان لدي القرطاجي نوعان رئيــسيان من سفن الإبحار في البحر المتوسط قديماً خلال الفترة المبكرة، "المستديرة"من أجل التجارة والسفينة، و "الطويلة" من أجل الحرب(٨٤).

وكان القرطاجيون يهتدون في الملاحة بنجم الدب الصغير، وقد أسماه اليونان فوينيكي (أي النجم الفينيقي)، إذ أنهم لم يعرفوا البوصلة(٨٥).

ســبق وأن ذكــرنا، أن قرطاجة كانت مستوطنة فينيقية تم تأسيسها لكي تكون محطة تجاريــة للاستراحة و التمون، شأنها في ذلك شأن كثير من المحطات والمراكز التجارية. لكن كان لهذه المحطة وضع خاص ومختلف، حيث نمت وتطورت بشكل هائل حتى استطاعت في أوائــل القرن السادس ق.م أن تحل محل أمها صور في قيادة وتزعم المستوطنات الفينيقية في الغــرب، ومــن ثم نشأت الإمبراطورية القرطاجية البحرية. وكان السبب الرئيسي في زعامة قــرطاجة للفينيقيين الغربيين هو ضعف قوة صور وفينيقيا وخضوعهما للإمبراطورية البابلية. وفــي تلــك الأثناء اشتد الضغط اليوناني في صقلية ضد المستوطنات الفينيقية هناك. وفي سنة

---

(٨٢) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١١٠.

(83) Warmington. B.H, Op. Cit., pp. 124, 125.

(84) Harden. D, Op. Cit., P. 169.

(٨٥) عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٣٢٩.

انظر أيضا :- ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ٣٥٠.

٥٨٠ ق.م حاولت مدينة سيلينوس (*Selinus*) وغيرها من المدن اليونانية طرد الفينيقيين من مستوطناتهم في موتيا و بانورموس (*Panormus*)، لكن تصدت لهم قرطاجة بقوة، إذ لو قدر لهم النجاح لأدي إلى تهديد اليونانيين للمستوطنات الفينيقية في سردينيا، وفتح التجارة مع أسبانيا التي حرموا منها طويلاً، وتبع هذا النجاح توحيد المستوطنات الفينيقية في سردينيا(٨٦). ومن هنا صارت قرطاجة زعيمة على كافة المستعمرات الفينيقية في الغرب.

ولقد اتبعت قرطاجة سياسة تجارية حازمة من أجل الحفاظ على احتكارها التجاري وهناك من يري أن هذه السياسة تتلخص في فتح أسواق جديدة سواء بالقوة أو عن طريق المعاهدات أو عن طريق تأسيس المستعمرات(٨٧).

ولم تحد قرطاجة عن هذه السياسة مطلقاً منذ بداية زعامتها التجارية. فلم تكن تتردد في استعمال القوة، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال كثرة اشتباكاتها العسكرية ضد كل خطر يتهدد مصالحها الاقتصادية، خاصة في صقلية وكذلك منعها لدوريوس- ابن ملك إسبرطة- من تأسيس مستوطنة على الساحل الأفريقي ويضاف إلى ذلك سعيها دائماً لتأمين جو من الاستقرار بمطاردتها للقراصنة ومعاقبتها لهم؛ كما تحالفت مع الأتروسكيين في موقعة ألاليا الشهيرة على الساحل الشرقي لكورسيكا ضد الفوكيين سنة ٥٣٥ ق.م ومنعهم من الاستقرار هناك. ولم تكن قرطاجة تتورع عن استخدام القوة ضد حلفائها إذا لزم الأمر، حيث ذكر أن الأتروسكيين قد تجرءوا على دخول مناطق بحرية تابعة لقرطاجة، لكن الأخيرة سارعت بطردهم(٨٨). وفي نفس الوقت، لجأت قرطاجة إلى سياسة عقد المعاهدات والتحالفات مع الدول الأخرى. وكانت جميعها تنص على تأكيد احتكار قرطاجة التجاري لبعض المناطق الغنية الهامة، ومن هذه المعاهدات، على سبيل المثال، المعاهدات الأربع التي عقدتها مع روما. ويرجع تاريخ أولى هذه المعاهدات إلى عام ٥٠٩ ق.م، وتحدد المنطقة التي كانت حكراً للقرطاجيين(٨٩)، وبينما حددت هذه المعاهدات مناطق معينة كانت حكراً للقرطاجيين، مثل منطقة ما وراء الجبل الجميل(*) (*Fair promontore*)وجزيرة سردينيا ثم لاحقاً جنوب شبه

---

(٨٦) وارمنجتون. ب.هـ، المرجع السابق، ص ٤٥٦.

(87) Moscati. S, Op. Cit., p. 180.

(٨٨) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٤١.

(٨٩) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١١١. و لمزيد من المعلومات والتفاصيل حول هذه المعاهدات و نصوصها، انظر:- Polybius,III,22-27.3 .

وانظر أيضا:- فوزي مكاوي،"العلاقات بين قرطاج و روما قبل اندلاع الحروب البونيقية"، مجلة كلية الآداب. جامعة طنطا،العدد الثاني،١٩٨٥، ص ١٦٧ وما بعدها .

(*) وهي المنطقة التي تقع إلى الجنوب من رأس "بورتوفارينا" أو رأس "سيدي علي المكي" إلى الشمال الغربي من قرطاجة. انظر: فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ص ١١، ١١٢.

الجزيــرة الأيبيــرية، في المقابل تبدو لنا صقلية البونية بمظهر المنطقة المفتوحة على التجارة الحــرة. وتعــد هــذه الحرية التي وهبتها قرطاجة لصقلية وجه ثان من وجوه سياسة قرطاجة الاقتــصادية ذلــك أن البونيين باعتمادهم هذه الطريقة في التعامل مع بعض مستوطناتهم إنما أرادوا المحافظة على منفذ مفتوح تجاه التجار الأجانب، وبعبارة أوضح سعت قرطاجة إلى أن تجعــل مــن الجــزء الواقــع تحت سيطرتها فضاء للتبادل الحر يرتاده هؤلاء التجار لتسويق بــضائعهم وهــي بضائع يتزود بها القرطاجيون ليقوموا بترويجها في مناطق أخرى من البحر المتوسط. ويبدو أن قرطاجة كانت مضطرة إلى إتباع هذه السياسة في صقلية، حيث كانت هذه الأخيــرة مــنطقة تعــايش تجمع بين اليونانيين والقرطاجيين؛ فلذلك رأت قرطاجة أن ممارسة ســلطة مطلقة هناك قد يؤدي إلى حالة من عدم الاستقرار وهي نتيجة معاكسة تماماً لما كانت قــرطاجة تود تحقيقه(٩٠). ويبدو أن قرطاجة قد لجأت إلى وسيلة أخرى من أجل الحفاظ على احــتكارها الــتجاري، ألا وهي فرض الضرائب الجمركية الثقيلة، مما أدى إلى وجود عمليات تهــريب للبــضائع كانت تجري بين المدن اليونانية في الإقليم الواقع حول قورينة (*Cyrene*) والمدن التابعة لقرطاجة(٩١).

وممــا يــدل علــى ضــخامة هذه الضرائب ما كان يجتمع يومياً بلبدة من المكوس والجمــارك لصالح خزينة قرطاجة، والذي كان يبلغ يومياً في بداية القرن الثاني ق.م ما قدره خمسة آلاف فرنكا ذهباً(٩٢).

أما من حيث سعي قرطاجة لتأسيس المستوطنات والمراكز التجارية المختلفة، نستطيع أن نقــول أن قــرطاجة لم تترك أي مكان مناسب للاستيطان والتجارة إلا وسعت بكل جهودها إلى احتلاله، مع المحافظة في نفس الوقت على المجال الذي ورثته عن صور والفينيقيين.

ولعل إشارة سترابون إلى أن قرطاجة عندما بدأت في شن الحروب البونية كان تحت ســيطرتها ٣٠٠ مديــنة(٩٣)، علي الرغم من المبالغة في هذا الرقم، فإنه يدل علي عظم حركة التوســع والاستيطان القرطاجي ليس في أفريقيا فحسب بل أيضا في أسبانيا وصقلية و سردينيا وغيــرها كثيــر. وكانــت أولى المستوطنات التي قامت قرطاجة بتأسيسها هي مستوطنة في " ايبيــزا" (*Ibiza*) عــام ٦٥٤– ٦٥٣ ق.م(٩٤). وبلغ توسع قرطاجة درجة كبيرة وعظيمة من

---

(٩٠) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(91) Church. A.J, Op. Cit., p. 117.

(٩٢) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(93) Strabo, 17, 3, 15.

(٩٤) نجــيب ميخائــيل إبــراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم (٣) (الشرق الأدنى القديم. سورية)، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٦٥.

الاتــساع حتـــى انضوت جزر الأزور والكناري تحت نفوذها، كما تؤكد أدلة أثرية تشير إلى وجــود مــستوطنات فينيقــية علي الساحل المراكشي منذ القرن السابع ق.م[٩٥]. ولقد أنشأت قــرطاجة الكثير من المراكز التجارية في صقلية مثل، علي سبيل المثال، إيريكس (*Eryx*)، وبانورمـــوس (*Panormos*)، وســولويس (*Soleis*) وغيـــرها كثيـــر في سردينيا ومالطة ومينورقا......الخ[٩٦].

ومـــن المؤكد أيضا أن قرطاجة قد اهتمت ببناء المواني والسفن، لكي تستكمل سياستها الــتجارية. كمـــا اهتمت أيضا بأسطولها الحربي اهتماماً كبيراً، وذلك من أجل المحافظة علي احــتكارها التجاري ضد أية اعتداءات أو عمليات قراصنة أو حتى طموحات زائدة من جانب حلفائهـــا، كمـــا رأينا عندما تصدت للأتروسكيين، وكما سوف نري عندما تصدت للرومان من بعدهم أثناء الحروب البونية.

لكـــن الــتجارة القرطاجية لم تكن علي وتيرة واحدة طوال مراحل تاريخ قرطاجة ولم تكـــن دائمـــاً مزدهرة، حيث كانت كثيراً ما تتأثر بالأحداث المحيطة بها؛ مما كان يؤدي أحياناً إلـــى إصابتها ببعض الانتكاسات و الأزمات[٩٧]. ومن ثم فقد مرت ببعض الأحداث الهامة التي أثرت فيها سواء بالسلب أو الإيجاب.

فـــأول هذه الأحداث هزيمة قرطاجة في معركة هيميرا عام ٤٨٠ ق.م أمام اليونانيين التي أصابت تجارتها هزة قوية حيث سيطر اليونانيون علي البحر المتوسط من المضيقين (أي مـــضيق صـــقلية و مضيق ميسينا) إلى بلاد مصر مما حرم قرطاجة من طريق العالم الشرقي وأغلـــق فـــي وجههـــا أهم الأسواق وأكثرها فائدة لتجارتها. وعلي هذا اتبعت قرطاجة "سياسة التقشف" وانكمشت علي نفسها وأخذت في تنظيم وتدبير اقتصادها المتاح وحاولت الاكتفاء ذاتياً فـــي كل شئ. وامتنعت عن استيراد أي منتجات سواء كان ذلك من حلفائها أو من أعدائها[٩٨]. وعلـــي الــرغم مـــن ذلك فإن هذا الحدث كان له أيضا إيجابيات هامة، حتى يمكننا القول أن إيجابـــياته قد فاقت سلبياته أهمية. وذلك نابع من صمود القرطاجيين وإصرارهم علي تعويض خـــسائرهم وفـــتح مجـــالات وأســـواق تجاريـــة جديدة غير التي فقدوها. ففي تلك الفترة قرر القـــرطاجيون التوجه نحو أفريقيا والتوغل فيها والتوسع في إنشاء مستوطنات ومراكز تجارية

---

(٩٥) كارلهاينز برنهردت، لبنان القديم ، (ترجمة: ميشيل كيلو، مراجعة: زياد مني)، الطبعة الأولي ، دمشق، ١٩٩٩ ، ص ١٣٨.

(٩٦) ولمـــزيد من المعلومات حول المراكز التجارية العديدة التي أنشأها القرطاجيون حول العالم، انظر:- فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ص ١١٥- ١١٧.

(٩٧) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٩٨) نفسه، ص ١٤٤.

جديدة فيها. فتم إنشاء مراكز جديدة، بالإضافة إلى المراكز القديمة التي ورثوها عن الفينيقيين، فعلـــي طـــول الـــساحل الممتد من خليج "قابس" إلى "طنجة" أسست قرطاجة وبشكل تدريجي ومنـــتظم محطـــات تبعد الواحدة عن الأخرى حوالي أربعين كم بهدف تعزيز التجارة الساحلية والمسافة المذكورة سالفاً تعادل ما يمكن للسفن أن تقطعه في اليوم خلال إبحار متواصل، وفي ظـــروف مناخية جيدة(٩٩). ويري الكثير أن الرحلات الاستكشافية التي قام بها القرطاجيون في تلـــك الأثـــناء ما كانت سوي رد فعل لهذه الكارثة ورغبة في تعويض الخسائر التي لحقت بهم مـــن أســـواق ومـــستوطنات ومحاولـــة إيجاد غيرها فى مناطق جديدة وخاصة مناطق المواد الخـــام(١٠٠). وهـــناك حـــدث آخر هام في تاريخ التجارة القرطاجية، ألا وهو غزو الإسكندر وتكـــوين الممالك الهللينستية بعد موته. و يعد هذا الحدث من الأحداث الإيجابية التي أدت إلى نمو و ازدهار التجارة القرطاجية، حيث أدى تكوين الممالك الهللينستية إلى خلق أسواق جديدة وكبيرة للمصنوعات القرطاجية الرخيصة وغيرها من المنتجات المطلوبة في الشرق(١٠١).

وفـــي القرن الرابع، استعادت قرطاجة الوضع الذي كان لها حتى القرن السادس. وهو كـــونها المـــورد العام للشرق. فلقد بدأت في إمداد سوق البحر المتوسط بالمنتجات الزراعية، وانضمت إلى سياسة الاحتكار التي تم تأسيسها علي يد البطالمة(١٠٢).

وممـــا لا شـــك فـــيه أن الحروب البونية ضد روما كانت ذات أثر بالغ علي التجارة القرطاجية، حيث أدت إلى ضعفها تدريجياً ثم إلى انهيارها في النهاية، بل وسقوط المدينة ذاتها بعد فقدها إمبراطوريتها ومستعمراتها الواحدة تلو الأخرى. حقاً لقد تخللت هذه الحروب فترات من الازدهار إلا أن الضعف والانهيار كان مؤكداً، حيث كانت في كل مرحلة من مراحل هذه الحرب تفقد واحدة من أغني مستعمراتها، كما سنري فيما بعد عند الحديث عن هذه الحروب.

أما عن العلاقات التجارية مع الدول والشعوب الأخرى، فلقد تاجرت قرطاجة مع دول كثيـــرة ومـــتعددة مـــنها، علي سبيل المثال لا الحصر، مصر حيث أن الأشياء التي تم العثور علـــيها فـــي قرطاجة تشير إلى أن جعارين مصرية وحلي وصلت إلى هناك خلال فترة حكم الأســـرة الـــسادسة والعشرين ولكنها تقل تدريجياً بعد ذلك وتحل محلها أنواع أخرى هي تقليد فينيقي للمصنوعات المصرية(١٠٣).

---

(٩٩) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ص ١١٧، ١١٨.

(١٠٠) كارلهاينز برنهردت، المرجع السابق، ص ١٣٦ ؛ انظر أيضا:- نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق ، ص ص ١٦٦، ١٦٧.

(١٠١) وارمنجتون. ب. هـــ، المرجع السابق، ص ٤٦٢.

(102) Picard. G & C, Op. Cit., p. 184.

(103) Harden. D, Op. Cit., p. 162.

ومـنذ نـهاية القرن السابع ق.م نجد أن فخاراً ومصنوعات برونزية إغريقية وإترورية قـد وجدت طريقها إلى المستعمرات الفينيقية، في غرب البحر المتوسط بما فيها قرطاجة حيث عثـر علـي كمـيات كبيرة من هذه المصنوعات في المقابر القرطاجية، وكانت المصنوعات المعدنية، والمعادن الخام جزءاً من هذه التجارة(١٠٤). كما ارتبطت روما مع قرطاجة بعلاقات تجارية، ولكن هذه العلاقات مرت بمرحلتين أساسيتين:

الأولى: قبل اندلاع الحرب البونية الأولى بين الطرفين. وكانت السلع الأساسية المتداولة في هـذه الفترة هي الخزف. وتبدو قرطاجة في هذه المرحلة بمظهر أكبر شركاء روما التجاريين.

الثانـية: كانت بعد الحرب البونية الثانية، وفيها ظلت واردات قرطاجة من الفخار الروماني أهـم الواردات علي الإطلاق كما تدل علي ذلك الكميات الهائلة من الفخار الكمباني A (١٠٥).

العملة:

قامـت المـدن الفينيقـية الغربية بسك عملتها متأخرة عن المدن الشرقية. ويعد تأخر قـرطاجة فـي سك العملة أمراً غريباً و لافتاً للانتباه؛ نظراً لوفرة المعادن التي شكلت ركيزة أساسـية فـي التجارة القرطاجية، بالإضافة إلى اعتماد اقتصادها بالدرجة الأولى علي النشاط الـتجاري وهو ما يفترض أن تكون قرطاجة هي السباقة في سك العملة. ويرجع البعض سبب هذا التأخر إلى اعتياد القرطاجيين علي المتاجرة مع مناطق غير متحضرة لا تعتمد العملة ولا تعتـرف بهـا كـأداة للتـبادل (١٠٦)، حيث اتبعت في التجارة مع هذه الشعوب البدائية طريقة المقايـضة. وفـي هـذا الـشأن لدينا نصاً هاماً وشيقاً لهيرودوت يصف لنا هذه الطريقة في التجارة. ولقد أصطلح علي تسميته بنص "**المقايضة الصامتة**"،

فـيقـــول: "يـروي القرطاجيون هذا أيضا، إذ توجد خلف أعمدة هرقل بلاد تابعة لليبـيا، يسكنها ناس يأتون إليهم، حيث يقومون بإنزال بضائعهم؛ بعد ذلك يقومون بوضعها بتـرتيب ونظـام علي طول شاطئ البحر، ثم يعودون إلى سفنهم ويشعلون ناراً لإعلام أهل الـبلاد الـذين يقتـربون من الساحل عند رؤية الدخان، ويضعون بجانب البضائع ذهباً، ثم يـرجعون، و بعد ذلك، يأتى القرطاجيون مرة أخرى و يعاينون الذهب، فإذا بدا لهم أنه سعر مناسـب مقابل بضائعهم، أخذوه و ذهبوا عائدين في طريقهم؛ لكن إذا لم يكن كذلك، يعودون

---

(١٠٤) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٢٠.

(١٠٥) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ص ٢٣١- ٢٣٣.

(١٠٦) نفسه، ص ٢٣٩.

إلـــى سفنهم مرة أخرى وينتظرون، أما الأهالي فإنهم يعودون بدورهم ليضيفوا ذهباً. وهكذا حتـــى يقـــبل القرطاجيون. ولا يحدث خلال هذه العملية أي تلاعب، فالقرطاجيون لا يلمسون الذهب قبل أن يروا في كميته ما يوازي قيمة سلعهم، والأهالي بدورهم لا يلمسون السلع قبل أن يأخذ القرطاجيون الذهب(١٠٧)".

هـــذه كانـــت طـــريقة الـــتجارة مـــع الشعوب البدائية، أما طريقة التجارة مع الأمم المتحـــضرة التي كانت تستخدم العملة في تجارتها، فقد استخدمت قرطاجة، قبل إصدار العملة الخاصـــة بهـــا، العملـــة الأجنبية بالإضافة إلى نظام آخر يجمع في الواقع بين نظام المقايضة والعملـــة هـــو اســـتخدام ســـبائك مصنوعة علي شكل قضبان ذات أوزان مختلفة من معادن ثمينة(١٠٨).

قامـــت المـــدن البونية في صقلية بسك عملتها منذ نهاية القرن الخامس، قبل العاصمة نفسها، وكانت عبارة عن عملات من الذهب وفق المقياس الفينيقي وعملات ذات القيمة بأربعة درخمـــات رباعية الأضلاع(***Tetradrchmes***) من الفضة النقية الصافية. وكان وجهها يحمل رأس تانـــيت في هيئة بيرسيفون الصقلية وعلي الظهر حصان أو أسد ونخلة بلح. أما العاصمة القـــرطاجية فقـــد بـــدأت في ضرب عملتها في القرن الثالث ق.م. ولقد تم سكها وفق المعيار الفينيقـــي من الذهب والبرونزK ولم تحدث أية إصدارات من الفضة حتى السنوات الأخيرة في القرن الثالث إلا عندما سيطر هاميلكار علي المناجم الأسبانية.

وبعـــد خسارة أسبانيا صار البرونز الإصدار الرئيسي(١٠٩). أما دور سك العملة، فنحن لا نعرف شيئاً عن تنظيمها. فنظامها تم تقليده من اليونانيين، وربما أيضا أن عمال يونانيين تم توظيفهم فيها(١١٠).

وعـــن الـــسبب الذي دفع قرطاجة إلى سك عملتها الخاصة بها، يذهب البعض إلى أن ذلـــك كـــان بدافـــع من ضرورة عسكرية أكثر منها تجارية؛ وبالتحديد لكي تستطيع دفع أجور مرتـــزقتها(١١١). بيـــنما يري البعض الآخر أن اتساع نطاق التجارة هو الذي حدا بالقرطاجيين إلى إصدار عملة خاصة بهم من أجل تسهيل العمليات التجارية(١١٢).

---

(107) Herodotus, IV. 196.

(١٠٨) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٢٥ ؛ انظر أيضا:- أحمد صفر،المرجع السابق، ص ١٣٨.

(109) Harden. D, Op. Cit., pp. 167, 168.

(١١٠) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٣١.

(١١١) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص١١١.

(١١٢) جايمس هنري براستد، المرجع السابق، ص ٥١٤.

وإلي جانب العملات المعدنية، أصدرت قرطاجة أيضا عملات جلدية، وهي عبارة عن قطعة صغيرة من الجلد يوضع فيها مادة يتم لفها وحبكها جيداً حتى تصبح في حجم قطعة نقود تساوي أربعة درخمات؛ لكن ماهية هذه المادة لا أحد يعرفها غير الصانع. وربما تكون هذه المادة خليط معدني، كانت عناصره ومكوناته تعد سراً من أسرار الدولة الهامة(١١٣). وتعد هذه العملات أقدم سلف للنقد الورقي، وكانت تختم بخاتم الدولة ضماناً لقيمتها، وكان هذا الختم عبارة عن شعار الدولة(١١٤). ولقد ظهرت هذه العملات في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التي ألمت بقرطاجة خلال حروب القرن الثالث وحرمانها من بعض ممتلكاتها الغربية(١١٥).

أما المدن الفينيقية الأسبانية فقد بدأت في ضرب عملتها في القرن الثالث ق.م من الفضة، وكان وزنها يتراوح ما بين ٠,١ و ٠,٤ جرام وكانت تحمل صورة رأس ملقرت، حامي المدينة، أو سمك التونة كشعار للعظمة البحرية. كما وجد أيضا عملات برونزية أكثر ثقلاً، ولكنها أقل قيمة، يبلغ وزنها ٤,٥ جرام(١١٦).

٢- الرحلات الاستكشافية:

أ- رحلة هيميلكو:

كان الهدف من هذه الرحلة هو إيجاد اتصال مباشر مع مناجم القصدير في جنوب غرب إنجلترا، بعد أن احتلت المراكز العسكرية اليونانية مصب نهر الرون، طريق تجارتهم القديم عبر فرنسا. ولقد انطلقت هذه الرحلة من مدينة قادس الفينيقية في أسبانيا(١١٧). وليس لدينا وثائق حول هذه الرحلة سوي فقرات قليلة من قصيدة في الجغرافيا وضعها الشاعر الروماني فستوس أفينوس (*Festus Avienus*) في بداية القرن الرابع الميلادي، وعنوان هذه القصيدة (*Ora Maritima*) أي (الشاطئ/ الحد البحري) ويصف فيها الشاعر سواحل البحر المتوسط حسبما وجدها هيميلكو في رحلته، فيقول:-

"إن القرطاجي هيميلكو، الذي يحكي بأنه جرب بنفسه هذا السفر، يؤكد بأنه لا يمكن إلا بجهد جهيد قطع تلك المسافة في أربعة أشهر، وذلك لعدم وجود أي نسيم يدفع السفينة إلى الأمام، فإن ماء هذا البحر الميت يبدو ساكناً جامداً، وزيادة علي ذلك فإن كمية كبيرة من الطحالب تصعد من قاع البحر وتصبح شبه سياج يحبس السفينة، ومع ذلك فإن البحر

---

(113) Church. A.J, Op. Cit., pp. 122, 123.

(١١٤) جايمس هنري براستد، المرجع السابق، ص ٥١٤.

(115) Picard. G & C, Op. Cit., pp. 181, 182.

(١١٦) يولي بركوفيتش تسيركين، المرجع السابق، ص ص ٩٨، ٩٩.

(١١٧) كارلهاينز برنهردت، المرجع السابق، ص ١٣٦.

خـــال مـــن العمـــق لا تغطي قعره سوي طبقة رقيقة من الماء، وفي كل وقت تري حيوانات بحرية تجول هنا وهناك وحيتاناً مخيفة تمر بين السفن التي تزحف ببطء وبتعب شديد"[١١٨].

ويـــري الـــبعض في هذا التقرير، الذي أمعن في سرد ووصف أشياء مخيفة ومفزعة، شـــئ مـــتعمد من جانب القرطاجيين، وذلك حرصا منهم علي احتكارهم التجاري لهذه الطرق والأسواق التجارية الهامة، فلذلك أسهب النص في ذكر أشياء كفيلة بعرقلة أية محاولات أخرى لارتياد هذه البحار[١١٩].

ونفهـــم مـــن كلام أفينوس أن هيميلكو وصل إلى جزر إسترمنيد (**Estrymnides**) قـــرب رأس اســـترمنيس. ومن المحتمل أن يكون هذا الرأس هو الطرف الغربي من بريطانيا الفرنـــسية، وأن تكـــون تلـــك الجزر هي أوشانت والجزر المجاورة لها. وعلي كل فإن الشيء المـــؤكد هـــو أن هيميلكو وصل إلى هناك ونزل بها. وأن القصدير كان يتم تصديره منذ وقت طـــويل جـــداً، مـــن طرف الكورنوول (***Cornwall***) والموربيهان (***Morbihan***) ببريطانيا الفرنـــسية. وكـــان لهـــذه الرحلة نتائج اقتصادية عظيمة، حيث ازدهرت صناعة البرونز في قـــرطاجة فـــي أواخر القرن الخامس ق.م وذلك باستخدام القصدير الاسترمنيدي[١٢٠]. ولذلك أخفـــي القرطاجيون معرفتهم لهذه الطرق بهدف- كما سبق أن ذكرنا- المحافظة علي احتكار العملـــيات الـــتجارية هـــناك لصالحهم فقط. ولكن الرومان حاولوا أثناء الحرب البونية الثانية الوصول إلى تلك المناطق من أجل ممارسة عمليات تجارية مشابهة. إلا أن قرطاجة استبسلت في الدفاع عن احتكارها لهذه الأسواق والطرق التجارية الهامة. وفي هذا الشأن يرد ذكر قصة طريفة عن تلك المعركة الخفية التي كان هدفها المحافظة علي "**الإرث القديم**" :

"ذات يـــوم لحق بعض البحارة الرومان بإحدى تلك السفن لمعرفة تلك الطرق، إلا أن قائد السفينة القرطاجية، لكي يحافظ علي سرية الطريق البحري، حول اتجاهها وجنح بها في المـــياه الـــضحلة كي يجر مطارديه إلى نفس المنطقة ويكبدهم نفس الخسارة، أما هو فتمكن من الخروج سالماً، وسددت الخزينة العامة ثمن سفينته"[١٢١].

---

(١١٨) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ١٣٤، ١٣٥.

(119) Church. A. J, Op. Cit., p. 101.

(١٢٠) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ١٣٥- ١٣٧.

(١٢١) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ص ١٢٧، ١٢٨ ؛ انظر أيضا:- كارلهاينز برنهردت، المرجع السابق، ص ١٣٧.

ب- رحلة حانون *(Hanno)* :-

اختلفت الآراء كثيراً حول تاريخ القيام بهاتين الرحلتين، فبينما يذكر البعض أنهما قد وقعتا في عام ٤٢٥ ق.م[١٢٢]، يذكر البعض الآخر أنهما ربما قد تمتا في الفترة الواقعة ما بين ٤٥٠ - ٣٥٠ ق.م[١٢٣]. وأخيراً هناك رأي آخر ثالث يضع تاريخ حدوثهما في فترة متأخرة نسبياً عن الاقتراحين الآخرين، حيث يذكره في الفترة الواقعة ما بين ٥٢٥- ٥٠٠ ق.م[١٢٤].

على إنني أميل إلى الرأيين الأولين لأنهما يقعان في الفترة التي تلت هزيمة القرطاجيين في معركة هيميرا عام ٤٨٠ ق.م، حيث تبين مما سبق أن هذه الهزيمة قد أحدثت ثورة إصلاحية في قرطاجة في كافة المجالات ومن بينها التجارة والرحلات الاستكشافية، وأن هذه الرحلات، كما سبق أن ذكرنا، جاءت كرد فعل لهذه الهزيمة ورغبة في تعويض الخسائر التي منيت بها قرطاجة في هذه الحرب، وخاصة الخسائر الاقتصادية[١٢٥] التي أثرت علي اقتصاد قرطاجة كثيراً.

وتعد معلوماتنا عن هذه الرحلة وافية وقيمة، مقارنة برحلة هيميلكو. والمخطوط الوحيد الباقي الذي يتناولها يرجع إلى القرن العاشر الميلادي، وهذا المخطوط أفسده كثرة النقل والنسخ. والقصة في مجملها مقبولة لدي أكثر العلماء، ولكنهم يختلفون أشد الاختلاف في بعض التفاصيل مثل تحديد الأماكن الجغرافية التي يذكرها حانون وأقصي منطقة وصل إليها. ويذهب البعض إلى أن النص أكثره مزيف، ومع أن هذا القول مبالغ فيه فإن القصة بها كثير من الأخطاء والمتناقضات، فنص هذه القصة الذي وصل إلينا هو عبارة عن ترجمة يونانية للوصف الذي كتبه حانون نفسه ووضعه في معبد بعل حمون في قرطاجة، وترجع الترجمة اليونانية إلي نهاية القرن الرابع أو بداية الثالث ق.م، وكانت معروفة لدي "إسترابون" في القرن الأول ق.م وأعتقد أنها محض خرافة، ومع ذلك فمما لا شك فيه أن الرحلة حقيقة تاريخية، وإنها تقررت ونفذت بناء علي قرار من مجلس الشيوخ القرطاجي[١٢٦]، ومما يؤكد

---

(١٢٢) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(١٢٣) ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:- ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ٣٥٢ ؛ انظر أيضا:- محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٢٣.

(124) Harden. D, "The Phoenicians On The West Coast Of Africa", Antiquity (QRA) ,No. 87, England, September 1948, p. 142 ; CF. Church. A. J, Op. Cit., p. 95.

(١٢٥) وكان من ضمن شروط الصلح التي فرضت علي قرطاجة، والتي تعد أيضا من الخسائر الاقتصادية الفادحة التي تكبدتها قرطاجة نتيجة لهذه المعركة، دفع غرامة مالية فادحة تقدر بألفي تالنت لسيراكوزة، وأن هذه الكمية الضخمة من المعدن هي التي مكنت السيراكوزيين من ضرب العملة الخاصة بهم.
Howgego. C, "Ancient History From Coins", AJA, Vol. 105 ,2001, p. 358.

(١٢٦) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ص ١٢٤، ١٢٥.

صـــحة هذه الرحلة ما هو معروف من وجود مستعمرات فينيقية في غرب أفريقيا، ولو أن هذه المـــستعمرات زالـــت بعـــد الحروب البونية ولكن ذكري النفوذ الفينيقي ظلت باقية في غربي أفريقيا بعد ذلك بمدة طويلة. وجاء عن القديس أوغسطين (Augustin) (٣٥٤- ٤٣٠م) عند كونتيـــنو أن الناس في زمانه في بعض بقاع الشاطئ الغربي الأفريقي كانوا لا يزالون يتكلمون اللغة الفينيقية(١٢٧).

وفيما يلي ذكر نص الرحلة كما عثر عليه:-

"هـــذه هي قصة رحلة حانون "ملك" القرطاجيين الطويلة إلى الأراضي الليبية، وراء أعمدة هرقل، والتي قام بوضعها علي لوح في معبد كرونوس:

١- قـــرر القرطاجيون أنه يجب علي حانون الإبحار خلف أعمدة هرقل(*) وتأسيس مدن ليبية – فينيقية. وشرع في الإبحار علي رأس ستين سفينة وحوالي ٣٠,٠٠٠ رجل وامرأة، ومؤن وضروريات أخرى.

٢- بعـــد الإبحـــار خلـــف الأعمـــدة لمدة يومين أقمنا أول مدينة التي أطلقنا عليها اسم ثيماتيرون (**)(Thymiaterion). أسفلها كان يوجد سهل كبير.

٣- بعـــد الإبحـــار من هناك إلى جهة الغرب ذهبنا إلى سولويس(***) (Soloeis)، وهو جبل ليبي مغطي بالأشجار. هناك شيدنا معبد لبوسيدون.

٤- بعـــد الـــسفر جهـــة الشرق لمدة نصف يوم وصلنا إلى مستنقع غير بعيد عن البحر مغطـــي بأعـــشاب كثيفة وعالية وكانت الفيلة وحيوانات برية متوحشة أخرى كثيرة تعيش هناك.

٥- ودرنا حول هذا المستنقع لمدة يوم وبعد ذلك تركنا مستعمرين جدد عند قلعة كاريان (Carian) وجيـــته(Gutta) وعكره (Acra) وماليطه (Malitta) و أرامبيس (Arambys)(١٢٨).

---

(١٢٧) ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ٣٥٢.

(*) مضيق جبل طارق، انظر:- رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ٢٢٩.

(**) هي المهدية الآن قرب مدينة الرباط، انظر:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٢٧.

(***) هو رأس كانتين(Cape Cantin). انظر:-
Harden. D, "The Phoenicians On The West Coast Of Africa", p. 142.

(١٢٨) هذه المراكز الخمسة زالت آثارها تماماً ولا يمكن معرفة مواقعها بالضبط لكنها كانت كلها موجودة بين رأس كانتين ومدينة أجادير بمصب نهر السوس. انظر:-
أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٢٨.

٦- ومـن هـنا أبحـرنا إلى ليكسوس (Lixos)، وهو نهر كبير ينبع من ليبيا، وعلي ضفافه يرعي أهل ليكسوس البدو الذين كان يطلق عليهم اسم (Lixitae) قطعانهم. ولقد مكثنا بعض الوقت معهم وصاروا أصدقائنا.

٧- وفـيما ورائهـم يـسكن الأثيوبيون، وكانوا غير كرماء، في أرض تعج بالحيوانات المفترسة ومحاطة بجبال شاهقة عظيمة. يقولون أن نهر ليكسوس ينبع منها.
وحـول هـذه الجـبال كـان يـسكن قـوم ذو طبـيعة خاصـة هـم التروجلوديت (Troglodytes)، ويدعـي أهل ليكسوس أن هؤلاء القوم كانوا يستطيعون الجري أسرع من الخيول.

٨- بعـد أن أخـذنا متـرجمين مـن الليكستيين أبحرنا نحو الجنوب علي طول شاطئ الصحراء لمدة يومين، وبعد ذلك لمدة يوم واحد نحو جهة الشرق عثرنا علي جزيرة صـغيرة تقدر مساحتها بحوالي خمسة ستادات (حوالي واحد كيلو متر) في محيطها فـي أقصى نهاية الخليج. أقامنا مستعمرة هناك وأطلقنا عليها اسم قرنة (Cerne). نحـن اسـتنتجنا مـن رحلتـنا أن هذه الجزيرة كانت في الجهة المقابلة لقرطاجة مباشرة، لأن الرحلة من قرطاجة إلى الأعمدة ومن هناك إلى قرنة تبدو متساوية.

٩- ومـن هـناك مـررنا بنهر كبير هو الكر يتيس(*) (Chretes) ووصلنا إلى بحيرة، تحـوي ثلاثـة جزر أكبر من قرنة. وبعد تركهم أبحرنا لمدة يوم ووصلنا إلى رأس بحيـرة يـشرف عليها جبال مرتفعة ويسكنها أناس متوحشون كانوا يلبسون جلود الحيوانات المتوحشة، وقد منعونا من النزول بقذف الأحجار علينا.

١٠- ومـن هـناك دخلنا نهراً آخر عميقاً ومتسعاً مليئاً بأفراس النهر والتماسيح، وبعد ذلك عدنا إلى قرنة.

١١- ولقـد أبحـرنا نحو الجنوب لمدة اثني عشر يوماً من هناك، بمحاذاة الساحل الذي كـان يـسكنه الأثيوبيون الذين فروا منا. وكان كلامهم غير مفهوم، حتى بالنسبة لمترجمينا الليكستيين.

١٢- وفـي اليوم الثاني عشر ألقينا المرسى تحت سلسلة جبال مكسوة بالأشجار العطرة وذات أنواع كثيرة.

(*) هو نهر السنغال، انظر:-
Harden. D, "The Phoenicians On The West Coast Of Africa", p. 144.

١٣- بعـد الإبحـار حـول هذه الجبال لمدة يومين وصلنا إلى خليج فسيح متسع علي جانبيه أراضى منخفضة. ومن هنا شاهدنا أثناء الليل نيرانا تتصاعد من كل جانب في فترات غير منتظمة.

١٤- وبعـد التـزود بالمياه، أبحرنا لمدة خمسة أيام علي طول الساحل حتى وصلنا إلى خلـيج كبيـرالذي كان مترجمينا يسمونه القرن الغربي وتوجد فيه جزيرة كبيرة، وفـيها بحيرة عليها جزيرة أخرى. وعند النزول عليها لم نشاهد غير غابة أثناء الـنهار ولكـن أثـناء الليل شاهدنا عدة نيران وسمعنا أصوات المزامير والطبول والدفـوف وصيحات زحام كبير، واستولي علينا الخوف وأمرنا العرافين أن نترك الجزيرة.

١٥- فأبحـرنا من هناك بسرعة وسرنا بمحاذاة ساحل متقد. وكانت هناك أنهاراً كبيرة من النار واللافا تنساب إلى أسفل حتى تصب في البحر، والأرض كانت غير قابلة للاقتراب منها بسبب الحرارة.

١٦- فتـركنا هـناك بـسرعة خائفـين وأبحرنا لمدة أربعة أيام حتى رأينا الأرض ليلاً مـشتعلة، وفـي وسـط المنطقة كان هناك لهيب مرتفع فوق النيران يبدو وكأنه يلامس النجوم، وكان هذا أعلي جبل شاهدناه ويسمي عربة الآلهة.

١٧- مـن هـناك أبحرنا لمدة ثلاثة أيام حيث يوجد المزيد من فيضانات اللافا المشتعلة حتى وصلنا إلى خليج يسمي القرن الجنوبي.

١٨- عـند أقـصى نهاية هذا الخليج توجد جزيرة، مثل الأولى، ذات بحيرة يوجد فيها جزيـرة أخـرى مليـئة بالبرابرة المتوحشين، العدد الأكبر منهم كانوا نساءً ذوي أجـسام مليـئة بالشعر، وهم الذين أطلق عليهم المترجمين اسم الغوريلات. وقمنا بمطـاردتهم وكـنا غير قادرين علي الإمساك بأي من الرجال، لأنهم كان يتسلقون المـرتفعات وهـربوا ودافعوا عن أنفسهم عن طريق إلقاء الأحجار لكننا استطعنا الإمـساك بـثلاثة من النساء، اللاتي قمن بعض ومهاجمة هؤلاء الذين يحملونهم، حتـى صـاروا غيـر راغبين في اتباعهم. ولذلك قمنا بقتلهن وسلخهن وأحضرنا جلودهم معنا إلى قرطاجة. لأننا لم نبحر أبعد من ذلك لأن مؤننا نفذت منا(١٢٩)".

الآن بعد أن أوردنا نص رحلة حانون، سوف نحاول التعليق علي بعض النقاط الواردة فـيه، وأولهـا:- الهدف من وراء القيام بهذه الرحلة. لقد رأينا في الفقرة الأولى من هذا النص

(129) Harden. D, The Phoenicians, pp. 174-176 ; Church. A.J, Op. Cit., pp. 95-100.
انظر أيضا:- رشيد الناضوري؛ المغرب الكبير، ص ص ٢٢٩- ٢٣٣.

أن الهــدف مــنها تأسيس مدن أو مستعمرات جديدة في غرب أفريقيا، وهو الهدف المعلن من خــلال الــنص، ولكن هناك رأياً آخر يري أن الهدف منها هو إحلال قرطاجة محل "لكسوس" المركــز الفينيقي القديم في استغلال تجارة الذهب المستخرج من السودان والذي كانت القوافل تحملــه إلــى جزيرة قرنة(١٣٠). حرص القرطاجيون علي سرية النتائج الاقتصادية والتجارية لــرحلاتهم الاستكشافية، لذلك لا يحدد تقرير رحلة حانون تفاصيل الطريق الذي اجتازته، لكنه يــصف، فــي المقابل، وصفاً تخويفياً مسهباً أحداثاً طبيعية خطرة، كما رأينا من خلال النص. ولقد أفرط التقرير عن عمد في ذكر المبالغات المفزعة، لإبعاد وإخافة التجار الذين قد يفكرون في منافسة القرطاجيين علي طريق غرب أفريقيا. وهذا يفسر أيضا نقطة خلو التقرير من ذكر أي نجاحــات اقتصادية للرحلة، ويكتفي بالحديث عن تأسيس المستوطنات السبع(١٣١). ويلاحظ أيــضا فــي تلك الفقرة أن عدد السفن وأفراد الرحلة كان كبيراً للغاية، ويصعب تقبل هذا الرقم لمــا يــستوجبه ذلك من تجهيزات ضخمة في الوقت الذي يمكن فيه تقدير عدد سكان العاصمة القرطاجية بحوالي ٢٠٠ ألف نسمة(١٣٢).

علــي كــل حال هناك اتفاق عام علي تحديد بعض الأماكن التي ذكرها حانون وتشمل نهر ليكسوس، الذي يعتقد أنه نهر درعة (Draa) علي الحد بين المغرب والصحراء الأسبانية. و الليكستون يرجح أنهم بربر. كما أن مسألة إمداد الليكستين لهم بمترجمين يعد شئ هام، لأنه يوضــح أنهــم كانــوا بعض الشيء معتادين علي المناطق الموجودة أقصى الجنوب(١٣٣). أما قــرنة، فــيعد تحديد موقعها ذو أهمية كبري، لأنها تعد أقصى مستعمرة دائمة أقامها الفينيقيون جــنوباً علي الساحل الغربي لأفريقيا. ويقدم (***Harden***) في هذا الشأن ثلاثة احتمالات رئيسية من أجل تحديد موقع قرنة :-

١- جزيرة هرنة (***Herne***) .

٢- جزيرة أرجوين(١٣٤) (***Arguin***) .

٣- جزيرة، غير معروفة بالضبط، بالقرب من دلتا نهر السنغال.

(١٣٠) شارل اندري جوليان، المرجع السابق ، ص ١١٠.

(١٣١) كارلهاينز برنهردت، المرجع السابق، ص ص ١٣٧، ١٣٨.

(١٣٢) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ٢٣٤.

(133) Harden. D, The Phoenicians, p. 176.

(١٣٤) تقع علي بعد عشر درجات شمال خط الاستواء.

- Sladen. D, Carthage And Tunis (The Old And New Gates Of The Orient), Vol. 1, London, 1906, p. 103.

إلا أنـــه ولاعتـــبارات كثيرة يميل إلى الاقتراح الثالث الذي يضع قرنة عند أو بالقرب من مصب نهر السنغال[١٣٥].

ولكـــن هناك رأياً أخر يري أن قرنة هي التي تسمي الآن جزيرة هرنة في خليج ريو دو أورو وهـــي لم تكن بعيدة بالنسبة للقرطاجيين، نظراً لمهارتهم الفائقة في الملاحة، عن نهر الـــسنغال أي طريق مناجم الذهب. وكانت هذه المناجم موجودة بين نهر السنغال وساعدته نهر فالومة *(Faleme)* في أرض متسعة و مثلثة الشكل تسمي بمبوك *(Bambouk)*[١٣٦].

ولقـــد ورد فـــي النص ذكر عناصر بشرية تسمي الأثيوبيين، وهنا ينبغي التفرقة بين الأثيوبيـــين الشماليين الذين يعتبرون من البربر وبين الأثيوبيون الجنوبيون الذين تغلب عليهم الـــصفة الزنجية بحكم وجودهم في المنطقة المتاخمة مباشرة للأقاليم الاستوائية. وهم يختلفون كلـــية عـــن إخـــوانهم في الشمال، ومما يدل علي ذلك أن التراجمة في ليكسوس عجزوا عن التفاهم معهم[١٣٧].

إن الجـــبل الملـــئ بالغابـــات والأشـــجار الـــذي ذكـــر في الفقرة (١٢)، هو *"الرأس الأخـــضر"*[١٣٨] *(Cap vert)*. ويجمـــع كثير من الكتاب علي أن جبل (عربة الآلهة) هو جبل الكاميـــرون[١٣٩]، ويبلغ إرتفاعه أربعة آلاف متر[١٤٠]، وأنه كان نهاية مطاف الرحلة التي قام بها حانون إلى ساحل أفريقيا الغربي.

والخلاصـــــة أنـــه، لا يسعنا إلا الإقرار بأن هذه الرحلات الاستكشافية تعد من المآثر العظـــيمة التي تحسب لصالح الحضارة القرطاجية، والتي لا تقل أهمية عن الكشوف الجغرافية في العصر الحديث.

كان اقتصاد قرطاجة مرناً ومتنوعاً، حيث اعتمد علي الزراعة و الصناعة و التجارة، وإن كـــان قـــد اعـــتمد علي التجارة أكثر. وكان سريع التأقلم مع كافة الأزمات التي ألمت به والخـــروج مـــنها ســـريعاً في حالة من الازدهار. وليس هناك خلاف علي أن هزيمة معركة هيميـــرا عام ٤٨٠ ق.م كانت من الأحداث المؤثرة في تاريخ الاقتصاد القرطاجي، وإن كانت

---

(١٣٥) ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:-

- Harden. D, "The Phoenicians On The West Coast Of Africa", p.144.

(١٣٦) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٣٣.

(١٣٧) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ٢٣٥.

(١٣٨) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٣٢.

(139) Sladen. D, Op. Cit., p. 104 ; Harden. D, The Phoenicians, p. 177.

انظر أيضا:-رشيد الناضورى، المغرب الكبير، ص٢٣٧ .

(١٤٠) ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ٣٥٣ .

انظر أيضا :- محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٢٦.

لهــا نتائج مزدوجة. فعلي الرغم من النتائج السلبية، كانت هناك نتائج أخرى إيجابية في كافة المجــالات الاقتــصادية. ففـــي الزراعة، أدت إلى الاتجاه نحو أفريقيا ومحاولة السيطرة علي الأقالــيم الداخلــية الخصبة فيها، مما أدى إلى ظهور طبقة من النبلاء الزراعيين الذين اهتموا كثيــراً بتنمية ضياعهم ومحاولة الحصول علي أعلي عائد ممكن منها مثل التجارة ومما سبق أيضا نستطيع أن نقول بأن التجارة، كانت هي محور حياة المجتمع القرطاجي والمحرك الأول لــه ولسياساته، فمن أجل التجارة خاضت قرطاجة الكثير من الحروب من أجل المحافظة علي احتكارها، وأيضا أقدمت علي خطوة إرسال البعثات الاستكشافية إلى مناطق بعيدة وجديدة من أجــل الحــصول علي المعادن الثمينة وفتح أسواق جديدة. كما أن الطبقة الحاكمة في قرطاجة ذاتها كانت في أغلبها من طبقة كبار التجار.

ولكــن إذا كانت التجارة سبب في ازدهار قرطاجة، فإنها أيضا كانت سبب في هلاكها ودمارهــا، حــيث أدت إلى حسد الشعوب الأخرى لها ومحاولة منافستها مما أدى إلى نشوب حــروب عنيفة ضد قرطاجة أدت في النهاية إلى إضعافها ثم سقوطها في عام ١٤٦ ق.م، كما سوف نري عند الحديث عن الحروب البونية ضد روما.

إن ازدهــار الــتجارة ترتب عليه بالطبع ازدهار الصناعة نتيجة فتح الأسواق الجديدة والحصول علي المعادن من مواطنها الأصلية.

الفصل الثالث

الأحوال الاجتماعية والمظاهر الحضارية

وبعد أن عرضنا في الفصل السابق لأوجه النشاط الاقتصادي في قرطاجة من زراعة، و صناعة،و تجارة،.......الخ، أجد من المناسب الآن تناول الأحوال الاجتماعية والمظاهر الحضارية في قرطاجة.

أولاً:- الأحـــوال الاجتماعية

كـان المجـتمع القرطاجـي يضم عدة أخلاط من أصول مختلفة فإلي جانب العنصر القرطاجـي الفينيقي الأصل والعنصر البربري المحلي كان هناك العنصر اليوناني والمصري والأتـروري والأفريقي الزنجي والقبرصي....الخ. وبالطبع كان لكل عنصر من هذه العناصر مقـوماته الحـضارية التـي أثرت في المجتمع القرطاجي تأثيراً كبيراً في جميع المجالات(١). ورغـم هذا التعدد العرقي إلا أن المجتمع القرطاجي تميز بالتماسك والتكاتف بين طبقاته، على الرغم من كل الصراعات السياسية التي قسمتهم. وكان هذا التماسك يظهر في أوقات الأزمات والـشدة(٢)، وخير مثال على ذلك العزيمة التي أظهرها الشعب القرطاجي أثناء الحرب البونية الثالثة، كما سوف نري.

غيـر أن المجـتمع القرطاجي عاني كثيراً من كراهية وحقد الشعوب الأخرى، بسبب المنافسة التي جلبت العداوة بين الطرفين وبلغت الكراهية حداً مقيتاً لدرجة أن كثيراً من الكتاب اليونان والرومان القدامى بالغوا في ذكر الروايات التي من شأنها تشويه صورة ذلك المجتمع؛ لـذلك وجب علينا توخي الحرص والحذر عند الاعتماد على كتاباتهم. ومن أمثلة ذلك ما جاء عن بلوتارخوس (*Plutarch*) عند فرانسوا ديكريه في وصف الشعب القرطاجي.

فـيقـــول:- **"إن هـذا الـشعب تغلب عليه الخشونة، نكد المزاج، يخضع لمن يحكمـه، يستعبد الشعوب التي يحكمها، يصبح أكثر تواضعاً حينما يشعر بالخوف، أما حينما يـثور فإنـه يـتحول إلى شعب شرس، وهو شعب حازم في قراراته، وقد أدت صراحته إلى ابتعاده عن الدعابة والمزاح".**

ويـري فرانسوا ديكريه أن هذه الصورة التي رسمها بلوتارخوس صورة قاتمة للغاية، لكـنها طبيعـية نتيجة للعداء الشديد الذي كان بين اليونانيين والقرطاجيين، وبالتالي فليس من المـتوقع أبـداً أن يمـدح اليونانـيون الشعب القرطاجي الذي حرمهم من الكثير من المكاسب والاحتكارات التجارية بعد أن حرمهم من التوغل في البحار عدة قرون(٣).

---

(١) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ٢٠٦.

(2) Picard. G & C, Op. Cit., p. 62.

(٣) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١١١.

ويري البعض أن المجتمع القرطاجي كان يعيش حياة تقشف إلى حد ما رغم مساعدات الأرستقراطية الضخمة، وأنه قد وجدت في هذا المجتمع طبقة كادحة يقدر عدد أفرادها بحوالي أربعـــة أو خمسة آلاف فرد منهم: تجار صغار، وعمال أحواض السفن، وحمالون، وحرفيون، وصـــناع. ولقد فضل الشباب القرطاجي عامة أن يكونوا رجال أعمال وأصحاب مصارف أو قباطـــنة ســـفن أو أن يعملوا في الاستيراد والتصدير على أن يذهبوا إلى الحروب(٤). ويرجع الـــسبب فـــي ذلـــك إلـــى أن الجو الذي يتنفسه الأطفال منذ الصغر في مدينة تجارية صناعية زراعـــية رأســـمالية مثل قرطاجة كان يحثهم على حب المال، ويصور لهم الذهب كأعلى مُثل الحـــياة وأغلى غاياتها، وأن كل شئ يمكن الحصول عليه بالمال حتى مناصب الحكم العليا في الدولة(٥).

ولـــيس فـــي هـــذا الموقف أية غرابة ذلك أن المادة قد سيطرت على عقول الفينيقيين عامـــة، مما جعلها القاعدة الأولى الثابتة في تنظيمهم الاجتماعي. ومن أجل الحفاظ على الثروة والمـــستوي المـــادي حرص أولى الأمر على البحث عن ذوي الكفاءة، لأنهم وحدهم القادرين علـــى تحقـــيق الرخاء المادي. وإذا ميز الفينيقيون بين الفئات الاجتماعية كان تمييزهم مادياً؛ فالنبـــيل هو الغني والنشيط معاً. ومن أيسر حاله أنفتح أمامه طريق الوصول إلى الطبقة العليا وطريق مجلس الشيوخ، ويعد ذلك أعلي درجات الديمقراطية(٦).

علي أن معلوماتنا عن المواطنة القرطاجية وشروط منحها معلومات قليلة وغير وافية. ويـــبدو أن المواطـــنة نظرياً كانت من حق كل من تحدر من أبوين قرطاجيين، ومُحرمة على العبـــيد والمحـــررين. وفي القرن السابع ق.م، وبعد دمار صيدا وخضوع صور لسلطة أشور بانيـــبعل، قدم الكثير من الفينيقيين إلى قرطاجة للاستقرار بها. ولقد تمتع هؤلاء القادمون الجدد بالحقـــوق المدنية والسياسية بسهولة(٧). كما تمتع بها الأجانب الذين أقاموا في المدينة بصفتهم سكاناً أحراراً وذلك مقابل الخدمات التي أدوها للدولة، كجنود في جيشها بشكل خاص(٨).

---

(٤) جان مازيل، المرجع السابق، ص ص ١٦٧، ١٦٨.

(٥) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ص ٢٢، ٢٤.

(٦) لبيب عبد الساتر، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٧) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ٧٨.

(٨) مادلين هورس ميادان، تاريخ قرطاج، (ترجمة:- إبراهيم بالش)، طبعة أولي، بيروت-باريس، ١٩٨١، ص ٧٦؛ انظـــر أيضا:- فرانسوا ديكريه، المرجع السابق. وأيضا:- Motley .M, Africa(Its Empires, Nations And People), Detroit, 1969, p.59 ;
www.en.wikipedia.org.carthaginian ethnicity and citizenship .

وهناك من يري أن المواطنة القرطاجية كانت مقتصرة على القرطاجيين ذوي الأصل الفينيقي [٩]؛ وأنها كانت ممنوعة على الحلفاء، حتى ولو كانوا من نفس الأصل. وكان هذا يعد عيباً خطيراً في نظام الحكم القرطاجي عانت قرطاجة منه كثيراً. ومن الجدير بالذكر، أن هانيبال حاول حل هذه المشكلة الخطيرة، لكنه فشل في ذلك بسبب الأوضاع السياسية السائدة في قرطاجة في ذلك الوقت[١٠].

وبعد أن استعرضنا بعض الصفات المميزة للمجتمع القرطاجي عامة، ننتقل إلى المواطن القرطاجي وصفاته، وكيف كانت حياته اليومية؟ وما هي أهم ملامحها وخطوطها العامة؟.

كان الفينيقيون عامة قصيري القامة نسبياً، فمتوسط طول الرجل منهم كان ١,٦٣م، والمرأة ١,٥٧م [١١].كما أن الهياكل العظمية المكتشفة في مقابر قرطاجة كانت تتميز عامة بالنحافة الشديدة والوجه القصير[١٢].

و المواطن القرطاجي متدين بطبعه، يبدأ يومه بالصلاة ثم التوجه إلى عمله. وكانت الصلاة ثلاث مرات: الضحى والظهر والغروب. وهي صلاة بدون مواكب ولا جماعة ولا أضاح، بل الصلاة هي نجوى وإيمان ذاتي وفردية. والقرطاجي يصلي في أي مكان، في بيته، في متجره.....الخ، بصمت وتأمل وتقوي[١٣].

ولقد تعلم الفينيقيون عن القبارصة بناء الحمامات وتجهيزها تجهيزاً متقنا، خاصة فيما يتعلق بالتسخين وجريان الماء وصرف المياه غير المرغوب فيها. وكانت بيوت الأثرياء بقرطاجة مجهزة بحمامات فخمة وأحياناً بحمامات خاصة للسباحة. وكانت هناك أيضا حمامات عامة منها ما كان مخصصاً للطبقة الأرستقراطية ومنها ما كان مفتوحاً لعامة الناس. وكلاً من الرجال والنساء استخدم العطور وقد وجدت بجميع القبور قناني صغيرة معدة لحمل العطر[١٤].

ولقد أثمرت الاكتشافات الأثرية أيضا عن الكثير من المحكات للجسم من البرونز، والتي كانت تستخدم لتخليص الجسم من العرق والأتربة بعد حمام ساخن. كانت المواد

---

(٩) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ص ٢٥٨- ٢٥٩.

(10) Picard. G & C, Op. Cit., p.63.

(١١) يولي بركوفيتش تسيركين، المرجع السابق، ص ٦٧.

(12) Picard. G&C, Op. Cit., p.129.

(١٣) شوقي خير الله، المرجع السابق، ص ص ٨٩، ٩١.

(١٤) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٦٢.

العطرية تذاب في الزيت، لتحل محل الصابون[١٥]. وكان معظم الرجال البالغين يرخون لحاهم، ويبقون شعرهم قصيراً[١٦]. ومع ذلك كان القرطاجيون يملكون شفرات الحلاقة بل كانوا يعتبرونها من الأشياء المقدسة. وكان الرجال والنساء، على حد سواء، يعتنون كثيراً بشعورهم ويستخدمون أمشاطاً من العاج التي وجد الكثير منها في المقابر القرطاجية(انظر شكل رقم ٤) . ولقد اعتقد القرطاجيون، مثل السكان المحليين، بوجود قوة خاصة مركزها شعر الرأس وتتمركز بصفة خاصة في خصلة بأعلى الرأس. وكانت نساء قرطاجة فخورات جداً بطول شعورهن التي ضحين بها في حصار سنة ١٤٩ ق.م لصنع أوتار القسي اللازمة للحرب وكن يستخدمن دبابيس للشعر من العاج أو العظم لشد شعورهن[١٧].

وفي القرن السادس ق.م اتبعت المرأة القرطاجية الموضة المصرية، حيث الشعر كان مسترسلاً على الظهر وراء الأذن وكان ينسدل في خصلات سميكة على جانبي الوجه. وفيما بعد التزمت بالطرز اليونانية[١٨].

أما المرايا القرطاجية، فكانت شائعة الاستخدام ولقد تم العثور عليها في جميع القبور وهي عبارة عن قرص من البرونز طُلي أحد وجوهها بطبقة من الفضة وكان البعض منها ذو مقبض من الخشب أو العظم أو العاج، وبعضها الآخر مزود بثقب، وكان بدون شك مجهزاً بسلسلة.[١٩] ولكن يبدو أن المرايا البونية كانت أقل زخرفة من مثيلاتها الاتروسكية. ولقد اهتمت المرآة القرطاجية بجمالها وزينتها كثيراً. فكانت تستخدم الحمرة للخدود والشفاه. ولقد تم العثور على الكثير من أدوات التجميل في المقابر القرطاجية، من ذلك مدهنة من الرصاص تنقسم إلى ثلاثة أقسام كل واحدة منها مخصص لنوع من الأصباغ (انظر شكل رقم ٥). كما استخدمت الأصداف أيضا، حيث كان يتم تثبيت الشطرين معاً بواسطة سلسلة من الفضة، ومازالت بعض هذه المحار تحمل أثر الأصباغ الحمراء[٢٠] (انظر شكل رقم ٦). ولقد استخدمت المرأة أيضا الكحل، كما أكثرن من استخدام الحلي بشدة مثل الأساور من اللؤلؤ والجعلان وأساور من الفضة والعاج، بالإضافة إلى الخواتم الفضية والذهبية وأقراط ذهبية

---

(15) Picard. G&C, Op. Cit., p.131.

(١٦) مادلين هورس ميادان، المرجع السابق، ص ٧٧ ؛ انظر أيضا:- توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ١٩.

(17) Picard. G&C, Op. Cit., pp. 131-133. انظر أيضا:-أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٦٢ .

(18) Ibid, p.133.

(١٩) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٠٤.

(20) Fantar. M.H, Op. Cit., pp.179-181.

علـى شـكل حرف T وعقود من الذهب والفضة[٢١]...الخ. وظل الرجال والنساء مدة طويلة يضعون حلقات في أنوفهم[٢٢].

ولقـد مارس القرطاجيون رسم الوشم وهي عادة بربرية الأصل لم تكن مجرد زينة أو زخـرفة، بـل كانت ذات صفة دينية لأن أشكال الوشم تعني رسوماً لرموز إلهية تؤدي وظيفة الحمايـة مـن القوي الشريرة[٢٣]. وكانت أيضا تشير أحياناً إلى أن صاحب الوشم ينتمي إلى جماعة ما. ويبدو أن الوشم القرطاجي كان يمثل المغزى المزدوج للحماية والانتماء[٢٤].

الملبــس:-

تمـسك القـرطاجيون بأنمـاط الملابس التي كانت سائدة في بلادهم الأم، حتى نهاية حـضارتهم. وكـان زيهم شرقياً بحتاً، حيث كانوا يرتدون دائماً جبايا طويلة من الصوف ذات أكمام. وكان هناك رداء آخر طويل وثقيل يدور حول الرقبة ويشد على الكتفين بأبازيم ويتدلى علـى الجانبـين، كان يستخدم عادة للحماية من البرد والمطر. ولقد وجد أيضاً نوع من الشال يوضع فوق الصدر، ويغطي الظهر كلية. أما الأقدام فكان يتم حمايتها بواسطة إما صنادل، أو أحذية عالية، أو نعالاً.

أما المرأة القرطاجية، على عكس الرجال، فلقد استخدمت الموضات والطرز اليونانية. فمنذ بداية القرن السادس ق.م تقريباً، كن يرتدين أزياء مطرزة مشابهة لتلك التي كانت تلبسها المـرأة الأيونية[٢٥]، وكان عبارة عن رداء قصير الأكمام، مشدود عند الخصر، ووشاح ذوي ثنيات تهبط حتى الأقدام تقريباً.

وكـان القرطاجيون لا يخرجون مكشوفي الرأس، بل كانوا يغطون رؤوسهم إما بقبعة مخروطية أو بقلنسوة تشبه الطربوش التركي والشاشية التونسية[٢٦].

وكانـوا أيـضا يغطون رؤوسهم بضمادة يربطونها أحياناً فوق الجبين ويرخونها على أكتافهم مثلما يفعل المصريون، أو يلفونها حول رؤوسهم في شكل العمامة[٢٧].

---

(٢١) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٢٢) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٢٣) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ٢٢٨.

(24) Picard. G&C, Op. Cit., p.134.

(25) Ibid, pp.135-138.

انظر أيضا:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ١٦٣، ١٦٤.

(٢٦) مادلين هورس ميادان، المرجع السابق، ص ٧٧.

(27) Picard. G&C, Op. Cit., p. 136 ;

انظر أيضا:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٦٤.

الأسـرة:-

وبعـد أن تحدثـنا عن زينة المرأة وحليها وملبسها، يجب علينا أن نشير إلى وضعها ومكانتها في المجتمع والأسرة القرطاجية.

يـبدو أن المرأة القرطاجية قد تمتعت بمكانة عظيمة ومركز مرموق في مجتمعها. فقد كانـت حرة غير مستعبدة ولا محتقرة. فهي تعد ملكة غير متوجة في بيتها ومحترمة لحرياتها واسـمها ونسبها. وكان النوميديون يفخرون بمصاهرة نساء قرطاجة. ولقد ورد ذكر اسم كثير مـن النـساء ارتـبطن بمصير الدولة مثل إليسا، مؤسسة المدينة، وزوجة هاسدروبال ، التي فـضلت أن تلقـي بنفـسها في النيران على أن تقع أسيرة في يد الرومان. وهناك دليل على شـجاعة المـرأة القرطاجية وتضحيتها. ففي أثناء الحرب البونية الثالثة تبرعن بشعورهن من أجـل صنع أوتار القسي، بالإضافة إلى جواهر وحلي تبرعن بها للخزانة العامة. كما شاركن في تصنيع الأسلحة اللازمة للحرب.

وهـناك مـن يـري أنهـا كانت تشتغل علنا وتنتج وتدير مؤسسات، وتسافر وتسعي وتقرر(٢٨). وكانت نساء الطبقة الأرستقراطية، اللاتي تلقين الكثير من التعليم، قادرات على أن يصبحن كاهنات صاحبات سيطرة كاملة على كل موظفي المعبد رجالاً ونساء على حد سواء.

وكـان تعـدد الزوجات ممنوعاً في قرطاجة. ويبدو ذلك من طبيعة القبور التي يعود عهـدها إلـى أقدم الفترات، والتي أعدت بصورة دائمة تقريباً لكل اثنين(٢٩). لكن عادة الزواج بالأجنبـيات كانـت منتشرة بشدة في المجتمع؛ فلقد تزوج كل من هاسدروبال وهانيبال، عندما كانـا فـي أسبانيا، بنساء محليات، وكانت الزيجات المختلطة في الطبقة العليا مع الليبيين أمر شائع جداً، مثل صوفونسبة التي تزوجت من سيفاكس النوميدي(٣٠). وكان أبناء هذه الزيجات، عامـة، يعـدون فـي المرتبة الثانية بعد الأبناء المنحدرين من أبوين قرطاجيين، كما لم يكن أمامهم فرص للتقدم والترقي. على أن هذه القاعدة كان لها شواذ، فكثير من أبناء هذه الزيجات المختلطة بلغ أعلي المناصب والقيادات مثل عائلة بارقا بعد هاميلكار نفسه، حيث كانت زوجته إيبيرية الأصل(٣١)، وتوطيداً للعلاقات السياسية الجديدة.

أمـا الطفـل القرطاجـي، فقـد حظي بعناية كبيرة، ومما يدل على ذلك كثرة النصب والتماثـيل التـي تمـثل الأمـومة والاهتمام بالطفل، فعلي سبيل المثال يوجد تمثال من معبد

---

(٢٨) شوقي خير الله، المرجع السابق، ص ص ١٤٧- ١٤٩.

(٢٩) مادلين هورس ميادان، المرجع السابق، ص ٧٧.

(30) Harden. D, The Phoenicians, p. 81.

(31) www.en.wikipedia.org,carthaginian ethnicity and citizenship.

تينيسوت(*Thinissut*) يمثل امرأة شابة تستعد لإرضاع طفلها، الذي تضمه بين ذراعيها، كما كان لديهم آلهة مهمتها الخاصة مراقبة عملية ولادة الطفل.

ويبدو أن الأطفال حديثي الولادة كانوا يتعرضون لعملية الختان وهي عادة استعارها الفينيقيون من المصريين. كما يعتقد أن القرطاجيين قد أقلعوا عن ممارسة عادة الإخصاء(٣٢).

وكان هناك اهتمام كبير بتوفير كل ما يحتاج إليه الطفل من أدوات ودمي وأواني خاصة بطعامه وشرابه، فعلي سبيل المثال تم العثور على كثير من زجاجات إطعام الأطفال، وعلي أحد هذه النماذج توجد علامة تانيت على جانبيه، ولابد أنها كانت من أجل حماية الطفل حيث تعد تانيت ربة الخصب و العمليات المتصلة بها من زواج وإنجاب وتؤرخ هذه الزجاجة من القرن الرابع إلى الثالث ق.م ومحفوظة في متحف باردو (*Bardo*)، ولقد تم العثور عليها في قبر بوني(٣٣) (انظر شكل رقم ٧).

ولقد اهتم القرطاجيون بإعطاء الطفل اسم ذو صفة دينية. وكثير من هذه الأسماء كانت تؤكد الاعتماد على الآلهة مثل عبد إشمون (*Abd eshmun*)"خادم إشمون" ، إشمون ياتون (*Eshmunyaton*) "إشمون قد أعطاه". وهناك أسماء أخرى تشير إلى روابط عائلية مثل: هيملك (*Himilk*) "أخو ملك"، بات بعل(*Bat baal*) "ابنة بعل" ....الخ(٣٤). أما اسم هانيبال (*Hannibal*) فيعني "هو الذي يتمتع بنعمة وفضل بعل"، ومعني هاسدروبال (*Hasdrubal*) "هو من حصل على مساعدة بعل" ، وهاميلكار هو في الأصل، بدون تحريف، عبد ملقرت "وهب لخدمة ملقرت".(٣٥)

الأثاث:-

كانت المنازل القرطاجية بسيطة جداً وضيقة، لذلك كانت تزدحم بالسكان فكان من الممكن أن تضم الحجرة الواحدة أسرة كبيرة تفترش أرضها عند النوم. ولكن منازل الأثرياء في حي ميغارة (ميجارا) كانت تدل على الترف والثراء الفاحش وروائع الفن. فتري في هذه البيوت آثار الحضارتين: المصرية واليونانية(٣٦).

لم تكن المنازل القرطاجية تضم دائماً أثاثاً كثيراً. وفي بيوت الطبقات الأفقر تم العثور على القليل من الجرار الكبيرة فقط. وكانت تستخدم بدلاً من الدواليب لحفظ الطعام، وحتى الملابس.

---

(32) Picard. G&C, Op. Cit., pp.149,150.

(33) Khader. A & Soren. D, Op. Cit., p. 45.

(34) Moscati. S, Op. Cit., p. 136.

(35) Lancel. S, Carthage (A History), (Translated by:- Antonia Nevill), 1st ed., Oxford, 1997, p. 194.

(٣٦) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ص ٢٠، ٢١.

ولقد كشفت التنقيبات الأثرية الحديثة عن مساكن معاصرة للحروب البونية كانت تحتوي على جرة كبيرة تقف في وسط الغرفة الوحيدة.

ومما هو جدير بالذكر أن الأدوات القليلة المنزلية الضرورية التي كان يحتاج إليها الناس الفقراء كانت جميعها مصنوعة من الفخار مثل: الموقد، وتم استخدامه من أجل الطهي والتدفئة في أيام الشتاء الباردة(٣٧). وكانت البيوت تضاء في الليل، بمصابيح فخارية شبيهة بالفناجين المسطحة، ولها عنق أو عنقان يدخل فيهما الفتيل(٣٨). كما كانت الجرة تستخدم في حمل الماء.

وكان الفخار هو السند الرئيسي للبيت القرطاجي، لأنه رخيص وسهل الاستبدال. أما القوم الأكثر ثراءاً فكانوا يستطيعون اقتناء السجاد، والستائر، بالإضافة إلى الصناديق الجميلة المصنوعة من خشب الأرز، وفيها يتم حفظ المجوهرات ومن المحتمل أن رب الأسرة كان ينام عليها. وفي يوم ما يصير هذا الصندوق تابوت لصاحبه عند مماته(٣٩).

وفي الفترة القرطاجية المتأخرة، اقتني المواطنون الأكثر ثراءاً قطع من الأثاث اليوناني، مزينة بالبرونز والفضة والذهب، تم صنعها في الشرق على يد فنانين مشهورين(٤٠).

الطعام:

لقد اعتمد القرطاجيون على الحبوب وزيت الزيتون في غذائهم بشكل أساسي، مثل بقية شعوب البحر المتوسط. وكانوا يصنعون نوعاً من العصيدة تسمي ***(puls punica)*** (٤١).

وكان الحلوانيون بقرطاجة يتمتعون بشهرة كبيرة فكانوا يشكلون أعمالهم في قوالب من الفخار لها أشكال مختلفة مثل الأسماك والحيوانات أو حتى على شكل رجل على ظهر حصان. وكانوا يزرعون نوع قوي من الثوم، استخدموه لدرجة الإفراط. وكانت أكثر الخضروات انتشاراً عندهم الكرنب، والحمص، والخرشوف. ومثل معظم الساميين لم يأكلوا لحم الخنزير ولكن يأكلون لحم الكلاب وهي عادة استنكرتها عليهم الشعوب الأخرى.

وكانت الأسماك من المواد الغذائية الهامة خصوصاً بالنسبة للفقراء وذلك لكثرتها بالسواحل التونسية من بوري، وقاروص، وسمك موسى، والتونة التي اشتهرت بها بلدة مسيوة

---

(37) Picard. G & C, Op. Cit., pp.142,143.

(٣٨) يولي بركوفيتش تسيركين، المرجع السابق، ص ٧٦.

(39) Picard. G & C, Op. Cit., pp. 144,145,146.

(40) Ibid, p.146.

(٤١) وكانت طريقة إعدادها كالتالي:-" ضع رطلاً من قمح مطحون خشن في الماء وانقعه؛ ثم أضف ثلاثة أرطال من جبن طازج، ونصف رطل من العسل وبيضة واحدة. اخلط الجميع ثم اطبخه في إناء جديد" . انظر:-
Ibid, p. 147 .

(Missua) (سـيدي داود الآن). وكانــت تــوجد مخازن لتمليح السمك بالبيبان*(Biban)* في الجـنوب، وعلـي طـول كـل ساحل مزاق *(Byzacene)*. وكان الخمر المشروب المفضل والمحبب لديهم(٤٢).

الطـــــب:-

لـم يجهـل القرطاجيون علوم الطب. فنحن لدينا العديد من النصب التذكارية لأطباء. لكـن يبدو أن معرفتهم لم تكن بعيدة عن تلك التي للعرافين والسحرة. وليس لدينا أية معلومات عـن الأدويـة أو الوصـفات التي كانوا يصفونها لمرضاهم، فلم يبق لنا إلا بعض الوصفات البيطـرية التـي ذكـرها لنا ماجو. ومن هذه الوصفات وصفة لمداواة حصان يعاني من داء الربو، فلقد نصح ما جو بضرورة إعداد خليط من الزعفران، والمر، و الفلفل الأبيض، وزيت بـتلة الـورد والعدس وذلك بكميات محددة بعناية: ثم يتم طبخ الخليط، وإضافة بيضة واحدة. ويتم تقسيم المزيج الناتج على عشرة أيام على الأقل(٤٣).

وكـان الإلــه أشمون (إله صيدا) شفيع المرضي. ولقد اعتاد كهنة المعبد على مراقبة ورعايـة هـؤلاء المرضي فاكتسبوا خبرة في هذا المجال. وساد اعتقاد بأن المرض ناتج عن قوي غير طبيعية، فيقتضي إذن لشفاء المريض تدخل قوي غير طبيعية يتحلى بها كهنة معبد أشـمون. ولكن فيما بعد انفصل الطب عن الكهانة، ولذا حاول الأطباء الاستئثار بهذه المهنة. ولـذلك نجـدهم يضنون بأسرارها، لا يلقنونها إلا لأبنائهم وشكلوا طبقة اجتماعية مستقلة لها مركزها الاجتماعي واحترامها(٤٤).

وهكـذا عـاش المجتمع القرطاجي وسط شعوب تكن له العداء والكراهية والحقد مما جعلهـم يحاولون تشويه صورته في كتاباتهم، خاصة الكتاب اليونان والرومان، مما قد أضفى بعـض الغموض على حياة هذا الشعب، وفي أحيان أخرى أضفى بعض من البشاعة، خاصة فـيما يـتعلق بموضـوع القـرابين البشرية، مما يوجب توخي الحذر عند الاعتماد على هذه الكـتابات. ويـبدو أن المجـتمع القرطاجـي لم يعاني من صراع طبقي خطير، إذ كان الغني والفقير يستفيد من ثراء المدينة وازدهارها، وإن كان بدرجات متفاوتة. إنما الخطر الذي عاني مـنه المجـتمع كـان نابعـاً مـن الشعوب الخاضعة، خاصة الليبيين والأسبان، حيث كانت

---

(42) Ibid, pp.147,148 ;

انظر أيضا:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٦٥.

(43) Ibid, p. 156.

(٤٤) لبيب عبد الساتر، المرجع السابق، ص ص ١١٣، ١٢٥.

الالتـزامات المفروضـة علـيهم كثيـرة وثقيلة بالإضافة إلى رفض قرطاجة وتعنتها في منح المواطنة القرطاجية للشعوب الخاضعة تحت سيادتها.

ثانياً:- المظاهر الحضارية

الحـضارة هـي النتاج البشري لأي أمة من الأمم من فن عمارة وموسيقي وغيرها. ولكل أمة حضارة ذات سمات معينة تميزها عن غيرها من الأمم وأهم هذه السمات:-

أ-الفـن:-

يعـد الفـن القرطاجي عامة مزيجاً من فنون عديدة أثرت فيه بشدة. ويمكن تقسيم هذه الفنون إلي مجموعتين:-

الأولـى:- سـادت فـيها المؤثـرات الشرقية السائدة في الوطن الأم في فينيقيا؛ حيث كانت قـرطاجة ما تزال مرتبطة بوطنها الأصلي وتابعة له. وكان الفن المصري على قائمة هذه المؤثرات بالإضافة إلى بعض المؤثرات السورية ومؤثرات بلاد ما بين النهرين. ولقد استمر هذا التأثير الشرقي تقريباً منذ البداية حتى القرن الخامس ق. م.

الثانـية:- سـادت فـيها المؤثرات اليونانية بشكل أساسي، بالإضافة إلى بعض المؤثرات المحلية مثل الإيبيرية والبربرية وغيرها[٤٥].

وسـنري عـند الحديث عن المجالات المختلفة للفن القرطاجي مدي التأثير المصري واليوناني فيها على النحو التالي:-

الفخـار:-

يعـد الفخـار من السلع الهامة على الإطلاق في حياة المجتمع القرطاجي، حيث كان رخـيص الـثمن، لذلك وجد أسواق كبيرة له؛ بالإضافة إلى أنه كان متعدد الاستخدامات فإلي جانـب أغـراض الحـياة اليومـية من صحون وأكواب وجرار........الخ، تم أيضا تصنيع أغـراض أخـرى تـستخدم فـي الطقـوس الدينية مثل الأقنعة الفخارية والتمائم والجعارين والمـرمدات التي تضم عظام الموتى. كما تم تصنيع حلي رخيصة أيضا من الفخار ومصابيح وتماثيل صغيرة وكبيرة من الفخار. بيد أن صناعة الفخار في قرطاجة كانت تخدم في الأساس هدفين هامين:-

---

(45) Moscati. S, Op. Cit., p. 146.

وحـول هذا الموضوع، انظر أيضا:- عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣١٩ ؛ انظر أيضا:- فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٠٦.

الأول: هو تلبية حاجة السوق المحلية.

الثانـــي: خدمـــة الـــتجارة الخارجية والتصدير حيث تعد الأوعية الفخارية أفضل أوعية لنقل الزيوت والخمور(٤٦).

وعن طريق تتابع صناعة الفخار ونماذجه يمكن معرفة الكثير من المعلومات والحقائق التاريخـــية؛ فمـــثلاً لا يوجد دليل أفضل على التبعية الاقتصادية القرطاجية لصور، على الأقل أثـــناء القـــرون الأولى من نشأتها، من حقيقة أن الآنية الفخارية التي كانت تستخدم في الحياة اليومية كانت تأتي من صور، على الرغم من القيمة الدنيا لمثل هذه السلع. فلقد تم العثور على الفخار الصوري في الطبقات السفلي من التوفيت(٤٧).

وعلي الرغم من ذلك، فلقد تعرض الفخار القرطاجي لكثير من النقد. فقد رأي البعض أنه كان خشنا وفقيراً، وهذا كان ناتجاً عن تقليد لا يتصف أو يتميز بأية صفات خاصة به(٤٨). بينما رأي البعض الأخر أنه كان في غاية السوء والفظاظة، لدرجة أنه لا يصلح إلا للتبادل مع الأمم البدائية البربرية. كما أن الصناع القرطاجيين لم يظهروا أي تقدم فني أو أية مهارة عالية أو أية قدرات إبداعية في هذا المجال(٤٩).

وكـــان الطـــين الجـــيد اللازم لصناعة الفخار يأتي من شبه الجزيرة القرطاجية نفسها شـــمال أراضـــي الدفن بالقرب من محطة هاميلكار حيث توجد أجراف صخرية حمراء اللون مرتفعة فوق الشاطئ، وكانت هذه الأجراف تتكون من رمل مختلط مع طين أحمر فاتح اللون. وكـــان هـــناك راســـب آخر على المنحدر الجنوبي لتل سانت لويس. وعلي الرغم من أن هذا الطـــين كان ذا جودة ممتازة، فإنه من الواضح أنه كان قليل الاستخدام جداً، خوفاً من تقويض أساسات القلعة(٥٠). كما كان يوجد الطين الجيد أيضا بالقرب من سيدي بو سعيد(٥١).

وقد اكتشف جوكلير *(Gauckler)* حي الخزافين في درمش سنة ١٩٠١ قرب كنيسة الدويمس المشيدة فوق مقبرة بونية ترجع إلى القرن السابع والسادس ق.م حيث تم العثور على فـــرن كامل سليم على حالته، مملوء بالآنية. وكانت هذه الآنية من أنواع متأخرة، مما يؤكد أن هـــذه القدور ترجع إلى سنة ١٤٦ ق.م وأن الفشل في إخلاء الفرن كان بسبب وصول القوات

---

(٤٦) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص١١٦.

(47) Picard. G & C, Op. Cit., p. 108.

(48) Carpenter. R, Op .Cit., p. 38.

(49) Hutchinson's History Of The Nations, Op. Cit., p. 325.

(50) Picard. G & C, Op. Cit., p. 109.

(51) Harden. D, The Phoenicians, p. 154.

الغازية. وكان ارتفاع هذا الفرن بالضبط ٢٠ قدم، و١٣ قدم منه مدفون تحت مستوي الأرض. وكان يتألف من موقد هلالمي الشكل وفرن كبير أسطواني من مستويين:

الأول: مركزي في الوسط ترتب فيه الأواني المعدة للحرق، فتوضع في الطبقة السفلي أو في الطبقة العليا حسب درجة الحرارة التي تتطلبها تلك الأواني.

الثاني: وهو يدور حول الأول ويحيط به وهو معد لانجذاب الهواء، ويكدس فيه الفخار الخشن.

وكان يتم إيقاد الفرن بالحطب، وتستدعي هذه العملية مهارة خاصة. وكانت ألسنة النيران تلفح الأواني مباشرة، ويجب على الصانع المشرف على الفرن: أولاً أن يوازي ويعادل انبعاث الحرارة إلى المنتجات الموجودة في الفرن حسب الحاجة وحسب قواعد الصناعة.

وكان الخزاف القرطاجي يستخدم عجلة بدائية من الحجر تتكون من كتلتين: كتلة سفلي هي القاعدة، في وسطها حفرة منقورة، وكتلة عليا هي رأس لها ساق في أسفلها تدور في حفرة القاعدة. وكانت هذه الآلة تحتاج إلى عاملين لتشغيلها- الأول يجلس القرفصاء ويقوم بتدوير العجلة بيديه بسرعة كبيرة بينما الثاني يقوم بتشكيل الطين وهو واقف حتى يعطيها الشكل المرغوب. وكان يتم وضع الطين في أحواض كبيرة ثم يعجن بالأقدام حتى يصير لين وسهل التشكيل[٥٢].

وكانت الأواني توضع على أرفف في غرفة تمهيد لحرقها، ويفصل بين كل قطعة وأخرى مسافة لمنع التصاق القطع بعضها ببعض. وتتصل غرفة التخزين بالورشة عن طريق ممر ضيق. حيث تم العثور على مجموعة من القوالب وعلي قدور تحتوي على صبغة بيضاء أو بنية اللون من أجل تزيين الأواني. وبعد أن يتم تشكيل الأواني توضع في الشمس لمدة ساعة أو اثنين لكي تجف، ثم تحفظ بعد ذلك عدة أسابيع في غرفة رطبة للتخلص من الماء المستخدم. لأن إذا تم حرقها سريعاً، ربما قد تتشقق. وكانت الأواني توضع في الفرن لمدة ثلاثة أيام، الأول من أجل الحرق، و اليومين الآخرين من أجل التبريد[٥٣].

وبعد أن أوضحنا بعض جوانب هذه الصناعة الهامة، يكون من المناسب الإشارة إلى بعض منتجات تلك الصناعة الهامة، وهي منتجات ذات صفة نفعية مادية وأخرى ذات صفة دينية.

---

(52) Ibid, p. 153.
- CF. Picard. G & C, Op. Cit., pp. 109 , 110.

انظر أيضا:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ١٥٣، ١٥٤.

(53) Picard. G & C, Op. Cit., pp. 110, 111.

تتـــصف المـــصابيح الفينيقية عامة بالتشديد على الانتفاع أكثر من الجمال، حيث كانت بـــسيطة جـــداً وتتكون من طبق من الخزف، غير مزخرف، ذا فتحة أو اثنتين من أجل الفتيل. ولقـــد ظل هذا النمط سائداً حتى بعد أن قدمت التجارة الهللينستية أنواعاً أخرى أكثر نفعاً(٥٤). وفـــي القـــرن الرابع تقريباً، قام بعض الخزافين بإغلاق وعاء الزيت لمنعه من الانسكاب عند الحمـــل. لكـــن هذا الشكل كان أقل أناقة من الشكل اليوناني للمصابيح، التي كانت ذات خزان مـــستدير مغلق من أجل الزيت، وبه فتحة من أجل ملء الزيت وعنق طويل مجوف. هذه فيما بعـــد تـــم اســـتيرادها بكميات كبيرة من رودس (*Rhodes*) والإسكندرية قبل سقوط قرطاجة بقـــرنين. كما عمل الخزافون القرطاجيون على نشر وتعميم هذا النوع عن طريق صنع أعداد كبيـــرة من نسخ مقلدة أقل مرتبة من الأصل(٥٥). وتزين علامة تانيت غالباً الأجزاء العليا من هذه المصابيح(٥٦).

أمـــا الأقنعة، فتعد من رموز الإبداع الفني القرطاجي. ويمكن تقسيمها إلى أقنعة نسائية وأقـــنعة رجالية. وكانت المجموعة الأولى على شكل تماثيل نصفية نسائية ذات ملامح متشابهة تقـــريباً:- "**فالوجه مستدير بيضاوي، والعينان لوزيتان، والأنف مستقيم وطويل قليلاً، والفم يمـــيل إلـــى الابتـــسام، والشعر مجعد عند الجبهة ومنسدل إلى خلف الأذنين، ويزين الوجه بعلامـــات زرقـــاء أو حمراء ربما كانت وشوماً كما أنه يظهر باسماً طلقاً ويوحي بالتفاؤل** " (انظر شكل رقم ٨).

ويـــرجع عهدها إلى القرنين السابع والسادس ق.م، ومصنوعة من الفخار الأحمر(٥٧). أما أقنعة الرجال فكانت تمثل وجوهاً تعلوها تكشيرة مرعبة، وأشكالاً مشوهة تعلوها ابتسامات ســـاخرة، متهكمة وهازئة، وغالباً ما تكون عينا القناع على شكل هلال مقلوب، ويمتلئ الخدان بالندوب، وتعلو جبهة القناع أشكال متصلبة(٥٨).

ويبدو أن الهدف من وراء هذه الأقنعة ذات الأشكال المخيفة إبعاد القوي الشريرة ودفع خطـــرها. وكان يرتديها الإنسان، أو توضع في المنزل أو القبر، ولذلك كان الخزافون يقومون بثقبها بشكل يسمح بتعليقها. ويعتقد أن هذه الأقنعة ترجع في أصولها إلى أفريقيا الزنجية نتيجة الاتصال التجاري والحضاري معهم (٥٩) (انظر شكل رقم ٩).

---

(54) Harden. D, The Phoenicians, p. 152.

(55) Picard. G & C, Op. Cit., pp. 143, 144.

(٥٦) مادلين هورس ميادان، المرجع السابق، ص ١١١.

(٥٧) نفسه، ص ص ١١٢، ١١٣.

(٥٨) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٥٩) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ٢١٨.

وهـــناك مجموعة أخرى من أقنعة الرجال تضم وجوهاً ضاحكة فرحة. ويوجد وجهان متـــشابهان، يمـــثلان رجـــل هادئ، وجهه مستطيل مزين بلحية، وأنفه مستقيم طويل، وعيناه لوزيتان، وفمه كثيف، وشعره مجعد. ويغلب على هذا الوجه مسحة ذكاء ومكر. ويري البعض أن ملامـــح هـــذا القناع ليست إبداعا فنياً و فكرياً خيالياً فحسب، بل أيضا صورة واقعية لرجل قرطاجي.

ويـــوجد بأنـــف هـــذين القناعـــين حلقـــة[٦٠] (انظـــر شكل رقم ١٠). ومما هو جدير بالملاحظـــة، أن هذه الأقنعة قد ظهرت في كل من قرطاجة وسردينيا وإبيزا على حين لم يعثر علـــيها فـــي صـــقلية أو أسبانيا، وذلك لسبب غير معروف وهذه الأقنعة مثل التماثيل النصفية النسائية ترجع إلى القرنين السابع والسادس ق.م[٦١].

لـــم يعثـــر فـــي قرطاجة على منحوتات حجرية كبيرة الحجم في الطبقات الأولى من الحفائر. لكن عثر في هادروميتوم ***(Hadrumetum)*** على لوحة لم تكتمل في الطبقة الثانية (بـــين القرن الخامس وأوائل القرن الثالث ق.م) وهي تمثل نقشا على الحجر الجيري للإله بعل علـــى عـــرش محاط من كل جانب بنقش يمثل أبو الهول ويرتدي غطاء رأس مخروطي وله لحية وأمامه أحد العابدين، ويلبس رداء سامياً طويلاً[٦٢].

ولقـــد تـــم الكشف عن لوحات أخرى من الحجر الجيري منذ بداية القرن الثالث ق.م، وهـــي تعـــد بالآلاف في قرطاجة فقد عثر في سلامبو على النصف العلوي لمسلة نقش عليها كاهن وفوق رأسه قبعة مستديرة ويحمل في يده اليسرى طفلاً[٦٣].

التـــوابيـــت:

كانـــت التوابيت مستخدمة في قرطاجة من قبل البعض، حيث كانت عادة أثرياء القوم. وكان البعض منها بسيط مستطيل الشكل ذو سقف هرمي أو أغطية مسطحة. ولقد انتشر النوع الأول فـــي الفتـــرة المتأخرة في قرطاجة. كما انتشرت أيضا التوابيت الخشبية، وقد عثر على آثار بعضها في جبانة سانت مونيك[٦٤].

---

(٦٠) مادلين هورس ميادان، المرجع السابق، ص ١١٤.

(٦١) عـــبد الحمـــيد زايد، المرجع السابق، ص ٣٢٠. أنظر أيضا:- محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٧٢.

(٦٢) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٧٤.

انظر أيضا:- عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٢١.

(٦٣) عبد الحميد زايد، المرجع نفسه.

(64) Harden. D, The Phoenicians, pp. 111, 112.

ولقد تم أيضا اكتشاف مجموعة أخرى من التوابيت كلها من النوع الأنثروبويد (بمعني أن للميت تمثالاً منحوتاً على الغطاء). ولقد قدمت قرطاجة أربعة توابيت من هذا النوع، تم العثور عليها في جبانة سانت مونيك بدرمش، وترجع إلى الفترة الواقعة بين القرن الرابع وأول القرن الثالث ق.م. وكان التابوت الأول لكاهنة، احتفظت صورتها بكثير من ألوانها الأصلية وهي ترتدي زي يوناني مغطي من الوسط إلى أسفل بأجنحة طائر (يحتمل أنه النسر)، وهنا يظهر التأثير المصري حيث كان هذا الزي المجنح هو زي الإلهتين إيزيس ونفتيس المصريتين. وكانت تحمل في يدها اليمني مبخرة على شكل حمامة، والرأس يعلوه غطاء رأس مصري على هيئة صقر. وكان وجه السيدة يوناني خالص(٦٥) (انظر شكل رقم ١١).

أما التابوتان الثاني والثالث فكانا يمثلان كاهنين متشابهين تماماً فيما عدا أن أحدهما ليس له غطاء رأس، ويرتدي الآخر عصابة قصيرة، وكليهما كان ملتحياً وهيئتهما يونانية الملامح والزي. أم التابوت الرابع، فكان يمثل سيدة، وليست كاهنة. ويرجح أن هذه المجموعة قد تم صنعها على يد يونانيين عاشوا في قرطاجة وجعلوا ثقافتها الفنية يونانية(٦٦).

الزجاج:

كان الزجاج من الصناعات التي برع فيها الفينيقيون بشدة، ومع ذلك يرجع الفضل في اكتشافه إلى المصريين، لكن هم من قام بنشر هذا الاختراع. ويري البعض أن، إذا كان المصريون قد ابتكروا عجينة الزجاج القاتمة، فإن الزجاج الرقيق الشفاف من ابتكار الفينيقيين. وبلغ من درجة إتقان الفينيقيين لهذه الصناعة أن جعلوا منها فناً حتى وصل الفخر لديهم إلى توقيع أسمائهم على منتجاتهم الزجاجية (أمثال: جاسون و أرتاس). وفي الشرق كانت الكؤوس الزجاجية الفينيقية عادة تقدم للفائزين في المباريات الرياضية (٦٧).

ولقد تم العثور في قرطاجة على قوارير صغيرة صنعت من زجاج أزرق غامق معتم، مزخرفة بخطوط وزخارف هندسية صفراء لامعة. ويصف لنا جوكلير الطريقة التي يتم بها صنع هذه النماذج الملونة فيقول " **أن هذه الزخارف يتم الحصول عليها عن طريق إدخال ألوان داخل عجينة الزجاج. فتبدأ العملية بأن يقوم الصانع بتشكيل القارورة، بعد أن يتم تطعيمها بلون الخلفية، عامة قاتم (أزرق داكن قريب للسواد، أزرق نيلة) وأحياناً يكون فاتح**

---

(65) Ibid, p. 113.

انظر أيضا:- ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ص ٣٠٦، ٣٠٧.

(٦٦) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٧٨.

(٦٧) لبيب عبد الساتر، المرجع السابق، ص٩٧. انظر أيضا:- محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية، ص ص ٤٠١-٤٠٣.

(أبــيض فــضي). بعد ذلك، يتم عمل حزوز خفيفة على سطح القارورة بينما الزجاج مازال ســاخنا ولزجا، ويدخل في تلك الحزوز خيوطاً من لون زاهي (أحمر ، أو أصفر، أو ليموني، أو أبــيض، أو أزرق فيــروزي) ثم يتم إعادة صهر الزجاج مرة أخرى. عندئذ تتمدد الألوان بالحــرارة فتــصير منــصهرة فــي الــزجاج، ثم يتم صقله لاحقاً حتى تبدو الواجهة ملساء تماماً(٦٨)".

ولقــد تــم أيضا صنع تمائم صغيرة من الزجاج على هيئة دلايات صغيرة تمثل أوجه بــشرية مــتعددة الألــوان يرجع تاريخها في قرطاجة إلى القرن الرابع ق.م تقريباً. واستمدت جاذبيــتها مــن المزيج اللوني الرائع لمادتها الخام (التي ساد فيها الأزرق والأصفر فوق خلفية بيضاء) بالإضافة إلى التفاصيل الدقيقة لهذه الأقنعة الصغيرة جداً.

ويــذهب الــبعض إلى أن هذه الأقنعة كانت تمثل آلهة حماية للشخص الذي يرتديها، حــيث يمكــن التعــرف من خلال ملامحها على تانيت وبعل حمون وربما ملقرت أو إشمون. وهناك صفة مشتركة بين هذه الأقنعة جميعاً- ألا وهي الحجم الكبير والضخم لعيونها البارزة، مع حدقة منبسطة، حيث تعطيهم قوة سحرية. وبذلك كانوا يقومون بمهمة الحماية الموكلة إليهم ســواء في حياة الشخص أو في قبره بعد موته. وكان يتم ارتداء هذه الأقنعة الزجاجية كقلادة حول العنق(٦٩) (انظر شكل رقم ١٢).

ولقــد تــم أيــضا العثور على قوارير تمثل إله النيل عند المصريين (حابي)، أو قرد يجلــس القرفــصاء ويحمــل إناءاً بين قدميه. وكان يتم أيضا صنع خرز يشبه العقيق، وكان يــستخدم فــي صــنع القلادات وغيرها، بالإضافة إلى صنع جعارين رخيصة ومجموعة من التمائم من الزجاج(٧٠) .

العــاج والعظــم:

يــبدو أن صناعة العاج كانت منتشرة في فينيقيا وقرطاجة، كما أنها كانت على درجة جيدة من التقدم والابتكار (خاصة في الوطن الأم). وكانت قرطاجة تملك مزارع الفيلة الخاصة بهــا في شمال أفريقيا، خاصة بعد أن تم استخدام الفيلة بكثرة في الحروب. ولقد ازدهرت هذه الصناعة في قرطاجة بحلول القرن السادس ق.م.

ويدخل العاج في كثير من الأشياء مثل تزيين الأبنية والأثاث، أو لصنع تماثيل أو سلع صغيرة مثل الأمشاط، وصناديق المجوهرات، ودبابيس الشعر، وبعض الحلي(٧١).

---

(68) Picard. G & C, Op . Cit., p. 114. انظر أيضا:- أحمد صفر،المرجع السابق، ص١٥٥.

(69) Lancel. S, Op. Cit., pp. 217, 218.

(70) Picard. G & C, Loc. Cit.

(71) Harden. D, The Phoenicians, p. 156.

ولقــد تــم أيــضا استخدام العظم (مثل العاج) في صناعة كثير من الأغراض السالفة الذكــر، حــيث أنه لم يكن يختلف كثيراً (من حيث الشكل الخارجي) عن العاج، بل كانا أحياناً يصعب التمييز بينهما. ولقد اكتشف سنتاس (*P.Cintas*) في أوتيكا قبر صانع عظم يرجع إلى بدايــة القرن الرابع. وكان القبر يضم بعضاً من أدوات صناعته مثل مطرقة، وبلطة صغيرة، وســكينة حديديــة؛ بالإضــافة إلى بعض المواد الخام غير المصنعة مثل عظام مفصل أغنام، وحصي، وأصداف. كما وجد أيضا بعض من منتجاته مثل قلادات عظمية وغيرها[٧٢].

وغالــباً مــا يــدخل العــاج والعظــم فــي أثــاث القبور الأكثر قدماً (القرن السابع والسادس ق.م) في قرطاجة[٧٣].

وإلـــي جانب نحت العاج والعظم، استخدمت أيضا قشور بيض النعام في صنع كؤوس وأقراص مزخرفة بزخارف ملونة وليست منحوتة. ويبدو أن مثل هذه الأشياء لم تكن معروفة فــي الــشرق ولكــنها كانت منتشرة في قرطاجة فيما بين القرن السادس والقرن الثالث ق.م، بالإضافة إلى مواقع فينيقية غربية كثيرة. ولقد تم العثور في قرطاجة على كؤوس صنعت من بيض كامل أو ناقص. بيد أن أفضل الأكواب كانت تأتي من أسبانيا، وهي عادة تحمل زخارف هندسية وفنها عامة سيئ[٧٤].

ولقــد تــم العــثور علــى وجوه بشرية مرسومة على قشور بيض النعام في المقابر القــرطاجية، حــيث كانــت توفــر الحماية للمتوفى. وكانت هذه الوجوه تتميز بوجود عينين واســعتين. ويعــتقد أن هــذه العيون المفتوحة عن آخرها في ظلام القبر كانت من أجل طرد الأرواح الــشريرة . ولقــد كثر استخدام قشر بيض النعام في العادات الجنائزية القرطاجية في صــيغة أخــرى؛ حــيث كان يقطع إما إلى نصفين أو إلى ثلاثة أجزاء بالطول، وذات حواف محــزوزة، وبــذلك تتوفر بعض الأوعية الجيدة التي يستطيع المتوفى أن يستخدمها في حياته الأخرى[٧٥] .

الحلـــي:

يــري الــبعض أن صــناع الحلي القرطاجيين قد أتقنوا صناعتهم، مثل أجدادهم في فينيقــيا[٧٦]. ولقد اشتهر صانع الحلي القرطاجي باستخدام فني التحبيب و التطريق، حيث كانت

(72) Picard. G & C, Op. Cit., p. 115.

(٧٣) مادلين هورس ميادان، المرجع السابق، ص ١١٩.

(٧٤) محمد أبو المحاسن، المدن الفينيقية، ص ١٨١.

(75) Lancel. S, Op. Cit., pp. 218, 219.

(٧٦) تعلم الفينيقيون فن الصياغة من الميكينيين والمصريين القدماء. انظر :-عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٢٤.

الأســاور الذهبـــية، التـــي صيغت على شكل حلزون واحد أو اثنين، مزينة بحبيبات مع عقود وردية يضاف إليها أحياناً اللازورد. أما فن التطريق فكانوا يلجئون إليه عند الحاجة إلى صنع رقائـــق مـــن الـــذهب، ويقال أن هذه الرقائق كانت تستخدم من أجل عصابات الرأس. وكانت العقـــود تـــصنع غالـــباً مـــن كريات ذهبية وزجاجية مشكوكة بالتناوب مع تماثيل صغيرة من الخـــزف أو العظـــم أو العـــاج، وكانت هذه التماثيل الصغيرة تمثل عناصر مأخوذة من العالم المصري مثل الإله بتاح وإيزيس والصقر حورس (انظر شكل رقم ١٣) [٧٧].

وبالـــرغم مـــن تقدم القرطاجيين في فن الصياغة، إلا أنهم قاموا باستيراد بعض الحلي مـــن فينيقيا ومصر واليونان، ومنها مثلاً، الأحجار الكريمة المعلقة بسلاسل، والحلي البيضاوية الـــشكل المحفـــورة ذات الـــرموز الدينية مثل قارورة المعبد أو الهلال، بالإضافة إلى المشابك المزينة برسوم هندسية، والخواتم الذهبية ذات الفصوص المنقوشة والتي تمثل أختاماً أو أشكالاً حيوانية أو رسوماً لأبطال أسطوريين[٧٨].

ويري البعض أنه من الصعب التمييز بين الحلي الفينيقية الشرقية والغربية، حيث أنها جميعاً كانت من السلع الصغيرة التي يتاجر فيها التجار الرحالة من بلد إلى أخرى[٧٩].

وكانـــت حلقات الأنف من الموضات المثيرة للدهشة وكانت تسمي نيزيم (***Nezem***). وكانـــت الأقـــراط التـــي يعلقها الرجال والنساء شائعة جداً في كل القبور القرطاجية. وكانت البـــسيطة مـــنها عبارة عن حلقات ذهبية صغيرة؛ وأخرى تم إطالتها عن طريق إضافة دلاية علـــى شكل رمز الحياة المصري الفرعوني (عنخ)، كما وجدت أشكال أخرى مثل دلاية على شكل بيضة أو قد يتدلي من بعضها علبة صغيرة جداً مملوءة بخرز. ويبدو أن التيجان لم تكن علامة تميز طبقي، حيث تم العثور على بعضها في قبور أشخاص عاديين[٨٠].

ولقـــد تـــم العـــثور علـــى دلايات مستديرة بها رسوم متأثرة بالفن المصري القديم في ثـــاروس (*Tharros*) بـــسردينيا، حيث مثل عليها صلان وبينهما قرص الشمس. وبعض هذه الحلـــي كـــتب علـــيها نقـــوش قـــرطاجية مـــن الـــذهب عثـــر علـــيها فـــي جبانة دويمس (*Douimes*) بقـــرطاجة من القرن السادس تقريباً وكتب عليها ما يلـــــــي:- **"إلى عشتارة، إلـــى بيجمالـــيون، من يداميلك (*yadamilk*) بن بداي (*Padai*) الذين أنقذهم بيجماليون قد**

---

(٧٧) فرانـــسوا ديكـــريه، المـــرجع السابق، ص ص ١٠٣، ١٠٤ ؛ انظر أيضا:- مادلين هورس ميادان، المرجع السابق، ص ص ١١٤- ١١٦.

(٧٨) نفسه، ص ١٠٤.

(٧٩) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٨١. انظر أيضا:- عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٢٣.

(80) Picard. G & C, Op. Cit., p. 140.

أنقـــذوا"[٨١]. أمـــا الفقـــراء فقد أرضوا أنفسهم بلضم خرز زجاجي مع أصداف، مع خرز من العظـــم أو الفخـــار. وكانت هذه الأحراز تمثل آلية مصرية ورموز سحرية وقائية أخرى ذات أصل مصري، مثل عين حورس، وغيرها كثير[٨٢].

ولقـــد برع القرطاجيون في فن الحفر والنقش على الأحجار الكريمة، وأيضا في الحفر والـــنقش على الذهب[٨٣]. ويظهر التأثير اليوناني بدرجة كبيرة جداً في الحلي البونية المتأخرة، وبالـــرغم من ذلك فإن هذه الاتجاهات اليونانية تصحب غالباً بعلامة تانيت أو الهلال والقرص أو رموز أخرى بونية لتدل على أنها قرطاجية حتى لو كانت من صنع فنانين يونانيين[٨٤].

ولقـــد كانت للأختام أهمية خاصة، لأنها تعتبر كحلي، وكأحراز وتمائم، وبالإضافة إلى إتمام الوظيفة المعتادة الموكلة إليهم. وكان رسم الختم ضروريا لاعتماد وثبوت الفعل. وعندئذ صـــارت الأختام رمزاً لشخصية صاحبها، ولم تكن الرسوم المحفورة عليهم من أجل الزخرفة والـــزينة فقـــط، لكن أيضا من أجل تأثيرها الديني الذي يضمن ويحرس العمل الذي يختمونه. وكان أي شخص ينقض عقداً مختوماً بختم عليه آلهته الحارسة، يعتبر أنه ارتكب تدنيس لشيء مقدس وعرض نفسه لانتقام الآلهة.

ولقـــد اســـتخدم الفينيقـــيون كلاً من الأختام الأسطوانية والجعارين المصرية، لكن بعد تأســـيس قـــرطاجة بدأ الأول في الاختفاء، بينما انتشر الثاني وساد. وأحيانا كانت هذه الأختام والجعـــارين تثـــبت في حلقة تصنع من معدن ثمين ثم توضع في سلسلة و تعلق حول العنق، وأحياناً أخرى كانت تثبت في حلقات كبيرة بدرجة كافية لكي تلبس كخواتم للأصابع.

وممـــا هو جدير بالذكر، أن القرطاجيين قد استخدموا جعارين خزفية فقط في القرنين الـــسابع والـــسادس ق.م. أما في القرن الخامس والرابع ق.م، بدأوا في صنع أختام من اليشب والعقيق. وعندئذ أيضا تخلوا عن التصميمات المصرية لصالح التصميمات اليونانية[٨٥].

وأخيـــراً، نأتـــي إلى أفضل أمثلة لمنتجات الفن القرطاجي وأكثرها أصالة وقدماً، ألا وهـــي شفرات الحلاقة القرطاجية، وهي عبارة عن شفرات رقيقة مصنوعة من المعدن، تتخذ شـــكل رأس فـــأس صـــغير مـــستطيل، وتنتهي في أعلاها بساق معدني على هيئة عنق طائر

---

(٨١)عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٢٤.

(82) Picard. G & C, Op. Cit., p. 141.

(٨٣) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٦.

- CF. Fantar. M.H, Op. Cit., p. 183.

(٨٤) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ص ١٨٢، ١٨٣.

(85) Picard. G & C, Op. Cit., pp.141, 142.

الــتم[٨٦]. وكانــت تــصنع من النحاس أو البرونز. ولقد تم العثور عليها في كثير من المقابر القــرطاجية، حــيث كانت توضع عامة بالقرب من رأس الشخص المتوفى، ولذلك يعتقد بأنها كانت كتمائم وقائية وظيفتها الرئيسية حماية الشخص المتوفى من الأرواح الشريرة.

وكانت الشفرات الأقدم (القرن السادس ق.م) لا تحتوي على زخارف إلا في حالات قليلة وهي عــبارة عــن رســوم بسيطة منقطة، أما الشفرات الأحدث (ابتداء من القرن الرابع ق.م) فلقد تطــور شــكلها بدرجــة كبيــرة وتم تزويدها بمقبض لتسهيل حملها، بالإضافة إلى أنها كانت مزخــرفة بنقوش تمثل معبودات أو رموز مقدسة بعضها مصري وبعضها قرطاجي والبعض مــزيج من هذين، بينما كانت الطرز اليونانية أندر. وبالرغم من كل المؤثرات التي سادت في الديانــة القــرطاجية، إلا أن هذه الشفرات بالذات تدل على غلبة التأثير والطابع المصري فيها (انظر شكل رقم ١٤) [٨٧].

وهكذا، نستخلص مما سبق كله أن الفن القرطاجي كان مزيجاً من طرز كثيرة مختلفة، ولكن التأثير المصري واليوناني كان أوضحها وأشهرها على الإطلاق، وتقريباً يدخلان في كل مجالات الفن القرطاجي. ومن الجدير بالملاحظة حقا أن معظم مجالات الفن القرطاجي، إن لم تكــن كلهــا، كانت تقريباً في خدمة المعتقدات الدينية القرطاجية، حتى المقتبس منها من الفن المــصري واليونانــي وغيــرها. وهذا إن دل فإنما يدل على قوة الشعور الديني لدى المجتمع القرطاجي.

وفــي هــذا السبيل تجدر أيضا الإشارة إلى أن الجبانات القرطاجية في مختلف العالم القرطاجــي كانت تقريباً المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن الفن القرطاجي ومجالاته، وذلك من خلال الاكتشافات الأثرية التي قام بها الكثير من الأثريين والمكتشفين.

ب- الموسيقى:

يجمــع الكثيــر من الكتاب على أن الموسيقى قد حظيت بعناية كبيرة لدى الفينيقيين إذ كانــت مــن ضرورات طقوس العبادة لديهم، فوضعوا الكثير من الألحان كما اقتبسوا البعض الآخر. بالإضافة إلي أنهم برعوا أيضا في فن الرقص[٨٨]. وتشير نصوص أوجاريت وغيرها

---

(٨٦) **التم** : طائر مائي شبيه بالأوز لكن أطول منه عنقا. انظر:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٦.

(87) Lancel. S, Op. Cit., pp. 216, 217.

- CF. Picard . G & C, Op. Cit., pp. 131, 132.

انظر أيضا:- مادلين هورس ميادان، المرجع السابق، ص ص ١١٧، ١١٨ ؛ وأيضا:- محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٧٩.

(88) Picard. G& C, Op. Cit., p .154.

CF. Fantar. M.H, Op. Cit., p.171.

انظر أيضا:- رمضان عبده علي، المرجع السابق، ص ٢١٤ ؛ وأيضا: لبيب عبد الساتر، المرجع السابق، ص١١٢.

إلـــى أن الفينيقيين كانوا يمجدون آلهتهم عن طريق تأدية أغاني شبه منظومة، وكان يوجد معبد بالقـــرب مـــن بيروت كان في الحقيقة مخصص لبعل، إله الرقص. وفي بعض الأحيان تكون خطـــوات هـــذه الرقـــصات الطقوسية بطيئة ومبجلة، وأحياناً أخرى تكون صاخبة وحركاتها جنونية(٨٩).

وفـــي قـــرطاجة لـــم يخـــتلف الوضـــع مطلقاً عما كان في فينيقيا من حيث الاهتمام بالموســـيقي، بل نستطيع القول بأن الموسيقى وحدها هي التي لاقت بعض الاحترام والاهتمام. فلـــم تكـــن المسارح والألعاب العامة معروفة في هذا المجتمع، حيث كانت نظرة هذا المجتمع، المكون في أغلبه من رجال المال والأعمال، إلى الفنون بأنها أشياء عديمة الفائدة. ويبدو أيضا أن الاهـــتمام بها في قرطاجة كان من أجل الطقوس والشعائر الدينية؛ فكانت الآلهة عادة ما يتم تصويرها وهي تحمل قيثارة وآلات موسيقية أخرى(٩٠). وكانت المعابد القرطاجية لا تخلو من رجـــال ونـــساء يمارسون العزف والغناء والرقص. كما كان العازفون يأتون إلى التوفيت عند تقـــديم القرابين إلى بعل حمون وتانيت ، وكانوا يحدثون بموسيقاهم صخباً شديداً يسيطر على المكان حتى لا يسمع الحاضرون أصوات صراخ وبكاء الأطفال المقدمة للنار كقرابين(٩١).

ولقد تم العثور على تماثيل صغيرة من الفخار تمثل عازفات وراقصات، بالإضافة إلى ذلك تم أيضا العثور في بعض القبور القرطاجية على كثير من الآلات الموسيقية مثل الصنوج النحاسية أو البرونزية وجلا جل من نحاس (٩٢) (انظر شكل رقم ١٥) .

ج- العمارة :

تعـــد عمـــارة المدن والتشييد عامة من الأشياء الهامة في تاريخ أي حضارة على مر العـــصور، إذ يمكـــن من خلالها التعرف على ملامح حضارة ما ورسم صورة لها. ويبدو أن القـــرطاجيين كانـــوا بنائـــين ماهرين، وأنهم قد ورثوا هذه المهارة عن أجدادهم الفينيقيين في صـــور. وهـــناك دليل على هذه المهارة، وهو أن كثيراً من الأمراء والنبلاء النوميديين كانوا يـــستعينون بمهندســـين معماريين من قرطاجة، وقد شيد أحد هؤلاء في حوالي منتصف القرن الثاني ق.م ضريح دقة(٩٣). ويعد هذا الضريح قطعة أصلية من فن العمارة البوني. كما يعتبره

---

(89) Ibid.

(90) Ibid.

(91) Fantar. M.H, Loc. Cit.

(92) Ibid, pp. 169, 170.

(٩٣) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ١٢٥.

الـبعض واحـداً من أكثر الآثار القديمة تأثيراً في شمال أفريقيا(٩٤). ويتألف من ثلاثة طوابق، ويـبدو فـيه بوضوح التأثير المصري واليوناني. ويبلغ ارتفاع هذا الضريح ٢١م. وقد هدمه قنـصل إنجلتـرا وأخـذ منه حجرتين، كانتا تحملان نصا واحداً مكتوباً باللغة الليبية والبونية، ونقلهما إلى متحف لندن عام ١٨٤٢م. وفي عام ١٩١٠م تم ترميمه وإعادته إلى حالته الأولى، ولا ينقصه إلا هاتان الحجرتان؛ ويتبين من النص المنقوش عليهما أن المهندس الذي شيده كان قرطاجياً ويدعي أبا ريوح بن عبد اشطار(٩٥).

وهـناك دلـيل أخر على مهارة القرطاجيين المعمارية، يتمثل في بناء منازل مرتفعة مـتعددة الطوابق، إذ يذكر إبيان أن المنازل القرطاجية، في زمن الحرب البونية الثالثة، كانت تتكون من ستة طوابق علي الأقل، كما كانت تبني مجاورة لبعضها البعض(٩٦).

ولقـد اختلف الكتاب بشأن هذه البيوت المتعددة الطوابق؛ إذ يري البعض أن قرطاجة اضـطرت إلـى إتباع هذا النمط في البناء، نظراً لصغر مساحة المدينة(٩٧). بينما يري البعض الآخـر أن هـذه المـنازل كانت مطابقة للعمارة الخاصة بصور (المدينة الأم لقرطاجة) وأن القـرطاجيين استمروا في بنائها بصورة تقليدية رغم عدم الحاجة الماسة إليها في المدينة، وأن بعـض المؤثرات اليونانية وخاصة الأعمدة الأيونية تتضح في تلك المنازل(٩٨). ومن المدهش حقـاً أن هذه المنازل تم تمثيلها على بعض قطع الحلي القرطاجية، فقد عثر في قرطاجة على قـرط ذهبي يمثل شكل بيت متعدد الطوابق، سقفه مسطح، ونوافذه مربعة تقريباً وخال من أية زخـرفة(٩٩). ولكـن يـبدو أن مثل هذه المنازل العالية وجدت فقط في الأحياء التجارية قرب الميـناء(١٠٠). وكانـت الـشوارع التي تفصل بين هذه المنازل ملتوية وضيقة لدرجة أنه أثناء الحـرب البونـية الثالـثة فـي عام ١٤٦ ق.م وضع الرومان ألواحاً خشبية بين هذه البيوت، وحاربوا عليها كما لو كانت جسوراً(١٠١).

---

(94) Ogrizek. D , Op. Cit., p. 279.

(٩٥) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٥٧؛

انظر أيضا:- شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ص ١٢٥، ١٢٦.

(96) Appian, VIII, XIX,128.

(97) Warmington. B.H, Op. Cit., p.117 ; CF. Harden. D, The Phoenicians, p.133.

انظر أيضا:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٩٨) رشيد الناضوري، المغرب القديم، ص ٧١ ؛ انظر أيضا:- محمد بيومي مهران، المغرب القديم، ص١٩٤.

(٩٩) يولي بركوفيتش تسيركين، المرجع السابق، ص ٧٢.

(١٠٠) رمضان عبده علي، المرجع السابق، ص ٢١٣.

(١٠١) يولي بركوفيتش تسيركين، نفس المرجع.

ولقد وجدت أنماط أخرى كثيرة للبيت القرطاجي، منها منازل ذات طابقين، كما يتضح من رسم وجد على مقبرة من القرن الرابع تم اكتشافه في جبل مليزا (*Djebel Mlezza*) في شبه جزيرة رأس الطيب[١٠٢] (*Cape Bon*) .

ولقد دل البحث الأثرى على وجود نموذج أخر للبيت القرطاجي، حيث تم في عام ١٩٧٩ اكتشاف منزل ذو طابع ريفي في منطقة قمرت(*Kamrat*) ، أي في الظهير الزراعي لقرطاجة. ويتسم هذا المنزل بطابعه الثنائي، حيث كان يتكون من قسم معد للسكن يتضمن بئراً وحماماً وثلاث غرف .أما القسم الثاني ففيه معصرة زيت وأحواض لتصفية الزيت وجرة كبيرة لخزن المؤن[١٠٣].

أما المنازل الموجودة في حي ميجارا فكانت تنتشر وسط الحقول والحدائق. وكانت جدرانها تطلى باللون الأبيض، ولكنها كانت بدون منافذ تطل على العالم الخارجي. وكانت الحياة في تلك المنازل تدور حول الفناء الداخلي الذي يتوسط البيت[١٠٤].

وفي جزيرة رأس الطيب تم اكتشاف بعض المنازل في دار الصافي، وهي بلدة صغيرة ترجع إلى القرن الرابع حتى الثاني ق.م. ويبدو أن سكانها كانوا جماعة من صيادي السمك وصباغين الأرجوان[١٠٥]، حيث نمت هذه المنازل حول ميناء صغير على الساحل الشرقي لرأس الطيب[١٠٦]. وكانت البيوت المكتشفة في تلك القرية مبنية وفقاً لخطة مازالت مألوفة في تونس، حيث كان المنزل ملحق بمخازن. وكان المدخل مميز بعتبة للباب، ثم يوجد ممر طويل ينتهي بعد ذلك بفناء صغير وعادة كان يحتوي على بئر.

وللتخلص من المياه غير النظيفة، كان هناك بالوعة صغيرة تجري من الفناء إلى الشارع، وهو نظام مازال موجوداً في قري تونس الموجودة على الساحل، مثل موكنين (*Moknine*)، إلى الجنوب من سوسة. وكان الفناء يحتوى على سلم (في بعض الحالات وجد منه ثلاث درجات باقية) يؤدي إلى دور علوي آخر وإلي أيضا مدخل إلى سطح البيت. وحول الفناء كانت تصطف الغرف. ومن الجدير بالذكر أنه تم العثور على علامة تانيت مرسومة على أرضيات هذه البيوت[١٠٧].

---

(102) Harden. D, The Phoenicians, p. 133.

(١٠٣) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٥٢.

(104) Herm. G ,Op .Cit., p. 186.

(105) Harden. D, The Phoenicians, p. 133.

- انظر أيضا:- محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٠١.

(106) Picard. G & C, Op. Cit., p. 46.

(107) Khader. A & Soren. D, Op. Cit., p. 111.

وعــادة مــا كان يتم رصف هذه الأرضيات بنوع من الأسمنت الوردي اللون الذي قد ثبتت فيه قطع صغيرة من الرخام الأبيض، وهي طريقة شاع استخدامها في أماكن مختلفة من بــلاد البحــر المتوســط فــي ذلــك الــوقت وســبق استخدام الفسيفساء الحقيقية في العصر الإمبــراطوري(١٠٨). وأكثر ما يجذب الانتباه في تلك المنازل هي الحمامات الخاصة بها؛ فلقد عثــر على حمام به مغطس ذي مقعد، وفي بيت آخر نجد حماماً في حالة جيدة وبه نظام متقن لصرف المياه(١٠٩). وهذه المنازل كانت ذات دهــان بــسيط للجدران الخارجية، أما الجدران الداخلية فكانت بيضاء اللون. وكانت الأساسات تبني عامة من أحجار ضخمة ليست ذات جودة عالــية تم إحضارها من المحاجر الموجودة في رأس الطيب. أما بقية المنزل فكان من الطوب اللــبن(١١٠). ولقد تم أيضا اكتشاف عدد من المنازل البونية المتأخرة في قرطاجة نفسها، على المــنحدر الجنوبي لبيرسا (تل سانت لويس) (انظر شكل رقم ١٦). ويبدو من بقايا هذه المنازل أنهــا قــد بنــيت في ميدان على استقامة واحدة، كما ظهرت شوارع جيدة الرصف(١١١). إن تخطــيط هــذه المنازل كان بسيطاً جداً؛ عبارة عن مجموعة من الغرف المربعة أو المستطيلة وضــعت جنــباً إلــى جــنب مع اهتمام ضئيل بالشكل والتنظيم المعماري الجمالي(انظر شكل رقــم ١٧) . وكانــت هــذه المــنازل لا تخــتلف كثيــراً عن المنازل الموجودة في بلدة دار الــصافي(١١٢)، فعلي سبيل المثال لدينا نموذج من هذه المنازل يتضح من وصفه مدى التشابه بيــنه وبــين المــنازل السالفة الذكر في كثير من العناصر الأساسية المكونة للبناء، حيث كان مدخلــه مــزود بردهة طولها ستة أمتار وعرضها ٩٠سم، تؤدي إلى الفناء الداخلي. وكان يتم غلــق هــذه الردهة من ناحية الفناء بواسطة باب خشبي، وبذلك كانت خصوصية البيت مؤمنة جــيدا. أما أرضية الممر والفناء فكانتا مرصوفتان بنوع من الفسيفساء شبيهة بتلك التي أسلفنا الحــديث عــنها في منازل دار الصافي مع اختلافات بسيطة منها، لون الأسمنت لم يكن وردياً

---

(١٠٨) وتتميز هذه الفسيفساء بتنوع الألوان ما بين الأحمر، والأصفر، والبرتقالي، والوردي، والأخضر الزيتوني، والأسود، والرمادي، والبني.....الخ، كما كانت تضم رسوماً لأشكال مختلفة مثل الزهور، والفواكه. وكانت هذه الرســوم تجمع بين العديد من الألوان وأحياناً كانت تجمع بين درجات اللون الواحد في تدرج جميل، فعلي سبيل المثال، هناك فسيفساء تضم رسم لزهور تتدرج فيها الألوان من الوردي إلى الأحمر. ولقد ضمت بعض من هذه الفسيفــساء رســوماً آدمــية. ومن الجدير بالذكر أن، الزجاج كان يدخل في تركيب بعض من هذه الفسيفساء. ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:-

Dunbabin. K, "The Mosaics and Pavements", Excavations At Carthage. 1975, Conducted by the University of Michigan, vol. 1, Tunis, 1976, pp. 24,25.

(109) Harden. D, The Phoenicians, pp. 133, 134.

(110) Warmington. B.H, Op. Cit., p.118.

(111) Harden. D, The Phoenicians, pp. 135,136.

(112) Picard. G & C, Op. Cit., P. 46.

بــل كان رمادياً مطعماً بشذرات كثيرة من الفخار ذات ألوان خضراء وصفراء، بالإضافة إلى قطع صغيرة من الرخام الأبيض مبعثرة هنا وهناك. وبطول الردهة، يوجد تجويف يجري في هــذه الأرضية يمثل قناة تحمل مياه البيت المستخدمة لصرفها في الخارج في إحدى البالوعات التــي تقــع فــي الطريق العام. وكان الفناء يمثل مركز هذه الوحدة السكنية، كما كان مصدراً للــضوء والهــواء. وفي البداية، كان البيت يتكون من غرفتين فقط ذات مساحة مناسبة. وكان الحمــام يــوجد فــي امتداد ممر الدخول، كما شهدت آثار ماسورة إمداد مياه رأسية وماسورة صــرف المــياه المــستخدمة. وفي الخلف وجدت مجموعة قليلة من الغرف بدون أية منافذ، ويــرجح أنهــا كانت مخازن. أما غرفة المعيشة فكانت على الجانب الأخر من الفناء، وكانت ذات مــساحة أكبر، وكانت أرضيتها عبارة عن فسيفساء من الرخام الأبيض. وفي نموذج آخر من هذه المنازل وجدت بركة صغيرة مستديرة لجمع مياه المطر من أجل الصهريج، كما وجد أيضا غرفة من أجل استقبال الضيوف(١١٣).

وقــد عثر على حي قرطاجي كامل في جهة دوار الشط ***(Douar Chott)*** في جنوب بيرســا، وكشف عن منازل كانت مدفونة تحت الأرض وتعلوها طبقة من رماد حريق المدينة في عام ١٤٦ ق.م، وعثر على قطع من العملة وبعض الخزف القرطاجي وسط تلك الأنقاض. ولقــد ظهــر هــذا الحي كله بوضوح بشوارعه، وجدرانه التي ظلت قائمة وترتفع إلى حوالي ثلاثــة أقــدام. وكــان هــذا الحي على عمق من عشرة إلى ثلاثة عشرة قدماً (ثلاثة أو أربعة أمــتار)(١١٤) أسفل المستوي الروماني. ويبدو من خلال هذه الاكتشافات أن قرطاجة قد اتبعت الأســاليب الرئيــسية المعــتمدة فــي تخطيط المدن اليونانية، وذلك أثناء القرون الأخيرة من وجــودها؛ فشوارعها كانت مستقيمة، وإن لم تكن متسعة، كما كان لها بالوعات مصممة بنفس الطــريقة مــثل تلــك التــي عثر عليها في المدن اليونانية في صقلية(١١٥). وكان تخطيط هذه المــنازل بــسيط، حــيث كانــت ذات مجموعة من الغرف المستطيلة وبدون مبالغات هندسية بغــرض الزخرفة. والجدران مبنية من الطوب أو الطمي على أساس من الحجر وكانت تطلى بالقــار لمنع تسرب المياه. وفي بعض الأحيان تم استخدام قطع من الحجر بين الطوب والطين لتقوية الجدران التي كانت عادة ما تغطي بطبقة من الجص، كما هو واضح من آثار كثير من المباني القرطاجية(١١٦). و أخر نموذج لدينا للبيت القرطاجي هو عبارة عن نوع يشبه الفيلات في وقتنا الحالي. وتتميز هذه الفيلات بوجود أبراج، وأيضا شرفات كبيرة تطل على البحر عند

---

(113) Lancel. S, Op. Cit., pp. 164-166.

(١١٤) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ٩٨.

(115) Picard. G & C, Op. Cit., pp. 45,46.

(116) Harden. D, The Phoenicians, p.136.

الطابــق الأول مــنها. ولكن في أقصى الجنوب، كانت هذه الأبراج ذات مظهر أكثر صرامة وقــوة، مثل تلك التي كان يملكها هانيبال في بيزاكيوم (ليست بعيدة عن ثابسوس). ولذلك يري الــبعض أنهــا كانت حقا بمثابة حصون مصغرة، حيث كانت قادرة على مقاومة أي هجوم من مجموعات البدو[١١٧].

كانــت قرطاجة تملك نبعاً واحداً فقط صالحاً للشرب، حيث كانت كل الينابيع الأخرى مالحة. ويوجد هذا النبع بجانب الشاطئ، على بعد مسافة ما من البحيرتين، ويسمي "نبع الألف أمفــورة" ولقد تم اكتشافه بالصدفة في بداية القرن التاسع عشر، سويا مع جرة مليئة بالعملات الذهبــية. وكــان يقــع عــند سفح تل البرج الجديد (***Bordj Djedid***). وكان تصميم المدخل الخــاص به روماني الطراز، لكن في الداخل في نحت الحجر وقنوات المياه كانت ذات طابع وطــراز بونــي[١١٨]. ولقــد تم إقامة صهاريج ضخمة حوله لحفظ مياهه وتنظيم إمداد المدينة بهــا[١١٩]. وكــان نظام إمداد المياه في المدن الفينيقية يعتمد كلية على الصهاريج تقريباً. وفي بدايــة عــصر الحديد ابتكر الكنعانيين نظام جديد في تغطية صهاريج المياه بطبقة من الجص أصم لا ينفذ الماء، وبذلك تمكنوا من جمع مياه الأمطار وحفظها في الصهاريج لفترات طويلة، ولــذلك لــم يحــرص المهاجــرون الفينيقيون على احتلال المواقع القريبة من عيون الماء أو مجــاري الأنهــار. وفيما بعد تم استخدام مادة أفضل من الجص وهي الأسمنت الحقيقي الذي يحــتمل أنهــم أخــذوه عن اليونانيين، وتم استخدامه على نطاق واسع ويتضح ذلك من خلال الــصهاريج الكثيــرة التــي عثــر علــيها في قرطاجة وترجع إلى السنوات الأخيرة في حياة المدينة[١٢٠]. ولقد عثر على ستة عشر صهريجاً عالية السعة، بعضها يسع حوالي عشرين متر مكعــب مــن المــاء. واثنان منهما كانا على شكل زجاجات تم وضعها بعمق في طين الطبقة الــسفلي مــن الأرض. أما البقية فكانت عبارة عن مستطيل كبير يتراوح طوله ما بين الثلاثة والخمــسة أمــتار تقريباً، وبعرض يقرب من المتر، أما العمق فربما يزيد على الأربعة أمتار. وكــان الغطــاء عبارة عن سقف مطلي بالقار (وهو الأكثر شيوعاً) مصنوع من ألواح صغيرة مــن الحجر الرملي، أما الأكثر دهشة وندرة هو غطاء مصنوع من أجسام الأمفورات متداخلة مع بعضها البعض ومثبتة بواسطة الخرسانة، ولقد لوحظ هذا الغطاء مرتين[١٢١]. ومن الجدير بالذكــر أن، بعض المنازل كانت تحتوى على صهريج خاص بها، كما شوهد في منزل يرجع

---

(117) Picard. G & C, Op. Cit., p. 87.

(118) Ibid, p. 29.

(١١٩) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٠٢.

(120) Harden. D, The Phoenicians, p. 136.

(121) Lancel. S, Op. Cit., pp.169 –171.

إلـــى القرن الثاني ق.م (انظر شكل رقم ١٨) . وتستخدم هذه الصهاريج لجمع أية أمطار تسقط علـــى المنـــزل، وعـــادة كان عمقها يصل إلى مترين على الأقل[١٢٢]، وتصل المياه إلى هذه الـــصهاريج عـــن طـــريق قناة تقام في وسط الفناء، لكن الغالبية تأتي عادة من أسطح المنازل بواســـطة أنابـــيب عمودية، ثم قنوات منحدرة بلطف[١٢٣].وفي النهاية، يبدو أن العمارة المدنية القـــرطاجية لـــم تـــستطع مقاومـــة المؤثرات المعمارية اليونانية في كثير من عناصرها، فلقد انتـــشرت علـــى نطـــاق واسع في كثير من المباني، وخاصة تلك التي تخص النبلاء والأثرياء القـــرطاجيين. أمـــا فيما يتعلق بالعمارة الدينية، فسوف يأتي الحديث عنها فيما بعد عند تناول المعابد القرطاجية وعمارتها بالدراسة.

(١٢٢) ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:-

www. roman empire.net.

(123) Lancel. S, Op. Cit., p.171.

الفصل الرابع

الحياة الثقافية والدينية

تعد الحياة الثقافية والدينية من الجوانب الهامة جداً في تاريخ وحياة أية حضارة من الحضارات، ولذا وجدنا أنه من الأهمية بمكان الإشارة إليهما وتناولهما بالدراسة، وذلك من أجل استكمال صورة الحضارة القرطاجية وأهم جوانبها.

أولاً:- الحياة الثقافية

إن معلوماتنا عن الحياة الثقافية والأدبية القرطاجية ليست كثيرة. ولا نعرف في الحقيقة سبباً لذلك، حيث أن الآثار الأدبية التي لدينا قليلة جداً ومعظمها يتألف من نقوش إهدائية وجنائزية (سوف يأتي الحديث عنها فيما بعد). وعلي الرغم من ذلك، لا نستطيع أن ننفي وجود حركة ثقافية في المدينة، ولكن يبدو أنها لم تكن على قدر كبير من الأهمية والنشاط.

ومع ذلك فقد ورد ذكر وجود مكتبات قرطاجية في المدينة وقت استيلاء الرومان عليها الذين قاموا بتوزيع محتوياتها بين الأمراء البربر[1]. ويبدو أن الرومان لم يكونوا على القدر الكافي من الوعي بقيمة هذه المكتبات لكي يحتفظوا بها لأنفسهم، فمن الجائز احتوائها على أعمالاً هامة أخرى مثل موسوعة ماجو الزراعية (التي سبق وأن تحدثنا عنها). ومن الجدير بالذكر، وجود طبقة من الكتبة، ويعتقد أنهم كانوا على ذمة الدولة أو الإدارة. وكان رئيسهم يسمى (ر ب ش ف ر م) أما الكاتب أو الناسخ نفسه فكان يسمى (ش ف ر) ويبدو أن بعضهم كان ينتمي إلى فئة العبيد[2].

ولقد تم العثور في القبور القرطاجية علي بعض الأدوات الكتابية مثل محبرة قرطاجية التي ترجع إلى القرن الرابع أو الثالث ق.م[3] (انظر شكل رقم ١٩).

ومن الآثار الأدبية الباقية لدينا بعض الأجزاء المأخوذة من مسرحية "**بوينولوس**" (*Poenulus*) لبلاوتوس (*Plautus*)، المترجمة إلى اللغة البونية. وأطول تلك الأجزاء عبارة عن صلاة مقدمة من قبل حانون التاجر لآلهة الميناء حيث رسي، سائلاً إياهم أن يساعدوه لكي يجد بناته وإبنة أخيه مرة أخرى[4]. كما لدينا أيضا نص أمر هانيبال بنقشه في عام ٢٠٥ق.م، وتم وضعه في معبد "**هيرا**" في (*Cape Lacinion*)، و يتضمن تقريراً بحملات وحروب هانيبال. وقد كتب بكل من البونية واليونانية، لكي يضمن أن النص سوف

---

(1) Church. A. J, Op. Cit., pp. 123, 124.

(٢) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ص ٢٦٢، ٢٦٣.

(3) Fantar. M.H, Op. Cit., p. 47.

(4) Picard. G & C, Op. Cit., p. 63.

يجـتذب جمهــوراً أكبــر وأعرض[٥]. و يلاحظ أن معظم الآثار الأدبية القرطاجية عبارة عن نــصوص نقشية مقفرة في أغلبها ولا حياة فيها، وذات إطار ومحتوى ثابت، وتتعلق بإهداءات ثابــتة تسجل اسم الشخص الذي قام بالإهداء والإله وسبب القربان، ونادراً ما كان يتم ذكر أية تفاصــيل أخــرى نافعة. ولدينا مثال من قرطاجة لمثل هذه النقوش الإهدائية وصيغتها الثابتة، ويقــول:- "**إلــى الــسيدة تانيت وجه بعل والسيد بعل حمون، قربان مقدم من بودعشتارت (*Bodashtart*) بن هاميلكار، بن عبد ملقرت(*Abdmelqart*)، بن بودعشتارت، لأنه سمع لدعائه**[٦]".

أما النصوص النادرة التي لم تلتزم بهذه الصيغة الموحدة؛ فهي عبارة عن نقوش دينية قصيرة، مثل تعريفات القرابين التي تحدد النصيب المقرر للكهنة من كل نوع من القرابين مثل تعــريفة مارســيليا (سوف يتم الإشارة إليها فيما بعد عن الحديث عن الديانة القرطاجية)؛ وقد وجــد مــثلها فــي قرطاجة وإن كانت أقل أهمية، بالإضافة إلى نقوش أخرى مهدأة للمعبد[٧]. ولكــن علــي الــرغم من ذلك، يبدو لنا أن هذه النقوش جميعاً ذات صبغة دينية في مضمونها ومجملهــا. وعلي الرغم من ذلك، أحياناً كان يتم العثور علي بعض النقوش التي تشذ عن هذا الإطــار تماماً؛ ولكنها كانت نادرة. ومن أمثلتها، نقش قرطاجي ذو محتوى معماري يرجع إلى القــرن الــثالث ق.م، تــم العثور عليه في مدينة قرطاجة. ويري البعض أن لهذا النص أهمية كبــري فــي تاريخ التنمية العمرانية لأنه يتضمن معلومات هامة عن الحياة الاقتصادية وعن مشاركة الحرفيين والتجار في توفير بنية أساسية جديرة بالمدينة. و كان النص كالتالي:- "**فتح وأنجــز هــذا الطــريق نحــو الباب الجديد الذي فتح وانجز هذا الطريق نحو الباب الجديد الذي...،**

(كــان ذلك في) عهد السبطين شفط وادنبعل وفي مدة تصرف ادنبعل بن اشمنخلص بن......،

..... قرت بي حنو وزملاءهم وكان المشرف علي الإنجاز عبد ملقرت....،

بد ملقرت بن بعلحنو بن بد ملقرت مهندس بحوإلن......،

---

(5) Lancel . S, Op. Cit., p. 359.

انظر أيضا:- ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ٤١٣.

(6) Harden . D, The Phoenicians, p. 120.

ولمزيد من هذه النصوص ذات الصيغة الثابتة، انظر أيضا:-

- عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٣٥. و أيضا:-

- Fantar. M. H, Op. Cit., p. 46.

- وأيضا:- ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ٤١٤.

(7) Picard. G & C, Op. Cit., p. 63.

نقابة النساجين الوجيهة بالمدينة ووزانوا القطع النقدية الصغيرة..،
الذي لهم وسباكو الذهب والملاحون وأحبا الافران والاسكافيون؟ جميعهم،
وقضاة الحسبة يغرمون كل رجل بغرامة قدرها ألف وزنة فضة...[٨]"
(راجع شكل رقم ٣) .

بـــيد أن الحياة الثقافية القرطاجية قد تعرضت لأزمة إثر هزيمة القرطاجيين في معركة هيميرا عام ٤٨٠ ق.م، حيث أدت التغييرات السياسية والدينية والتجارية إلى انفصال قرطاجة عــن العالم القديم نوعاً ما؛ مما أدى دون شك إلى تعرضهم لأزمة ثقافية، ولكنها أيضا أدت، فـــي نفس الوقت، إلى نوع من الإستقلال الثقافي في المدينة[٩]. غير أن قرطاجة استطاعت أن تـــستعيد مكانـــتها وتـــتخلص من هذه العزلة في نهاية القرن الرابع ق.م، ورغم أن تلك الفترة تميـــزت بانتشار الثقافة اليونانية[١٠].إلا أنه يبدو من الصعب تحديد مدي تأثير تلك الثقافة علي الفكـــر القرطاجـــي؛ نظراً لعدم وجود أدب وفكر ثقافي قرطاجي يمكننا من الحكم علي أساس ســـليم. ولكن يعتقد البعض أن هذا التأثير كان أقل من التأثير علي المظاهر الخارجية للحضارة القـــرطاجية؛ ولكـــن ربمـــا يمكننا استثناء بعض من الطبقة العليا في المجتمع الذين قد تأثروا بالثقافة اليونانية بشدة[١١].

ومـــن ذلـــك أن كثيراً من القرطاجيين تعلموا اليونانية في صقلية، وحتى في قرطاجة نفـــسها. غيـــر أنـــه تم تحريم دراسة هذه اللغة تحت ضغط من العناصر المحافظة في مجلس الـــشيوخ ، بحجة منع الاتصال مع العدو[١٢]، وكان ذلك في فترة تجدد الحروب بين قرطاجة وســـيراكوزا فـــي النصف الأول من القرن الرابع ق.م[١٣]. ولكن هذا التحريم لم يستمر طويلاً إذ أن فـــي نهايـــة هـــذا القرن (كما سبق وأن أشرنا) عادت الثقافة اليونانية إلى الانتشار علي نطـــاق واســـع فـــي قرطاجة. ويتضح ذلك من خلال انجذاب بعض القرطاجيين إلى المبادئ الإنسانية اليونانية والرغبة في تربية أطفالهم علي الطريقة الهيللينية، فمثلاً درس هانيبال، ذلك القائـــد العظيم، الاستراتيجية العسكرية من خلال كتب يونانية[١٤]. وقام هانيبال بتعيين شخص يدعـــي سوسيلوس(***Sosylus***) اللاكيدموني (***Lacedaemon***) لكي يُعلمه اللغة اليونانية[١٥].

---

(8) Fantar. M.H, Op. Cit., p. 48.
(9) Moscati. S, Op. Cit., p. 124.
(١٠) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ٨٣.
(11) Warmington. B.H, Op. Cit., P. 134.
(12) Picard. G & C, Op. Cit., p. 152.
(١٣) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٦٤.
(14) Picard. G & C, Loc. Cit.
(15) Cornelius Nepos, XXIII. Hannibal, 13.

ومن الجدير بالذكر أن، أحد الأشخاص القرطاجيين قد حقق شهرة فكرية في أثينا، أحد مواطن الثقافة اليونانية ذاتها. وهذا الشخص يدعي هاسدروبال واتخذ الاسم اليوناني *(Cleitomachus)*. وكان تلميذاً لرئيس الأكاديمية في أثينا، ثم أصبح رئيساً لها في عام ١٢٩ ق.م. ويبدو أنه قد نشأ في أثينا وقت سقوط قرطاجة(١٦).

أما التعليم في قرطاجة ونظامه فان معلوماتنا عنه ضئيلة أيضا. فكل ما نعلمه أن الطفل القرطاجي كان يرسل في سن مبكرة جداً من منزله لتلقي تعليمه، مع التوصية بضرورة أن يعيش من ثمار عمله وتجنب كل الأفعال المشينة. ولذلك يبدو أن التعليم هناك كان عملياً جداً، وكان يهدف إلى تربية الطفل علي العيش بواسطة ذكائه وفطنته الخاصة. ويرجح أن هذا النوع من التعليم العملي كان يعطي بشكل خاص للأطفال الذين كانت أسرهم تعدهم من أجل التجارة والمشاريع البعيدة. غير أن الأسر الدينية الكهنوتية، علي الأرجح، كان لها مدارسها الخاصة داخل نطاق المعابد. وهناك يتعلم الأطفال قراءة وكتابة الفينيقية، والقصائد التي تتناول أساطير الأقدمين وكتاب الطقوس الدينية. ويبدو أن المرأة لم تكن ممنوعة من التعليم، حيث كانت سوفونسبة ***(Sophonisba)*** بارعة تماماً في الإنسانيات كما كانت أيضاً في الموسيقى. وربما تم أيضا السماح لهن بدراسة الفنون(١٧). وكان هذا علي ما يبدو على مستوي الطبقة الأرستقراطية في المجتمع، ولكننا لا نعرف ما إذا كان التعليم متاح للمرأة في الطبقات الأخرى من المجتمع أم لا؟

ويري البعض أن التعليم القرطاجي كان خاضعاً لإهتمامات العاصمة وطبيعتها؛ فلذلك فرضت الطبيعة التجارية للمدينة ضرورة الاهتمام بتعلم اللغات الأجنبية المختلفة(١٨).

كانت الكهانة الفينيقية دائماً مركز حياة فكرية نشطة جداً. فقد كانوا يناقشون طبيعة الآلهة، ويقومون أيضا بكتابة نصوص الابتهالات الدينية، كما ألفوا قصائد دينية عبارة عن ملاحم بطولية، تحصي مغامرات الآلهة و تشرح مراحل الطقوس والعبادات. ويبدو أن الكهنة القرطاجيين قد ورثوا مثل هذا الدور والنشاط الثقافي عن إخوانهم الموجودين في الوطن الأم. وبالإضافة إلى ذلك، كان الكهنة القرطاجيون يقومون بإلقاء بعض الدروس في علم اللاهوت في ساحات المعبد، التي كانت بمثابة مركزاً للنشاط الفكري والثقافي.

---

(16) Warmington. B.H, Loc. Cit.
(17) Picard. G & C, Op. Cit., pp. 151, 152.
(18) Mommsen. T, Op. Cit., p. 122.

ولقد كان للدور الثقافي للكهنة القرطاجيين أهمية تاريخية كبري، إذ يرجع إليهم الفضل فـــي بقاء اللغة والحضارة الفينيقية في أفريقيا حتى بعد انتهائهما في فينيقيا نفسها، فقد استمرتا لقرون كثيرة بعد الغزو الروماني(١٩).

أمـــا الكتابة البونية (القرطاجية) فإنها مشتقة من الكتابة الفينيقية(٢٠) مباشرة منذ القرن الـــثامن ق.م(٢١). وفـــي الـــبداية، كانـــت تبدو ذات شكل مبتذل، ذات علامات فظة، وسميكة وخاصـــة في الجزر. و لقد انتشرت هذه الكتابة في سرد ينيا ومالطة منذ القرن السادس ق.م، ولكـــن في شكل أقل ابتذالاً بعض الشيء. إذ كانت الحروف طويلة، ومنحنية قليلاً. وكانت تلك الكـــتابة هـــي الكـــتابة الرســـمية في قرطاجة والإمبراطورية البونية حتى عام ١٤٦ ق.م. و اســـتمرت لفتـــرة قـــصيرة في النصوص الأثرية للأمراء الأفارقة، ولكن تم بعد ذلك استبدالها بالكـــتابة البونـــية المحدثـــة **Neo-Punic**، المـــشتقة من البونية القديمة(٢٢). وكان الاختلاف الجوهـــري بـــين البونـــية القديمة والبونية الحديثة استخدام الحديثة للحروف المتحركة اللينة متأثـــرة فـــي ذلـــك بالكتابة اليونانية واللاتينية فيما بعد. لكن الشيء المشترك بينهما هو عدم خـــضوعهما لـــتوازن واعتدال الكتبة حتى أصبحتا في فترة قصيرة من التعقيد بحيث يصعب قراءتهما(٢٣).

وأمـــا اللغـــة البونية، فتعد امتداد للغة الفينيقية (ذات الأصل السامي). ولقد لازم اللغة البونـــية الرسمية لغة أخرى عامية، أخذت الاختلافات فيها تتزايد عن اللغة الرسمية. وفيما بعد أصـــبحت النـــصوص الرسمية مستقلة تماماً عن النصوص القديمة الفينيقية، وكان ذلك نتيجة تطور كبير حدث في اللغة(٢٤).

ولقـــد حرص القرطاجيون علي نشر لغتهم وكتابتهم بين الشعوب الخاضعة لحكمهم،بل ولقـــد تكلم بها الأجانب المقيمين في قرطاجة كلغة شائعة، كما صارت بين الليبيين لغة الثقافة.

---

(19) Picard. G & C, Op. Cit., pp. 45, 77, 78.
-CF. Lancel. S, Op. Cit., pp. 209, 210.

(٢٠) ظهـــرت الكتابة الفينيقية منذ القرن الثالث عشر ق.م، وهي مكونة من اثنين وعشرين حرفا مشتقة من اللغة المصرية الممثلة في النقوش السينائية. ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:- رمضان عبده علي، المرجع السابق، ص ص ٢٠٥- ٢٠٨.

(٢١) نفسه ، ص ٢٠٩.

(22) Moscati. S, Op. Cit., p. 185.

(٢٣) رمضان عبده علي، المرجع السابق، ص ص ٢٠٦، ٢٠٩.

(٢٤) ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر :-

- Moscati. S, Op. Cit., p. 186.

أما الكتابة الليبية التي تم اختراعها في القرن الثاني ق.م لتسجيل لهجاتهم المحلية الكثيرة كانت بدون شك مشتقة من الأبجدية الفينيقية(٢٥).

ولقد ظلت اللغة البونية مستخدمة في بعض المناطق الريفية حتى أيام القديس أوغسطين *(Augustin)* أي بعد خمسة قرون من هدم قرطاجة(٢٦).

ومن الجدير بالذكر أن، مملكة نوميديا بدت أنها قد وكلت لكي تصبح وريثة قرطاجة الثقافية، حيث (كما سبق وأن ذكرنا) آلت إليها تركة القرطاجيين الثقافية المتمثلة في بقايا مكتباتهم، التي تضم فكرهم وأدبهم. ولم يتقبل الأمراء النوميديين (أبناء ماسينيسا) هذه التركة فحسب، بل حافظوا عليها، حتى صار سقوط المملكة النوميدية يعني انحطاط وأفول نجم الثقافة البونية؛ وهو ما حدث بالفعل ابتداءً من القرن الثاني الميلادي، وإن كان ببطء ولكن بصورة مؤكدة أدت أخيرا إلى انتهاء الثقافة والحضارة القرطاجية من أفريقيا(٢٧).

ثانياً:- الحياة الدينية

مما لا شك فيه أن الدين كان يحتل مكانة كبيرة في حياة القرطاجيين الخاصة والعامة، وليس القرطاجيين فحسب بل يمكن القول أن الشعوب القديمة كلها تقريبا كانت خاضعة لسلطة الدين وهيبته. ولقد سبقت الإشارة إلى أن القرطاجي متدين بطبيعته وفطرته الأولى، فهو يبدأ يومه بالصلاة والعبادة. وكان الدين يدخل في كل مجالات الحياة القرطاجية وحتى في أسمائهم التي كانت مشتقة أو مركبة من أسماء الآلهة(٢٨) (كما سبق وأن أشرنا)، وحتى في رحلاتهم وحروبهم وعلاقاتهم الخارجية؛ فكانت المعاهدات تبرم تحت حماية ورعاية الآلهة، مثلما حدث عندما تم إبرام المعاهدة بين هانيبال وفيليب الخامس المقدوني عام ٢١٥ ق.م، فقد تم إشهاد آلهة قرطاجة، وآلهة مقدونيا، وآلهة اليونان، وجميع آلهة الحرب مثل زيوس (Zeus)، وهيرا *(Hera)*، وأبولو (Apollo) ، وهرقليس(*Heracles*)، وغيرهم(٢٩). وكان بعل حمون *(Baal Hammon)*، وتانيت(*Tanit*)، وفيما يلي سوف يتم الحديث عن كلا منهما علي حدة.

---

(25) Picard. G & C, Op . Cit., p. 64.

(٢٦) محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص٢٤. انظر أيضا: شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص١٢٦

(27) Moscati. S, Op. Cit., p. 130.

انظر أيضا:- رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ٢٨٠.

(٢٨) وكانت هذه الأسماء تسمى "الأسماء الثيوفورية (Theophoric). انظر:-

الأمين علي الأمين، المرجع السابق، ص٥٦. ولمزيد من هذه الأسماء، انظر:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١١٤.

(29) Polybius, VII, 9.5.

يعــد بعــل حمون هو الإله الأعلى والأول في العالم الفينيقي الغربي عامة، وقرطاجة خاصة. وما من شك في أن هذا الإله ما هو إلا الإله "بعل"[٣٠] الشرقي في فينيقيا، الذي انتقلت عــبادته إلى الغرب علي يد المستوطنين الفينيقيين[٣١]. أما اسمه، فالشطر الأول منه (أي بعل) يعنــي "الــسيد أو المولــي" وهو صفة وليس اسما[٣٢]. أما الشطر الثاني فلقد أثار الكثير من الجــدل، حيث اختلف المؤرخون حول تفسيره. فهناك من يري أنه يعني "الناري"[٣٣] ، وربما كــان يعنــي أيــضا "الحــرارة" أو "الــنار" وهي ترجع إلى الجذر "حم" "Hmm" الذي يعني "الــساخن" أو "شــئ متقد"، وبهذا يكون بعل حمون هو "سيد النار". وقد اكتسبت هذه الفرضية تأيــيدا كبيرا منذ اكتشاف التوفيت حيث ارتبط اسم هذا الإله بعادة التضحية البشرية عن طريق الحــرق بالنيران، وربما كانت تشير إلى الشمس المتأججة التي تم تصويرها مراراً علي نصب مــن العــصر البونــي كانــت مكرسة لهذا الإله. وفي هذا تأكيد آخر علي الطابع الفلكي لهذا الإلــه[٣٤]. ولكن هناك رأي آخر يري أن اسم بعل حمون يعني "سيد مذبح البخور"[٣٥]، حيث يعــتقد أن لفظة "حمن" تعني المبخرة أو مذبح البخور[٣٦]. ويبدو أن استخدام العطور والبخور كــان من الأشياء المميزة لعبادة هذا الإله، ومما يدل علي ذلك إرتباطه بالمبخرة ارتباطاً وثيقاً ممــا جعلهــا صفة شبه مُلازمة له. ويبدو أن الغرض من استخدام البخور بكثرة كان لمحاولة إخفــاء رائحــة الضحايا وخصوصاً الآدمية منها والتي كانت تحرق أمام تمثال هذا الإله[٣٧]. وهــناك فرضــية أخــرى يقدمها محمد حسين فنطر تعتمد علي الربط بين اللفظ حمن والجذر حمــي- يحمــي، حــيث اعتمد الكاتب علي نقيشتين تحمل الأولى رقم CIS, I, 405 والثانية

(٣٠) ويعتبــر بعل أبرز الآلهة في مجمع الآلهة الكنعاني، وهو شاب قوي مقاتل كما تم تصويره في نصوص رأس الشمرا، وكان ينعت في تلك النصوص "بفارس الغمام". أما اسمه الحقيقي فهو إما "حدد" أو "تموز" مما يشير إلى أنه كان إله الرعد وأمطار الشتاء.

انظر :- شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان، (ترجمة: ماجد خير بك)، دمشق، ١٩٩٠، ص ص ٨٨، ٨٩.

ولمزيد من المعلومات حول بعل وأسطورة صراعه ضد الإله موت، انظر:- نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص ص ٧٠- ٧٣.

(٣١) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ص ١٤٦، ١٤٧.

(٣٢) شارل فيروللو، المرجع السابق، ص ٨٩.

(٣٣) ب.هــــ. وار منجــتون، المــرجع الــسابق، ص ٤٦٥؛ انظر أيضا:- محمد بيومي مهران، المغرب القديم، ص ٢١٠.

(34) Lancel. S,OP. Cit., P. 195.

انظر أيضا:- فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ص ١٤١، ١٤٢.

(35) Warmington. B.H,OP. Cit., P. 129 ; CF. Picard. G & C, OP. Cit., P. 38.

(٣٦) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٣٧) الأمين علي الأمين، المرجع السابق، ص ٥٨ .

CIS, I, 406 وتحـوي النقـشتان عبارة "لحمنن" التي اقترح فهمها بمعني لحامينا (النون هي لضمير المتكلم الجمع) [٣٨].

و فـي الحقيقة إن كل الفرضيات السالفة الذكر تبدو مقبولة ولكنها، مع ذلك، تبقي في حيـز الافتراضـات فلـذلك لا نستطيع أن نؤيد إحداها دون الأخرى. وكان بعل حمون يسمي أحـياناً أيـضا بعـل عمون. ويعتقد البعض أن بعل حمون ربما كان يمثل اندماج بعل أفريقي شـرقي بإلـه أفريقـي ليبي قريب الصلة بالمعبود "زيوس آمون"، ومن هنا اتجه البعض إلى اعتبار بعل حمون ذي صلة بالإله المصري آمون، وربما يمكن تأييد هذه الفرضية علي أساس أن عـبادة آمـون قـد انتشرت في شمال أفريقيا، ولقد عثر علي رسوم لأكباش مقدسة علي رأسها قرص الشمس في ليبيا والجزائر، ويمكن اعتبارها تماثل الكبش المصري المقدس الذي يرمز للإله أمون في طيبة، مع اختلاف في نوع الكبش وشكله، ومن ثم فربما تأثرت قرطاجة بهـذا المعـتقد المصري، وربما يرجع هذا الاندماج إلى العصر الفينيقي نفسه باتحاد الإله بعل الشرقي الفينيقي مع الإله أمون المصري، مما أدى إلى ظهور بعل حمون الذي يحمل الصفتين الفينيقـية والمصرية، وأحياناً كان يتم تصوير هذا الإله وهو يحمل قرني كبش، كما أن قرص الشمس المجنح، والمصري الأصل، كان من الرموز المتصلة بهذا الإله[٣٩].

ومن التمثيلات الأخرى لهذا الإله ما تم العثور عليه في توفيت سوسة (هادروميتوم)، و هـو نصب يرجع إلى القرن الخامس أو الرابع ق.م تقريباً، كان مكرساً لهذا الإله الذي يظهر هـنا فـي منظر جانبي للنصف الأيمن من الوجه وهو يجلس علي عرش مزود علي الجانبين برسـم لاثنـين مـن أبي الهول المجنح، و على رأسه غطاء طويل شرقي الطابع، مخروطي الشكل ، و تدل ذقنه ورداءه الطويل علي أنه ذو أصل فينيقي. و يمسك في يده اليسرى بحربة طـويلة، بيـنما تـبدو يده اليمني كمن يقوم بمنح البركة والنعمة لمتعبد يقف أمامه. ويبدو أن المـشهد كان يدور في مكان يشبه المعبد. و يلاحظ أن قرص الشمس المجنح يظهر في هذه اللوحة[٤٠] (انظر شكل رقم ٢٠).

ولقـد تم مماثلة بعل حمون بالإلهين كرونوس (***Kronos***) وساتورن (***Saturn***) [٤١]. ومن ثم يعتبـر بعـل حمـون إله للزراعة والخصوبة والمسئول عن ثراء المدينة وحمايتها. و الجدير

---

(٣٨) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، نفس المرجع.

(٣٩) محمـد بيومـي مهران، المدن الفينيقية، ص ٣٤٠ ؛ انظر أيضا:- رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ص ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢ ؛ وأيضا:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١١٨.

(40) Lancel. S,OP. Cit., PP. 197, 198.

انظر أيضا:- فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٤٢.

(41) Warmington. B.H, Op. Cit., p. 129.

انظر أيضا:- ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ١٤٣.

بالملاحظـــة أن هــذا الإله تم تصويره علي بعض قطع العملة المكتشفة في هادروميتوم وهو ممـــسكاً بــبعض ســـنابل القمح[٤٢]. وربما تماثل قبل ذلك مع الإله "زيوس"، وذلك لأنه الإله الرئيـــسي الذي ذكر فيما يتعلق بقسم هانيبال(*Hannibal*) عن العداوة المستمرة ضد روما، الــذي تــم أمـــام محـــرابه[٤٣]. وكـــان لـــبعل حمـــون معابـــده ومحاريبه علي جبل بوقرين (Boukornein) (الــذي يــشرف علي قرطاجة عبر الخليج) [٤٤]. ولكن يبدو أن هذا الإله قد تعـــرض لأزمة عقائدية أدت إلى تراجع مكانته العليا التي كان يحتلها في مجمع الآلهة البونية وبـــروز تانيت وتفوقها عليه في المكانة، وذلك ابتداء من القرن الخامس ق.م فقبل هذا التاريخ كـــان بعل حمون يظهر بمفرده دائماً علي كثير من النصب النذرية المكرسة له، ولكن بعد ذلك شـــاركته تانـــيت في الظهور علي هذه النصب، بل وسبق اسمها اسمه في النصوص المنقوشة علي النصب النذرية. ومن أمثلة هذه النصوص، التي عثر عليها بالآلاف سواءً داخل قرطاجة أو خارجها، ما يلي:- "**إلى الإلهة تانيت بينيبعل وإلي الرب بعل حمون هذا ما نذره عرس بن عـــبد ملقـــرط**"[٤٥]. وربمـــا كان ذلك نتيجة للإصلاح الديني والسياسي الذي حدث في أعقاب هزيمة القرطاجيين في معركة هيميرا الشهيرة (عام ٤٨٠ق.م) والتغييرات الكثيرة التي حدثت في كافة المجالات في قرطاجة[٤٦].

احـــتلت تانيت مكانة مرموقة في مجمع الآلهة البوني، وهي تعتبر الشريك الإلهي لبعل حمـــون حيث كوناً معاً ثنائيا مقدسا تربع علي عرش الحياة الدينية في قرطاجة والعالم البوني بأســـره. بـــيد أن عـــبادة الإلهـــة تانـــيت انطوت علي كثير من الصعوبات والفرضيات التي، وللأســـف، لـــم يـــنعقد الاتفاق بشأن معظمها (إن لم يكن كلها). وأول هذه الصعوبات، والتي أثـــارت جدلا كبيرا بين الباحثين هي مسألة تحديد أصل الإلهة تانيت، هل هي شرقية فينيقية أم غـــربية ليبـــية بربرية ؟ . فبينما يري البعض شرقية هذه الإلهة[٤٧]، يري البعض الآخر أنها غـــربية [٤٨]. ولقـــد استند أصحاب الرأي الأول إلى النقيشة المكتشفة في ساربتا (*Sarepta*) (١٥ كلـــم جنوب صيدا) عام ١٩٧٤، وهي ترجع إلى أواسط القرن السادس ق.م و اعتبروها

---

(٤٢) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٧٧.

(43) Harden. D, The Phoenicians, P. 87 ; CF. Polybius, III, 11.3.

(44) Powell. E.A, Op. Cit., P. 60.

(٤٥) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١١٧.

(46) Moscati. S, OP. Cit., P. 124 .

انظر أيضا:- الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(47) Harden. D, The Phoenicians, P. 87 ; CF. Lancel. S, OP. Cit., P. 199 ; CF. Moscati. S, OP. Cit., P. 138.

انظر أيضا:- جان مازيل، المرجع السابق، ص ١٥٩؛ وأيضا:- نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص ٧٠.

(48) Warmington. B. H, OP. Cit., P. 130.

انظر أيضا:- محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية، ص ٣٤١.

دلـــيلاً قـــويا لتأييد وجهة نظرهم الخاصة، حيث ذكرت هذه النقيشة اسم الربة تانيت لأول مرة فـــي نذر كان مكرساً لها وللإلهة عشترت في نفس الوقت. ومما يؤيد هذه الفرضية ويزيد من قـــوتها وجـــود أماكن كثيرة في لبنان باسم الربة تانيت مثل عين تانيت وكفر تانيت، بالإضافة إلى النقش البوني الذي يشير إلى وجود تانيت بلبنان(٤٩).

أمـــا أصحاب الرأي الثاني فقد استندوا إلى اسم تانيت، من حيث أنه ذو أصل وجذور ليبيـــية(٥٠)، كمـــا اســـتندوا أيـــضاً إلى عدم الإشارة إلى هذه الربة في نصوص رأس الشمراء وصـــور وغيـــرها، ممـــا جعلهم يعتقدون أنها غير فينيقية الأصل. بل ورأوا أيضا في عبادة البربر لها دليلا قويا علي كونها بربرية الأصل(٥١).

وبعد أن عرضنا لوجهات النظر المختلفة حول أصول هذه الربة يبدو أن الاتفاق لم ينعقد بين الباحثين. ولكن في الواقع، يبدو أن الميزان يميل لصالح شرقية هذه الإلهة، حيث اعتمد أصحاب هذا الرأي علي اكتشافات أثرية مؤكدة وليس مجرد تخمينات وافتراضات لم يتم تدعيمها بدرجة كافية. وكانت تانيت تذكر دائماً في النصوص النذرية التي جمعت بينها وبين بعل حمون بجملة وصفية هي "**تانيت بيني بعل**" (***Tanit Pene Baal***) وتعني "**تانيت تجاه بعل**(٥٢)" بينما يري البعض الآخر أنها تعني "**تانيت وجه بعل**(٥٣)". ولقد اختلف الباحثون حول تفسير هذه الجملة، فاعتقد البعض أنها تعني "صورة" أو "واجهة" لبعل(٥٤)، بينما رأي البعض الآخر أنها تعبر عن اسم مكان(٥٥) ، واعتقد أيضا أنها ربما تعني "قرينة بعل(٥٦)".

ولكن مؤخراً تم تقديم تفسير آخر رأي أصحابه أن هذه الجملة يجب أن تترجم بمعني "**الكاهـــنة التي تبكي في وجه الإله بعل**" وذلك بعد أن تم إرجاع اسم تانيت إلى الأصل السامي الذي يعني "**البكاء أو النحيب**(٥٧)". وأخيراً، أعتقد أن عبارة "تانيت وجه بعل" توحي بأن الهدف من وراء إدخال عبادة هذه الربة كان من أجل تعزيز عبادة الإله بعل حمون، وأنها بالرغم مما

---

(٤٩) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٧٩؛ ولمزيد من الأدلة حول هذا الموضوع، انظر:-
Soren. D, Khader.A & Slim. H, Carthage (Uncovering The Mysteries And Splendors Of Ancient Tunisia), London & New York, 1991, P. 133.

(50) Picard. G & C, OP. Cit., P. 79.

(٥١) رشـــيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ٢٠٨؛ انظر أيضا:- محمد بيومي مهران، المغرب القديم، ص ٢١٢؛ ولمزيد من الأدلة حول هذا الموضوع، انظر أيضا:- الأمين علي الأمين، المرجع السابق، ص ص ٧٩- ٨٣.

(٥٢) ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(53) Warmington. B. H, OP. Cit., P. 129.

(54) Harden. D, The Phoenicians, P. 88.

(٥٥) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ١١٥، ١١٦.

(٥٦) ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ١٤٤.

(57) Lancel. S, OP. Cit., P. 200.

انظر أيضا:- الأمين علي الأمين، المرجع السابق، ص ٨٥.

وصلت إليه من مكانة وأسبقية علي بعل حمون نفسه علي آلاف النصب النذرية التي تم العثور عليها داخل قرطاجة وخارجها؛ فإن العبارة سالفة الذكر تدفع للقبول بوجود نوع من التبعية(٥٨).

و لقد كانت تانيت إلهة الخصوبة، والأمومة، والإنتاج، والتناسل عند القرطاجيين. ولقد تم مماثلة هذه الربة بكثير من الربات الأخريات اللاتي كان يحملن نفس صفات الأمومة والخصوبة مثل عشترت، وهيرا، كما ماثلها الرومان "**بجونون كايليستيس**" *(Caelestis Junon)* ربة المستعمرة القرطاجية التي نظمها **جايوس جراكوس** *(Gaius Graechus)*. وفي منطقة "الحفرة" (قرب قسنطينة) تم اكتشاف نصب نقرأ عليه:- " **إلى بعل وتانيت وذريتهما**" وهذا يفسر سبب الاحترام البالغ الذي كانت تلقاه تانيت في جميع الأوساط الاجتماعية في قرطاجة(٥٩). كما تم تصويرها أيضاً في صورة امرأة ترضع طفلها، ويوجد هذا التمثال حاليا في متحف باردو(٦٠)(انظر شكل رقم ٢١). كما تم مماثلة هذه الربة أيضا بالإلهة إيزيس المصرية لوجود تشابه كبير بين الاثنتين، من حيث صفات الأمومة والخصوبة.. إلخ. ولقد صورت الإلهة تانيت علي كثير من شفرات الحلاقة والآثار القرطاجية في شكل وقدرات إيزيس(٦١).

أما رموز الإلهة تانيت فكانت كثيرة ومنها، علي سبيل المثال، الحمامة، والرمان، والنخلة، والعنب(٦٢)، والسمك. ومن الواضح أنها تؤيد وظائفها وصفاتها كإلهة للخصوبة. وهناك رمز آخر ارتبط بتانيت هو "القارورة"، تم العثور علي مثيله في الشرق، كما كان الهلال أيضا أحد رموز هذه الربة (أحياناً يكون مقلوبا فوق قرص الشمس) (٦٣). بيد أن هناك رمز آخر مرتبط بعبادة تانيت مازال شائعاً ومستخدماً إلى يومنا هذا في كثير من البلاد العربية، ألا وهو الرمز المعروف باسم "يد فاطمة(٦٤)". وهو عبارة عن يد مفتوحة وأصابع

---

(٥٨) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٧٩ .

-CF. Warmington. B. H, Loc. Cit.

(٥٩) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٦٠) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٦١) آمال سعيد محمد نور، صورة الربة إيزيس علي التمائم والجعارين المصرية في قرطاج، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٩٣، ص ص ٩٣- ٩٥، ٩٩.

(62) WWW. Carthage. edu.

(63) Moscati. S, OP. Cit., P. 139.

(٦٤) يعتبر المسلمون أن هذا الرمز يقصد به يد فاطمة بنت النبي (صلي الله عليه وسلم)، علماً أنها ولدت في مكة سنة ٦٠٦ ميلادية على حين أن نصب قرطاجة التي يوجد عليها هذه اليد تعود إلى القرن الخامس ق.م، أي أن التفاوت الزمني يبلغ أكثر من ألف سنة. انظر:-

جان مازيل، المرجع السابق، ص ١٥٩.

ممــدودة وإبهــام مطــوي قليلاً، ويعتبر كرمز للحماية من المؤثرات السيئة[٦٥]. و لعل أشهر الــرموز المتصلة بعبادة الربة تانيت علي الإطلاق، هو الرمز الذي يعرف باسم "**علامة تانيت**" و هــو عــبارة عــن مثلث تعلوه دائرة ويفصل بين الاثنين خط أفقي. والرمز في جملته يعطي صــورة امــرأة ممثلة بطريقة بسيطة جداً ممدودة الذراعين (أحياناً تكون مرفوعة إلى أعلي) (انظــر شــكل رقــم ٢٢). إن أصل ومدلولات هذا الرمز أثارت الكثير من الجدل والمناقشة. ويري البعض أنه شديد الشبه بعلامة "عنخ" المصرية التي ترمز للحياة. ولكن ليس هناك دليل قاطع علي أنه مشتق منها سوي أنه يشبهها في الشكل، ولم يوجد هذا الرمز إلا في الغرب فقط ولا نجــد لــه أثراً قبل القرن الخامس ق.م[٦٦]، ولكن هناك رأي آخر يجزم بأنه قد تم العثور علي هذا الرمز حديثاً في **هنويه** *(Hanaoue)*علي الطريق بين صور وقانا *(Kana)* منقوشاً عــند مدخل قبر[٦٧]. وهذا يعد دليل علي وجود عبادة هذه الربة في الشرق؛ مما قد يؤيد وجهة النظر القائلة بشرقية هذه الإلهة.

ولقــد ارتــبطت عــبادة كــلا من بعل حمون وتانيت بما اصطلح علي تسميتها بعادة "القــرابين البشرية"، وهي العادة التي تسببت في توجيه الكثير من النقد والتجريح للحياة الدينية القــرطاجية خاصــة، والفينيقــية عامة، حيث تم اتهامهم بالوحشية والقسوة علي يد الكثير من المؤرخــين القدامى والمحدثين علي حد سواء. وفي هذا الصدد، ينادي البعض بضرورة النظر إلى تلك القرابين البشرية، لدي بحثها ومناقشتها، بمنظار الزمان الذي قدمت فيه، لكي نستطيع أن نــصدر حكمــاً عادلاً بشأنها و لكي ندرك أيضاً بأية قيم روحية كانت ترتبط هذه القرابين. وبالنتيجة فإن هذه القيم الروحية ستكون في النهاية قريبة جداً من قيمنا نحن الآن. إذ أننا نحبذ في عصرنا هذا أن تكون التضحية بالنفس هي أروع التضحيات التي يمكن أن نقدمها من أجل هدف نبيل. فالموت مثلا من أجل الوطن يمثل ذروة الأخلاق النبيلة[٦٨].

ومــع ذلــك، لــم يكــن الفينيقيون والقرطاجيون فقط هم الذين مارسوا هذه الطقوس القــربانية البــشرية؛ فلقد مارسها الكثير من شعوب الشرق الأدنى القديم مثل السومريون في العــراق، وفي السودان، وبنو إسرائيل، والعرب القدماء، وسكان المغرب قبل قدوم الفينيقيون، وأيــضاً الكنعانيون حيث كانت التضحية بالطفل البكر عرفاً جارياً لديهم في العصر العتيق فقد

---

(٦٥) نفسه.

-CF. Harden. D, The Phoenicians, PP. 88, 89.

(٦٦) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٤٨.

ولمزيد من المعلومات حول هذا الرمز ومدلولاته الأخرى، انظر أيضا:-

Lancel. S, OP. Cit., PP. 201- 203.

(٦٧) ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٦٨) جان مازيل، المرجع السابق، ص ١٦٠.

عثـر علـي عظـام أطفال في حالة بلاء واضح، مودعة في أسس المنازل[٦٩]. ومن الجدير بالذكـر أن، عـدداً آخـر مـن شعوب البحر المتوسط مارست هذه العادة في أوقات ما مثل اليونانـيون والـرومانيون. ولكـن الغالبـية العظمي من تلك الشعوب سرعان ما أقلعت عن ممارسـتها فـي المراحل الأولى المبكرة من تاريخها (وأحياناً قبل بدء عصورها التاريخية)، ولكـن في روما تأخرت نوعاً ما. وفي أوقات النكبات الكبرى عندما يكون الشعور الديني قوياً يـتم العودة إليها، كما حدث بعد معركة كاناي في عام ٢١٦ق.م، عندما تم دفن اثنين من الغال واثنين من اليونان أحياء في الفوروم[٧٠]. بينما داوم الفينيقيون والقرطاجيون علي ممارسة تلك العادة حتى العصور القريبة، حيث روي فيلون الجبيلي (٦١- ١٤١م) أنه كان من عاداتهم في حالـة الأخطـار العامة أن يضحوا بأعز أبنائهم لإبعاد الكوارث عن أنفسهم[٧١]. وبالرغم من ذلـك، هناك من ينسب إلى الفينيقيين وحدهم عار ممارسة القرابين البشرية ويُلقي باللوم عليهم فقط دون غيرهم من الأمم والشعوب القديمة[٧٢].

وكانت هذه القرابين سنوية (حيث كان يتم تقديم طفلين ذكرين علي الأقل كل سنة قربانا) [٧٣] وتـؤخذ دائمـاً من الأطفال الذكور، كما كانت إجبارية علي العائلات الكبيرة في المدينة. ومع ذلـك، لـيس مـن الواضح لأي مدي كان هناك إجبار شرعي علي أي أسر معينة تسليم طفل للتـضحية بـه. من المحتمل أنه نظرياً كان يجب علي كل المواطنين الكاملين أن يشاركوا في هـذه الممارسـة[٧٤]. وكان معظم الأطفال الذي يضحي بهم دون الثانية، وإن كانت هناك قلة ضـئيلة تـصل إلى عمر الثانية عشرة[٧٥].وهناك رأي آخر يري أنه كان من الممكن أن تضم هـذه القرابين عبيد، وأسري حرب، وأيضا فتيات كبار في سن الزواج[٧٦]. أما مسألة إجبارية هـذه القـرابين فقد تعرضت للنقد، حيث يذكر البعض أنه لم يرد في أي من النصوص ما يفيد باجباريتها أو أنها كانت بمثابة عرف لكي نستنتج أن الأسر كان عليها أن تضحي بشكل منتظم بواحد من أبنائها[٧٧].

---

(٦٩) محمد بيومي مهران، المغرب القديم، ص ص ٢١٧- ٢٢٣.

(70) Warmington. B. H, OP. Cit., P. 131.

(٧١) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٠٢.

(٧٢) ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٧٣) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ١٢٠.

(74) Warmington. B. H, OP. Cit., P. 132 ; CF. Soren. D, Khader. A & Slim. H, OP. Cit., P. 130.

(٧٥) نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص ٨١.

(76) Powell. E. A, OP. Cit., P. 61.

(٧٧) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٤٧.

بـــيد أن الهدف من ممارسة هذه العادة كان من أجل المحافظة علي قوة وفاعلية الآلهة عن طريق إمداد مستمر من الدم، وذلك لكي يستمر نشاطهم الخاص بالحماية والخصوبة. فكل النـــصب المكتشفة تقريباً تسجل أن القربان كان يتم وفاءاً للنذر لاستلام مساعدة إلهية. وربما، فـــي أحـــيان أخرى، كان من أجل إرضاء تلك الآلهة وتهدئتها(٧٨). ولقد ورد ذكر تلك القرابين البشرية في بعض النصوص الأدبية القديمة أهمها ما رواه ديودورس الصقلي أثناء حديثه عن حملة أجاثوكليس طاغية سيراكوزا علي قرطاجة في عام ٣١٠ق.م، حيث يشير إلى أن ما حل بالقــرطاجيين هــو نتــيجة غضب الإله عليهم ويرجع هذا الغضب إلى لجوء القرطاجيين إلى الخـــداع تجنـــبا لتقديم أطفالهم كقرابين للآلهة، وذلك بأن عمدوا إلى شراء أبناء العبيد والفقراء لـــتقديمهم بـــدلاً من أبنائهم الحقيقيين، وعندما كشف هذا التلاعب تقرر اختيار مائتي طفل من أرقـــي الأسر في المدينة وتقديمهم كقرابين باسم الدولة، وفي نفس الوقت خف ثلاثمائة متطوع بمحـــض إرادتهم لتقديم أنفسهم كقرابين إلى الإله(٧٩). وهذا النص له أهمية كبري، لأنه بمثابة دلـــيل قـــوي علـــي ممارسة القرطاجيين لعادة التضحية البشرية بأطفال صغار، وهو ما أكدته المكتـــشفات الأثـــرية بما لا يدع مجالاً للشك. وأول هذه المكتشفات هي النصوص التكريسية لـــبعل حمـــون فـــي البداية ثم لتانيت اعتباراً من القرن الخامس ق.م، وتحتوي هذه النصوص الدينـــية علـــي صيغ تشفيعية وإسترضائية لهما وهي ذات صيغة ثابتة (كما سبق وأن أشرنا)، "**إلى السيدة تانيت وجه بعل، وإلي السيد بعل حمون**". ولقد وردت هذه النصوص علي الآلاف مـــن النـــصب التي كانت تنتصب فوق المرامد التي تحتوي علي بقايا الضحايا المحترقة(٨٠). ومن الجدير بالذكر، أنه تم العثور علي كلمة مولك (***Molock***)أو ملك (***Molk***) في كثير من هـــذه النـــصوص الموجودة سواءً في قرطاجة أو في غيرها من الأراضي البونية، وكانت هذه الكلمة تفسر علي أنها اسم الإله الذي لا يهدأ سخطه إلا بتقديم القرابين البشرية، ولكن فيما بعد علمـــنا، بفـــضل ما وصل إليه الباحث الألماني ايسفلد (***M.O.Eissfeld***)، أن تلك الكلمة تدل علـــي القربان أي علي الضحية نفسها لا علي المعبود الذي كان يطالب بها(٨١). ويري البعض أن كلمـــة مُلك (***Molk***) هي كلمة ملكية، ولذلك يُعتقد أن الضحية من العائلة الملكية وأنه مُقدم من قبل شخص من نفس تلك العائلة(٨٢).

---

(78) Warmington. B.H, Loc. Cit. ; CF. Khader. A & Soren. D, OP. Cit., P. 42.

(٧٩) الأمين علي الأمين، المرجع السابق، ص ١٠٧.

-CF. Perry. A, Op .Cit., PP. 35, 36.

(٨٠) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٨١) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١١٩.

(82) Soren. D, Khader. A & Slim. H, OP. Cit., P. 138.

ومـــن المكتشفات الأثرية الأخرى الهامة التي تؤكد علي ممارسة القرطاجيين للقرابين البــشرية مـــا أصـــطُلح علـــي تسميتها "**بلوحة الكاهن**" التي يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الخـــامس أو أوائل الرابع ق.م، وهي تمثل كاهنا يرتدي جبة شفافة من كتان، ويرفع يده مبتهلا ومتـــضرعا إلـــى الإله ويحمل طفلا صغيراً ليقدمه له قربانا(٨٣)(انظر شكل رقم ٢٣). و لعل أكثر هذه المكتشفات الأثرية أهمية علي الإطلاق هو اكتشاف المعبد الذي كانت تُؤدي فيه هذه القـــرابين البـــشرية، وقـــد أطُلق عليه اسم "**التوفيت**" (***Tophet***) وهو عبارة عن فضاء مقدس فـــسيح (انظر شكل رقم ٢٤). ويري البعض أن تسمية التوفيت مأخوذة أصلا من التوراة التي تـــتحدث عن مكان يحمل اسم "**تفت**" يوجد في وادي حنوم (***Hinnom***) قرب القدس حيث كان يتم تقديم الأطفال كقرابين إلى الإله "مُلك" (٨٤). أما معني الكلمة نفسها، فيعتقد البعض أنها ربما تكون مرتبطة بالكلمة الآرامية "توفة" "***Topha***" والتي تعني "تضع علي النار" وأيضا باللفظة "تيفاية" "***Tephaya***"والتي تعني "نار الموقد"(٨٥).

ولقـــد تم اكتشاف هذا التوفيت في عام ١٩٢١م، وهو يمتد بشكل مواز للشاطئ الغربي للمـــرفأ الـــتجاري علـــي شـــاطئ سالامبو (جنوب المدينة). ولقد بلغ أقصي امتداده في أكثر الفتـــرات نمـــواً وانتـــشاراً حوالي ٦٤,٠٠٠ قدم مربع(٨٦). و في هذا التوفيت تم العثور علي الآلاف مـــن المرمدات التي كانت تحتوي علي بقايا الأطفال المحترقة، و بقايا محترقة لطيور وحيوانات صغيرة كأضحيات بديلة. ولقد تواصل استخدام هذه التوفيت منذ بداية تاريخ المدينة وحتـــى ســـقوطها فـــي عام ١٤٦ ق.م، وهو مكون من ثلاثة أو أربعة مستويات فقط. يرجع المستوي الأقدم إلى القرن الثامن وبداية السابع ق.م، ويحتوي علي مرا مد فخارية من الأنواع المبكرة، ذات لون أحمر مع خطوط طولية سوداء اللون، مغطاة بكومة من الأحجار الصغيرة. أمـــا المستوي الثاني، فينفصل عن الأول بواسطة طبقة من الطين الأصفر اللزج، و يعود إلى الفتـــرة الممـــتدة بـــين منتـــصف القرن السابع وحتى القرن الرابع ق.م، وفيه تضاعفت أعداد المرامد بمقدار أربعة أو خمسة مرات ولكنها كانت أكثر بساطة وتمتد تحت طبقة من الأحجار الجيـــرية تتخذ شكل أنصاب، وأحياناً كان يوضع مجموعة من المرامد تحت نصب واحد. ولقد شـــهد هذا المستوي تطوراً حدث أثناء القرن الخامس، من حيث تغيير تلك الأنصاب من الشكل

---

(٨٣) أحمـــد صفر، المرجع السابق، ص ١٢٠، انظر أيضا:- الأمين علي الأمين، المرجع السابق، ص ص ١١١، ١١٢.

-CF. Picard. G &C, OP. Cit., P. 74.

(84) Harden. D, The Phoenicians, P. 94 .

انظر أيضا:- الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٨٠.

(٨٥) الأمين علي الأمين، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(86) Soren. D, Khader. A & Slim. H, OP. Cit., PP. 123, 125, 139 ; CF. Lancel. S, OP. Cit., P. 228 ; CF. WWW. Carthage. edu.

المعــتاد إلى أنصاب تتخذ شكل مسلات مدببة القمة. أما المستوي الثالث والأخير، فقد بدأ علي الأرجــح حوالي عام ٣٠٠ ق.م أو بعد ذلك بفترة قصيرة، ويمثل المائة وخمسين سنة الأخيرة فــي عمر المدينة القرطاجية. ويتميز هذا المستوي بوجود مرامد أصغر ونصب أقل. وبالطبع استمر استخدامه حتى سقوط المدينة في عام ١٤٦ ق.م(٨٧).

لقــد كانت طقوس هذه العبادة تتم ليلاً، علي ما يبدو، حيث كان عازفو الناي وقارعو الطــبول يجلــسون أمام التوفيت، وكان علي آباء الأطفال الذين سيضحي بأبنائهم أن يحافظوا علــي رباطــة جأشهم ويمتنعوا عن البكاء، ذلك أن البكاء يقلل من قيمة القربان. أما الأم فكان علــيها هــي أيــضاً أن تــداعب طفلها حتى لا يصدر أي نحيب، وفي اللحظة الموعودة تقوم بتــسليمه إلــى أحد الكهنة، وبدون شك، كان يتم ذبح الطفل أولاً ويوضع الجسد بعد ذلك علي يــدي التمثال ليدور ويسقط في النار؛ وهذا التمثال كان لبعل حمون، وهو من البرونز وكانت يــداه ممــدودتان بشكل منحني نحو الأرض، وراحة كفيه إلى الأعلى، بحيث كان الطفل الذي يوضع فيها يدور ليسقط في حفرة مليئة بالنار (كما سبقت الإشارة).

ومــن الجديــر بالذكــر، أنــه قد تم العثور علي نظائر لتوفيت قرطاجة في كل من هادروميــتوم (سوســة)، وموتــيا فــي صــقلية، وســردينيا في مدن "نورا"، و"كاغلياري"، و"سولــسيس"، و"مونتي سيري"، وأكبرها كان يوجد في "ثاروس". وهذا يدل علي أن ممارسة هذه القرابين كانت شائعة في كل مكان، وأنها كانت عنصراً أساسياً ومميزاً للديانة البونية (٨٨).

ثــم بــدأت عــادة التضحية بأطفال صغار تضعف منذ بداية القرن السادس ق.م لتحل محلها التضحية بطيور وحيوانات صغيرة. ففي توفيت هادروميتوم مثلاً كانت المرامد في المستويات المبكــرة (القــرن الــسادس والخامس) تحتوي علي عظام آدمية، فقط، لكن في القرن الرابع وجدت عظام حيوانية مختلطة مع أخرى بشرية أو بمفردها. وفي المستويات المتأخرة وجدت فقــط عظــام حيوانــية أشهرها الخراف (**ملكمر**) (***MLKMR***) (التي تحولت إلى مولخومور ***Molchomor*** في اللاتينية في العصور الرومانية في شمال أفريقيا) وتعني "**قربان نذري من الخراف**"(٨٩). بيد أنهم كانوا أحياناً يلجأ ون إلى حيلة حقيقية وذلك بتقديم "أجنة مجهضة"، ولكن يبدو أن هذه القرابين كانت تعد غير مقبولة للآلهة(٩٠).

---

(87) Harden. D, The Phoenicians, PP. 95, 97, 98, 101 .

ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر :-

Picard. G & C, OP. Cit., PP. 35- 39 ; CF. Soren. D, Khader. A & Slim. H, OP. Cit., PP. 133- 136 .

وأيضا:- الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ص ٢٨٢- ٢٨٤.

(٨٨) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ص ١٤٧، ١٤٨، ١٥١.

(89) Warmington. B.H, OP. Cit., PP. 131, 132.

(90)Khader. A & Soren. D, OP. Cit., PP. 41, 42.

ومـــع ذلك، فإن الطريقة القديمة (القرابين البشرية) لم تندثر فلقد استمرت حتى سقوط مديـــنة قرطاجة. وقد أفادت الفحوص إلى أجريت علي العظام المكتشفة في توفيت قرطاجة أن ١٣% فقــط منها تضم عظام حملان وصغار ماعز، وأن ٨٥% تضم عظام أطفال صغار [٩١]. ومـــن الأهمـــية بمكان الإشارة إلى أن عادة تقديم القرابين البشرية إلى الآلهة قد استمرت في قـــرطاجة تحت السيادة الرومانية في شمال أفريقيا، كما أكد علي ذلك تيرتوليان *(Tertullian)* (أول أب أفريقي للكنيسة) [٩٢].

كـــان القـــرطاجيون شـــديدي التمسك بمعتقداتهم الدينية الشرقية التي جلبوها معهم من وطـــنهم الأم إلـــى شمال أفريقيا، ولذلك يبدو أن ديانة قرطاجة ظلت شرقية في جوهرها، وقد عملـــوا علي ترسيخ هذه المعتقدات الشرقية في وطنهم الجديد. ويكفي الإشارة في هذا الصدد إلـــى أن كـــل الآلهـــة القرطاجية تقريبا تجد امتداداً لها في الشرق عامة وفي الساحل الفينيقي خاصـــة. ولكن علي الرغم من تمسك القرطاجيين بعباداتهم الشرقية فإن ذلك لم يمنعهم أحياناً مـــن الانفـــتاح علي ديانات أخرى مجاورة [٩٣]. ولذلك إذا نظرنا إلى مجمع الآلهة القرطاجية فإنـــنا سوف نلاحظ وجود آلهة شرقية فينيقية بالإضافة إلى آلهة أخرى أجنبية يونانية ومصرية عُـــبدت كلها في قرطاجة جنبا إلى جنب، وإن كان هناك تفاوت كبير في الشهرة والشعبية من إله إلى آخر، وفيما يلي سوف يتم الإشارة إلى هذه الآلهة كلها ولو بصورة موجزة. وأول هذه الآلهة وأكثرها شهرة في قرطاجة علي الإطلاق هو الإله ملقرت.

كـــان ملقـــرت إلـــه مدينة صور الوطن الأم لقرطاجة، وهو يقابل هرقل لدي اليونان، واســـمه مكون من كلمتين هما (ملك + كرت) بمعني "ملك أو إله المدينة" وكان أصلاً معبوداً شمسياً ثم اكتسب خصائص بحرية بعد أن انتقل عبر البحر غرباً. ولقد وجدت عبادته في أكثر مـــن مكان في الغرب مثل قرطاجة، وقادس حيث كان له معبد أسسه فينيقيو صور منذ القرن الثانـــي عـــشر، وكـــان لملقـــرت كـــذلك معبد آخر بالقرب من لكسوس علي شاطئ المحيط الأطلسي [٩٤].

ويـــؤكد بعـــض الباحثين أن الثورة الدينية التي حدثت في القرن الخامس في قرطاجة أحـــدثت تغييراً جوهرياً في الديانة الفينيقية في قرطاجة كان من نتائجه تراجع الثنائي الشرقي ملقـــرت وعـــشترت أمام بعل حمون وتانيت بيني بعل. ومثل هذا التغيير يعني انقطاع الصلة

---

(٩١) ج. كونتنو، المرجع السابق، ص ١٦٦.

(92) Lancel. S, Op. Cit., p. 228 ; CF. Soren. D, Khader. A & Slim. H, Op. Cit., PP. 143, 144.

(٩٣) الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٣٠٣.

(٩٤) نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص ٨٠.

الدينية بين قرطاجة والمدينة الأم، وأنه قد صاحب هذا التغيير انتشار للأفكار الدينية في مصر وليبيا، وأن هذا التغيير الديني لم يخل من رد فعل سياسي أدى إلى انقسام بين بعض الأسر الكبيرة، فمنها من تمسك بالآلهة القديمة مثل ملقرت ومنها من اعتنق عبادة الآلهة الجديدة التي شاعت وانتشرت(٩٥).

ويري البعض أن فقد ملقرت لمكانته في قرطاجة دليل واضح علي انتهاء الملكية (حيث كان يعد حامي وراعي لها) وتأسيس حكومة جمهورية أوليجاركية فيها(٩٦). وكان من ألقاب ملقرت في قرطاجة "باعث الآلهة، وزوج عشترت". أما الرمز الذي كان يدل عليه فكان عبارة عن شفرات حلاقة من البرونز، وكان أحدها يمثل الإله واقفاً، ويوجد أسفله زهرة اللوتس، ويرتدي غطاء رأس مخروطي الشكل وثوب طويل وخفيف، ويمسك في يده اليمني فأس مثقوب. ولقد عثر علي هذه الشفرة في جبانة سانت مونيك(٩٧). و ظلت قرطاجة ترسل في كل سنة القرابين لمعبد ملقرت في صور وتقدم له الولاء لعدة قرون (منذ تأسيس قرطاجة وحتى القرن الخامس ق.م تقريباً)، وقد ظهر اسم هذا الإله في عدد من أسماء الأبطال في التاريخ القرطاجي مثل هاميلكار وبوميلكار(٩٨).

أما الإلهة عشتارت أو عشتار (وجمعها عشتاروت) فهي الصفة المؤنثة من البعل، أي بعلة، أو السيدة، وأصبح نطق لها، فيما يري البعض "عشترة" (بتاء التأنيث)- كما جاء في رسائل تل العمارنة(٩٩). ولقد تم مماثلتها في وقت مبكر مع أفروديت اليونانية. بيد أن عبادتها لم تكن منتشرة في العالم القرطاجي منذ أن كانت أكثر وظائفها أهمية، وهي تأمين الخصوبة، قد انطبقت علي تانيت. وكان أشهر مكان لعبادتها في الغرب (داخل المجال القرطاجي) في إيريكس (Eryx)، كما كان لها معبد في قرطاجة(١٠٠).

وكان الإله أشمون سيد مدينة صيدا، وقد ماثله اليونان بإلههم "**اسكلبيوس**"، الذي يشرف علي الشفاء، هذا فضلاً عن خصائص الخصوبة التي عرفت عنه، ومن ثم كان إله الطب. ويعتقد "**ليذر بار سكي**" أن اسمه صيغة مشتقة من "شيم" بمعني الاسم الأعظم، ومن ثم فلفظة أشمون تعد مجرد صفة كمعظم الأوصاف التي تطلق علي الآلهة الأخرى. ويبدو أن أشمون قد أصبح معبوداً أكثر قوة في قرطاجة، ولعله قد فاق المعبود ملقرت نفسه، فلقد وقف

---

(95) Harden. D, The Phoenicians, P. 89.
(96) Picard. G & C, Op. Cit., P. 62.
(97) Lancel. S, Op. Cit., PP. 205, 207.

(٩٨) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٤٥.
(٩٩) محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية، ص ٣٤١.

(100) Warmington. B. H, Op. Cit., P. 130.

القرطاجيون في دفاعهم الأخير عن مدينتهم في عام ١٤٦ق.م، عند معبد أشمون الذي كان في قلعة بيرسا- أقدم جزء في قرطاجة[١٠١].

ومـــن الآلهـــة الفينيقـــية الـــشرقية الأخـــرى التي عُبدت في قرطاجة، الإله "**رشف**" (*Resheph*) وهـــو إله البرق والضوء، ومن ثم تمت مماثلته بالإله "**أبو للو**". وكان معبده في قـــرطاجة يقـــع بين منطقة المواني‌ء وبيرسا[١٠٢]. كما وجدت عبادة الإله أدونيس طريقها إلى قـــرطاجة، وقد ماثله الرومان بمعبود هم مركور، واسم أدونيس مشتق من كلمة سامية معناها "ســـيد"، وهـــي كلمـــة "أدون"، والأصـــل في أدونيس هو "أدوني" "سيدي" فحرف في اليونانية واللاتينـــية إلـــى أدونيس[١٠٣](*Adonis*). وكانت له أعياد سنوية تسمي "**الأدونيات**"، وكان يتم تصويره في الأسطورة الخاصة به علي هيئة شاب وسيم قتله خنزير وحشي كان يصيده[١٠٤].

ومـــن الآلهـــة الأجنبـــية التي وُجدت عبادتها في قرطاجة الإلهتين اليونانيتين "**ديميتر**" (*Demetre*) و"كـــوري" (*Kore*). فلقد تم اعتماد طقوس هاتين الإلهتين رسميا في عام ٣٩٦ ق.م، عـــندما فـــرض القـــرطاجيون الحصار علي مدينة سيراكوزا وحدثت كارثة كان سببها انتـــشار وباء أباد قسماً من جيوش القائد هيملكو، وكان الجنود قد نهبوا معبدين لهاتين الإلهتين أمـــام أســـوار المديـــنة المحاصرة، فأعتقد القرطاجيون أن ما حل بهم من مصيبة يرجع إلى غـــضب هاتـــين الإلهتـــين عليهم، ولذلك قرروا التكفير عن ذلك باعتناق عبادتهما رسمياً في المديـــنة محاولـــة منهم لإرضائهما[١٠٥]. ويقع معبد ديميتر فوق هضبة سانت مونيك المشرفة علـــي البحر ليس بعيداً عن موقع بلدة سيدي بوسعيد الحالية. وكانت ديميتر إلهة الأرض، ومن ثم إلهة الخصب والزراعة والنباتات[١٠٦].

ومـــن الجديـــر بالذكـــر أن بعـــض الآلهة المصرية وجدت طريقها إلى قرطاجة مثل "هاتـــور" و "أوزيـــرس" و"إيزيس"، ولكن أكثرها شهرة وانتشاراً كان الإله "**بس**" "*Bes*" وهو نصف إله يمثل في هيئة قزم قبيح المنظر وكانت تماثيله الصغيرة تستخدم كتمائم بعضها صنع

---

(١٠١) محمد بيومي مهران، المغرب القديم، ص ص ٢١٣، ٢١٤ ؛ انظر أيضا:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ص ١١٨، ١١٩.

(١٠٢) نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص ٨٤.

(١٠٣) محمد بيومي مهران، المغرب القديم، ص ٢١٦.

(104) Harden. D, The Phoenicians, P. 91.

- ولمزيد من المعلومات حول أدونيس وأسطورته وأعياده، انظر:- شارل فيروللو، المرجع السابق، ص ص ١٠٥ وما يليها.

(١٠٥) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ص ١٣٧، ١٣٨ .

- CF. Perry. A, Op. Cit., PP. 29, 30 ; Church. A. J, Op. Cit., P. 60.

(١٠٦) جان مازيل، المرجع السابق، ص ١٦٠.

في مصر وبعضها صنع في قرطاجة، حيث تم العثور علي قالب لرسمه في أحد معامل الفخار في درمش. وبالرغم من ذلك، لا تعتبر هذه الآلهة كجزء متمم للمجمع الديني الفينيقي والقرطاجي(١٠٧).

أما المعابد التي كان تمارس فيها طقوس هذه العبادات، فكانت لا تختلف كثيراً عما هو موجود في الوطن الأم في فينيقيا من حيث العناصر الأساسية المكونة لها. فقد كانت أماكن العبادة عند الفينيقيين هي غالباً الأماكن المرتفعة العالية، علي مقربة من الأشجار أو الينابيع، وبعبارة أخرى هي ساحات في قمم الجبال لها عندهم صفة القداسة(١٠٨). ويعد معبد بعل حمون المقام علي جبل بوقرين في قرطاجة مثال واضح لمثل هذه النوعية من المعابد. لكن في الغرب، علي العكس من الشرق، مثل هذه المعابد كانت تقام عادة علي أرض منخفضة بجانب الشاطئ (بالقرب من الموانئ). ويري البعض أن السبب الرئيسي في ذلك ربما يرجع إلى أن المستوطنين كانوا عادة لا يحصلون علي مساحات شاسعة و كانوا يرضون بمساحة صغيرة للاستيطان عليها وإدارة تجارتهم(١٠٩).

وتتسم المعابد الفينيقية بالبساطة في أول أمرها، وكانت عبارة عن حجرة واحدة، ويحيط بالمعبد سور مقدس غير مسقوف، ويقام في مركزه معبد صغير هو حرم الربوبية، أو معبد صغير بداخله "بيت إل" أمامه مذبح للقرابين، وكان لابد أن يكون بالقرب من المعبد نبع ماء أو حوض مقدس ثم غابة. بيد أن هذه المعابد قد تطورت بمرور الزمن فظهرت بها عدة عناصر جديدة لم تكن معروفة من قبل، مثل المذبح الحجري والنصب المقدس وبجانبه العمود المقدس ثم حجرات تحت أرضية المعبد. ويعد المذبح أهم أجزاء المعبد، وعليه تقدم القرابين. أما النصب فيرمز إلى الإله، ويقوم إلى جواره العمود أو الشجرة المقدسة التي ترمز إلى الخصب. أما الغرف السفلية فكانت من أجل التنبؤ والعرافة ومعرفة رغبات الإله(١١٠).

أما أقدم معبد قرطاجي فهو الذي قام سينتاس (*Cintas*) باكتشافه عند أدني مستوي لتنقيباته في معبد التوفيت الخاص بتانيت وبعل حمون، وهو يرجع إلى القرن الثامن ق.م ويعد أيضاً أقدم مبني فينيقي علي الإطلاق عثر عليه حتى الآن في أفريقيا. ولقد تم بناؤه علي شاطئ رملي، ويرجح أنه أول نقطة رست فيها سفن ديدو ومرافقيها ولذلك تم نذر هذا المكان للآلهة التي قامت بحماية رحلتهم. ومن المؤكد أنه كان يستخدم في مراسم إحياء ذكري القربان الملكي الخاص بـ "ديدو". ومن الجدير بالذكر أن، هذا المعبد الصغير يملك كل الصفات

---

(107) Harden. D, The Phoenicians, P. 90.

(١٠٨) محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية، ص ٣٥٥.

(109) Harden. D, The Phoenicians, p. 94.

(١١٠) نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص ٨٦.

والملامـــح الجوهـــرية لرســم مصغر للمعبد الشرقي، و يحتوي علي غرفة صغيرة (محيطها بالكـــاد ياردة واحدة) بها سرداب صغير، وقدس الأقداس. ويوجد فناء (بالكاد أكبر قليلاً) يضم مذبح صغير جداً يسبق هذه الغرفة وأمام الفناء توجد ثلاثة جدران متداخلة مع بعضها البعض كدائـــرة مُشكلة نوع من المتاهة يجب علي المتعبد المرور خلالها لوضع القرابين علي المذبح. البـــناء كلـــه من الأحجار الصماء تم تثبيتها مع بعضها البعض بواسطة طين، ومدهونة بطلاء أبيض اللون(١١١).

ولقـــد ذكـــرت المـــصادر الكلاسيكية بعض المعابد الموجودة في قرطاجة؛ فمنها علي ســـبيل المـــثال معـــبد أبوللـــو الذي يقع علي حافة الأجورا بالقرب من الميناء التجاري الذي يحـــتوي علي تمثال للإله من البرونز المطلي بالذهب، كما كانت جدران المعبد الداخلية مغطاة بـــرقائق من الذهب. ولقد قام جنود سكيبيو الأفريقي بنزع تلك الرقائق بسيوفهم ونهبها، وذلك أثـــناء أحـــداث الحرب البونية الثالثة والهجوم علي المدينة. ولقد ورد أيضا ذكر معبد أشمون الذي كان يتم الوصول إليه من ناحية السهل الساحلي بواسطة سُلم مكون من ستين درجة(١١٢). وبالإضـــافة إلـــى ما تقدم ذكره، تم الكشف في قرطاجة عن معبد التوفيت الشهير (الذي سبقت الإشارة إليه) الذي كان مخصصاً لعبادة تانيت وبعل حمون.

وممـــا لا شـــك فيه أن هذه المعابد والهياكل كانت تحتاج إلى من يرعاها ويدير شـــئون العـــبادة فيها، فلذلك تم تخصيص مجموعة من الكهنة لكل معبد ليقوموا علي رعايته، ولقد ورد أيضا ذكر كاهنات. وكان رئيس الكهنة يحمل لقب رب كوهانيم *(Rab kohanim)* أي (الكـــاهن الأكبـــر). ومن الجدير بالذكر أن، هذا اللقب قد حملته أيضا امرأة تدعي (معطا نبعل) وكانت تجمع تحت نفوذها هيئة الكهنة كلها من رجال ونساء علي حد سواء. ومما لاشك فيه أن الكهانة كانت وراثية كما كانت أيضا حكراً علي عدد قليل من الأسر الأرستقراطية في المدينة(١١٣).

ومع ذلك، وبالرغم من الامتيازات الكثيرة التي تمتع بها الكهنة، فإنهم لم يشكلوا طبقة مـــستقلة بذاتها ضمن جهاز الدولة. وكانوا يعيلون أسرهم ويشاركون في الحياة العامة للمدينة، غيـــر أن وظـــائفهم لم تكن تعطيهم أية امتيازات في مجال العمل السياسي(١١٤). ومن الجدير بالإشـــارة أنـــه قد وجدت لجنة مكونة من عشرة أعضاء من مجلس الشيوخ القرطاجي كانت

(111) Picard. G & C, Op. Cit., PP. 29, 36 ; Carpenter. R, Op. Cit., P. 39.
(112) Lancel. S, Op. Cit., P. 212 ; Appian, VIII, XIX, 127.

(١١٣) أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٢١.

(١١٤) فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٤٤.

مهمـــتها الأولـــى الإشـــراف العام علي الشئون الدينية، ويبدو أنها كانت جماعة هامة جداً في مجتمع كهذا(١١٥).

إن إنجـــاز الـــشعائر كـــان يتطلب خدمات طاقم كامل لمساعدة الكهنة والقيام بأعمال وواجـــبات كثيرة ومختلفة، وكان علي رأسهم: الكتبة ثم المنشدين والموسيقيين والعرافين، كما وجـــد أيضا الحراس، وعاملي الإضاءة، وحلاقين دينيين الذين كانت مهمتهم حلق شعر الكهنة، ووجـــد أيـــضا الأقـــنان الـــذين كانـــوا يـــزرعون أملاك المعبد، والحرفيون الذين عملوا في ورشـــهم(١١٦)، بالإضـــافة إلى جزارين الذين كانت مهمتهم بالطبع هي ذبح وتقطيع الحيوانات المخصـــصة مـــن أجـــل القرابين وإعداد لحومها. ولقد جمع الكاهن البوني في شخصه الصفة الدينـــية والدنـــيوية، فمـــن الممكـــن أن يكـــون جزار أو طباخ، ولكنه أيضا كاهن في الوقت ذاته(١١٧).

ويـــبدو أن الكهـــنة البونيين كانوا يعيشون حياة طبيعية، حيث تم السماح لهم بالزواج وتكوين الأسر، وهو الأمر الذي لم يكن مصرحاً به لكهنة آخرين في معابد أخرى، حيث حُرم علـــي كاهـــنات كـــوري الـــزواج أو حتى رؤية أقرب أقاربهم الرجال؛ لذلك كان يتم اختيار الـــسيدات الأكبـــر ســـناً فقط، كما فرض علي كهنة ملقرت في جاديس العزوبة بل وتم تحريم دخول النساء إلى المعبد(١١٨). ولكن يبدو أن المتعبدين أيضا قد نالوا قسطاً من هذه التحريمات؛ فقـــد اضطر من يريد دخول معبد أشمون إلى الامتناع عن معاشرة النساء لمدة ثلاثة أيام، كما كانوا مضطرون إلى الامتناع عن أكل الفول ولحم الخنزير(١١٩).

وكان الكهنة يكسبون رزقهم مما يجنونه من المعبد، حيث كانوا يحصلون علي نصيب كبيـــر مـــن "**التعريفات القربانية**" التي ورد ذكر العديد منها في النقوش البونية. وتعد تعريفة "مارســـيليا" (**Marseille**) أشـــهر هذه التعريفات، وكانت معلقة في معبد "بعل صافون" وهي تتـــناول القـــرابين المقدمة وتقسمها بحسب طبيعة كل واحدة منها، كما سنري الآن:- "**إذا كان العجل قربان تكفير أو تقرب أو محرقة، فللكهنة عشر (مثاقيل) فضة علي كل ثور. وبالنسبة للقـــرابين التكفيـــرية يحـــق لهـــم فوق ذلك أن يتقاضوا ثلاثمائة (مثقال) من اللحم. أما في القـــرابين التي تبذل تقرباً من الآلهة فيحق لهم أن يأخذوا الصدر والفخذ (الأيمن). أما الجلد والأضـــلاع والأرجـــل وما تبقي من اللحم فهي لصاحب القربان**". كما تناولت تفاصيل أخرى حـــول أتعاب الكهنة من مختلف أنواع الحيوانات والطيور، ولم تقتصر هذه التعريفة علي ذلك

---

(115) Warmington. B. H, Op. Cit., P. 133.
(116) Picard. G & C, Op. Cit., PP. 76, 77.
(117) Lancel. S, Op. Cit., P. 210.
(118) Picard. G & C, Op. Cit., P. 72.
(119) Khader. A & Soren. D, Op. Cit., P. 45.

فقط فلقد ذكر أيضا الزيت، واللبن، والدقيق، والفطائر والمعجنات. كما تضمنت التعريفة أيضا نـــص لحماية المضحين من أي تعسف أو إفراط محتمل من جانب الكهنة:- " **أي كاهن يجبي ضريبة أخرى غير تلك المثبتة في اللوحة ستفرض عليه غرامة**" (١٢٠) .

وممـــا لاشـــك فـــيه أن الكهنة قد لعبوا دوراً ثقافياً عظيماً ومؤثراً في تاريخ الحضارة القرطاجية (وهو ما سبقت الإشارة إليه سالفاً).

ويـــبدو أن القرطاجيين لم يهتموا كثيراً بفكرة الحياة بعد الموت، ولكنهم كانوا يعتقدون أن الـــشخص المتوفـــى يمكـــث لفترة قصيرة مُظلمة في القبر، ولذلك كان يتم تزويده ببعض الـــضروريات الأساســـية اللازمة له في الحياة الآخرة مثل تلك التي كان من الممكن أن يحتاج إليها في الحياة الدنيا(١٢١).

وكـــان هذا الأثاث الجنائزي يضم أواني فخارية أو معدنية من أجل الطعام والشراب، وآنـــية خشبية أو عاجية أو زجاجية صغيرة من أجل العطور، وبعض مساحيق العناية بالوجه والـــشعر، وأمـــشاط، وملاعق، وشفرات حلاقة، ومصابيح؛ وذلك بالإضافة إلى بعض الحلي والمجوهـــرات، والـــتمائم، والأسرة، وكذلك بعض العملات والأقنعة. ومن الجدير بالذكر أن، المقابـــر القـــرطاجية المبكـــرة كانـــت أغني بكثير (من حيث هذه الأغراض) من تلك المقابر المتأخرة(١٢٢).

ولقد ظلت عادة الدفن مستخدمة فترة طويلة، ولكن في نفس الوقت كانت عادة إحراق أجساد الموتى معروفة لدي القرطاجيين بيد أنها انتشرت في القرن الرابع تحت التأثير اليوناني ثم فرضت نفسها في آخر الأمر. وكانت القبور المبكرة عبارة عن غرف فسيحة يتم بناؤها أو حفرها في الصخور علي عمق أمتار كثيرة. وكان الميت يوضع في توابيت من حجر أو يمدد علي الأرض مباشرة. ثم ظهرت بعد ذلك القبور الشبيهة "بالآبار"، أي أن غرفة أو عدة غرف مبنـــية كانـــت تفتح علي آبار يتجاوز عمقها أحياناً عشرين متراً يتم سدها بعد كل دفن. وكانت فـــي الـــبداية تتسع لجثة أو جثتين ثم انتشرت بعد ذلك عادة الدفن الجماعي، وأصبحت سائدة خاصة عندما فرضت عادة حرق أجساد الموتى. وعندئذ قلت مساحة غرف الموتى، وأصبحت تبنـــي فـــي حفر أقل عُمقا. وفي أواخر العصور البونية أصبحت الأقبية في نهاية الأمر شبيهة بالأضرحة التي ليس لها تحت الأرض سوى جزء واحد(١٢٣).

---

(120) Lancel. S, Op. Cit., PP. 210, 211.

* - انظـــر أيـــضا:- عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٠١. وأيضا:- لبيب عبد الساتر، المرجع السابق، ص ١٢٣. وأيضا:- فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص ١٤٥.

(121) Warmington. B. H, Op. Cit.,P.133.

(122) Harden. D, The Phoenicians, PP. 113, 114.

(١٢٣) شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ١٢٢.

ومن الجدير بالملاحظة أن، مواقع الجبانات القرطاجية كانت تتغير بشدة من قرن إلــى آخــر؛ فكانــت من القرن الثامن إلى القرن السادس ق.م تقع علي منحدرات جبال سانت لــويس وجونــو وفــي منطقتي دويمس (*Douimes*) و درمش، بينما انتشرت جبانات القرن الخــامس ق.م علــي مــنحدرات جبال برج الجديد، وفي القرن الرابع احتلت المقابر المنطقة الموجــودة بين مرتفعات الأوديون (*Odeon*) و برج الجديد. وأخيراً، تقع قبور القرنين الثالث والثانــي ق.م علــي مــرتفعات الأوديــون وسانت مونيك، وكانت غالباً إلى الشمال، والشمال الشرقي(١٢٤).

والخلاصــة أن الديانــة القــرطاجية ظلت فينيقية في جوهرها، وذلك بالرغم من كل المؤثــرات الأجنبــية التي أثرت فيها مثل اليونانية والمصرية وغيرها؛ ولذلك نري أن مجمع الآلهــة البونــي قــد ظل فينيقي الأصل في معظمه، وأنه كان عامة يدور حول فكرة الخصب والإخــصاب المتعلقة بمظاهر الطبيعة والحياة البشرية أيضا، ومن ثم يمكن رد الآلهة فيه إلى مــبدأين أساســيين همــا:- التذكير والتأنيث وذلك محاكاة لما هو موجود في المجتمع الفينيقي الشرقي .

(١٢٤) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

الفصل الخامس

نهاية قرطاجة

"الحروب البونية"

تعـــد الحـروب البونية من أعنف وأطول الحروب التي نشبت في العالم القديم بين روما وقـــرطاجة، إذ اســـتمرت ما يزيد على قرن من الزمان (٢٦٤- ١٤٦ ق.م). وكان من أبرز نـــتائجها ســـقوط إمبـــراطورية قرطاجة العظيمة وزوالها بعد ازدهار دام حوالي سبعة قرون (٨١٤ -١٤٦ ق.م). ولقـــد تعـــددت مـــيادين القـــتال فـــي هذه الحروب حيث شملت إيطاليا، وأفـــريقيا، وأسبانيا.. الخ، مما زاد من شدتها علي الطرفين فقد خسر كلا منهما الكثير في هذه الحـــرب الـــضروس من أموال، ورجال، ومدن، ومستوطنات. وعلي الرغم من انتصار روما فـــي هذه الحرب إلا أنها مُنيت بخسائر هائلة فقد قدرت المدن التي تدمرت علي يد هانيبال في الحرب البونية الثانية فقط بحوالي (٤٠٠) مدينة، بالإضافة إلى حوالي ٣٠٠،٠٠٠ رجل فقدوا في ميدان القتال فقط(١). أما قرطاجة فقد خسرت كل مستوطناتها الواحدة تلو الأخرى مما أثر سلباً علي اقتصادياتها وبالتالي علي قوتها،فكانت النهاية .

ويـــبدو أن بيرهوس(٢) (*Pyrrhus*) ملك ابيروس قد توقع نشوب هذا الصراع الدامي بـــين الطرفين، وكان آنذاك قد هزم في حرب روما ، ومن ثم قرر العودة إلى بلاده. وقيل انه وقـــت رحيله عن صقلية نظر إلى الجزيرة، وعلق قائلاً:- "**يا له من ميدان رائع نتركه خلفنا للقـــرطاجيين والرومان!**"(٣). ولقد تحققت كلماته هذه بالفعل بعد ذلك بفترة قصيرة،أو ربما كان بلوتارخـــوس يريد استنطاق الشخصيات التاريخية بنبوءات مستقبلية ، دون حدوثها في الواقع، كإحدى أدوات الكتابة التاريخية في القرن الثاني الميلادي(*)!!!!

ولأن الـــرومان كانوا يطلقون علي القرطاجيين اسم "البونيين" "*Poeni*" فقد اشتق من هذه التسمية اسم هذه الحروب (الحروب البونية) (٤).

أولاً: الحرب البونية الأولى:

وقـــبل أن نتـــناول أحـــداث الجولة الأولى من هذه الحروب(٢٦٤ ق.م- ٢٤١ ق.م) يتعين علينا أن نلقى نظرة سريعة علي الأحداث في صقلية في ذلك الوقت حتى نفهم الظروف إلـــى أدت إلـــى نـــشوب الحـــرب. ففي عام ٢٧٦ ق.م سيطر بيرهوس علي كثير من المدن

---

(1) Appian, VIII, XX, 134.

(٢) كان بيرهوس يمت بصلة قرابة إلى الاسكندر الأكبر. وقد ثارت الغيرة في قلبه مما دفعه إلى محاولة التشبه به ويكون له مثل شهرته الحربية، فلذلك خاض هذه الحرب ضد روما في عام ٢٨٠ ق.م.

Wilkinson. E. G, The Conquests Of Italy And The Struggle With Carthage (753 to- 200 B. C.), London, 1929, P. 42.

(3) Plutarch, Pyrrhus, XXI- XXIV.

(*) (رأي أ. د / محمود السعدني)

(4) Rostovtzeff. M, A History of the Ancient World, Vol.2, Rome, (Translated From the Russian by:- Duff. J. D), Oxford, 1933, P. 59 ; CF. Heitland. W. E, OP. Cit. , P. 98; سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ص ١٣٨- ١٣٩.

اليونانــية فـــي صـــقلية، فلجــأت مـــدن كثيرة منها إلى قرطاجة بينما لجأ البعض الآخر إلى المامرتينـــي[٥] (*Mamertines*)؛ وهم جنود مرتزقة من أصل إيطالي من كمبانيا. وبعد وفاة أجاثوكلـــيس (طاغية سيراكوزة) في عام ٢٨٩ق.م ثار هؤلاء المرتزقة الذين كانوا في خدمته؛ وشـــرعوا فـــي إثـــارة الاضـــطرابات وممارسة السرقة وقطع الطريق ثم احتلوا مدينة ميسينا (*Messana*) بعـــد ذلـــك[٦]. ولقـــد سيطر المامرتيني علي كل الجزء الشمالي الشرقي حتى هالايـــسا (*Halaesa*). وفي تلك الأثناء تم انتخاب هيرو (*Hiero*) حاكم علي سيراكوزة بعد رحـــيل بيرهوس وكان يري أن هؤلاء المامرتيني يشكلون خطراً كبيراً علي مدينته؛ لذلك عزم علـــي محاربتهم حتى استطاع في النهاية هزيمتهم تماماً. ولقد حاصر هيرو ميسينا بعد ذلك[٧] (فـــي عـــام ٢٦٤ ق.م) وكادت أن تسقط في يده لولا نجدة اسطول قرطاجي لها كان قريباً من مـــسرح الأحـــداث هناك، حيث يبدو أن قرطاجة كانت حريصة علي الحيلولة دون اتساع نفوذ هيـــرو. ولكن بعد نجاح الأسطول القرطاجي في إنقاذ المدينة ظل راسياً فيها؛ مما أثار خوف المامرتينـــي من أن تفرض قرطاجة سيادتها عليهم، ولذلك قرروا في النهاية اللجوء إلى روما وطلب مساعدتها ضد القرطاجيين[٨].على أن الرومان ترددوا طويلاً بشأن تقديم هذه المساعدة، واخـــتلفت الآراء حول سبب هذا التردد؛ فيري البعض، أن هذه الإغاثة كانت تبدو غير عادلة؛ لأن الـــرومان أوقعـــوا علـــي بنـــي جنس هؤلاء المرتزقة أشد عقوبة لخيانتهم لشعب ريجيوم (*Rhegium*)، و طردتهم منها قبل ستة سنوات مضت بمساعدة هيرو نفسه (عام ٢٧٠ ق.م). ولذلك بدا أن محاولة مساعدة المامرتيني، الذين ارتكبوا هجوما مماثلا في ميسينا يعد شيئاً غير عـــادل[٩]. ولكـــن هناك رأي آخر يري أن تردد الرومان يرجع إلى أن روما كانت تخجل من مـــساعدة مجمـــوعة مـــن المرتـــزقة الـــذين كانوا في نظرها مجموعة من اللصوص وقطاع الطـــريق[١٠]. لكن الرومان كانوا يحسون بخطورة الموقف لأن القرطاجيين كانوا قد أخضعوا

---

(٥) ويري البعض أن اسم المامرتيني يعنى"خدام إله الحرب". انظر:-

Church. A. J, OP. Cit., P. 129.

ولكن هناك رأي آخر يري انه يعني "أبناء مارس"، أي أبناء إله الحرب. انظر:-

Cary. M, Ahistory of Rome Down to The Reign of Constantine, 2 nd edition, London, 1954, p. 144 ; CF. Frank. T, A History of Rome,1st edition, New York, 1947, p. 95.

(٦) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٥٣- ٢٥٤.

(٧) تقع علي المضايق التي تفصل صقلية عن شبه الجزيرة الإيطالية. انظر:-

Grant. M, History of Rome, London, 1960, P. 82.

(8) Cook. S & Others, OP. Cit., PP. 667- 668 ; CF. Cary. M, Loc. Cit. ; Mommsen. T,OP. Cit., PP. 127- 128.

(9) Gilman. A, Rome (From the Earliest Times to the End of the Republic) , 7 th Impression, London, 1950, PP. 129- 130.

(10) Cook. S & Others, OP. Cit., P. 669.

ولمزيد من الأسباب والمعلومات حول هذا الموضوع، انظر:- =

ليبـــيا وجزء كبير من أسبانيا، وأيضاً كانوا يملكون كل الجزر الواقعة في كلا من البحر السر دينيـــي والتيرانـــي. ويبدو أن الرومان كانوا يخافون بشدة من فكرة سيطرة القرطاجيون علي صـــقلية أيضاً، لأنهم في هذه الحالة سوف يحيطون بروما من جميع الجوانب ويهددونها. وبعد مناقشات طويلة، رأي الرومان ضرورة عدم ترك ميسينا تسقط في أيدي القرطاجيين. وبعد أن أصبح الحكم للشعب تم حسم الأمر بضرورة مساعدة المامرتيني.

وعندئذ تم تعيين أبيوس كلاوديوس (*Appius Claudius*) أحد الترابنة قائدا للحملة، وصدرت إليه الأوامر بالعبور إلى ميسينا[(١١)].

وفي عام ٢٦٤ ق.م قام المامرتيني بطرد القائد القرطاجي، بعد أن علموا بقدوم النجدة الـــرومانية ودعوا أبيوس لدخول المدينة. ولقد قام القرطاجيون بصلب قائدهم بسبب تركه قلعة ميـــسينا. وعندئذ قررت قرطاجة استعادة المدينة،وعلي الفور تم إرسال جيش إلى صقلية تحت قيادة هانو الذى عقد تحالف مع هيرو، ثم سار الاثنان إلى ميسينا علي رأس قواتهما. وفي تلك الأثـــناء أبـــدي أبـــيوس رغبـــته في التفاوض مع القائدين، لكن عندما فشلت المفاوضات قام بمهاجمـــتهما. وفـــي الـــنهاية، استطاع الاستيلاء علي ميسينا وذلك بعد بعض المناوشات بين الطرفين وانسحاب الطرف القرطاجي السيراكوزي وعودته إلى بلاده[(١٢)].

وفـــي تلك الأثناء، وإزاء هذا الموقف السائد، قرر هيرو الانضمام إلى الرومان تاركاً تحالفه مع القرطاجيين بعد أن رأي أن مصلحته معهم. ولقد رحب الرومان بتحالفه هذا لضمان إمـــداداتهم؛ وأيـــضاً لأهمية مدينة سيراكوزة التى تقع علي الساحل الشرقي لصقلية علي أحد جانبـــي خليج عميق، و تتحكم في مداخل كثيرة تؤدي إلى موانئ هامة علي الجانب الآخر[(١٣)]. وكـــان هـــذا التحول من جانب هيرو أثر بالغ الشدة في نفوس القرطاجيين، ولذلك قاموا باتخاذ إجـــراءات عديـــدة اســـتعداداً للحـــرب التي علي وشك الاندلاع؛ منها تجنيد فرق مرتزقة من

=إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٥٤. ; Cary. M, OP. Cit., P. 145

(11) Polybius, I, 10- 11.

ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: -

Frank. T, OP. Cit., PP. 96- 97.

(12) Polybius, I, 11- 12.

(13) Grant. M, OP. Cit., P. 83 ; CF. Rostovtzeff. M, OP. Cit., P. 59.

ولمزيد من المعلومات حول هذه المعاهدة وبنودها، انظر:-

Polybius, I, 16- 17 ; Diodorus, XXIII, 3- 4.

الليجوريـــين، والكلتيـــين، ولكن أكثرهم من الأيبيريين[١٤]،الذين تم ارسالهم جميعاً إلى صقلية، حيث اتخذوا من مدينة أجريجينتوم[١٥](*Agrigentum*) قاعدة حربية لهم[١٦].

وفـــي عـــام ٢٦٢ ق.م وصـــل القناصـــل الـــرومان لوكـــيوس بوســـتوميوس (*Lucius postumius*) وكوينتـــيوس ماميلـــيوس (*Quintus Mamilius*) إلـــى صقلية. وهـــناك فكرا في مهاجمة أجريجينتوم نفسها. وبالفعل حاصروا القرطاجيين داخل المدينة لمدة خمـــسة أشـــهر؛ لكـــن عـــندما عانـــئ القـــرطاجيين من المجاعة أرسل هانيبال (قائد القوات المحاصـــرة) رســـائل إلى قرطاجة يطلب الإمدادات. وبالفعل تم إرسال القوات والفيلة[١٧]إلى هانو القائد الآخر. وفي أول فرصة احتل هيربيسوس (*Herbesus*) لكي يقطع الإمدادات عن العـــدو، وعندئذ أصبح الرومان في موقف صعب مما اضطرهم إلى رفع الحصار. وبعد ذلك بفتـــرة أخذ هانو قواته وتقدم بسرعة من هيراقليا (*Heraclea*) وهاجم العدو بشدة وقتل الكثير مـــنهم، ثـــم عـــسكر بعد ذلك في الجهة المقابلة لهم. ولقد ظلوا صامتين لمدة شهرين؛ لكن مع اســـتمرار هانيـــبال فـــي إرسال الإشارات النارية من المدينة، قرر هانو الاشتباك مع العدو. وبالفعـــل التقـــي الفريقان في معركة طويلة وصعبة؛ انتهت بهزيمة القرطاجيين هزيمة شاملة، كـــان السبب فيها فرق المرتزقة حيث ارتدت علي الفيلة بعد الضغط عليهم مما سبب حالة من الفوضـــى الـــشديدة فـــي الجـــيش كله أدت في النهاية إلى هذه الهزيمة. ولقد استطاع هانيبال الخـــروج من المدينة ليلا دون أن يشعر به أحد. وعندئذ دخل الرومان المدينة ونهبوها وباعوا حوالـــي خمسة وعشرين ألفا من سكانها في سوق الرقيق[١٨]. وقدرت خسائر قرطاجة بحوالي

---

(١٤) الأيبيـــريون هـــم شـــعوب ســـكنت فـــي الجـــزء الشرقي من شبه الجزيرة الإسبانية، بالقرب من مصب نهر الإبـــرو،والمناطق الساحلية شمال وجنوب النهر، أما الكلتيون فقد سكنوا وسط أوروبا، في منطقة الراين وشمال فرنسا. وقد دخل بعضهم إلى إسبانيا قرب عام ١٠٠٠ ق.م. انظر:-

Altamira. R, A history of Spain (From The beginnings to the Present day), (Translated by:- Lee. M), London, 1950, PP. 22, 25.

(١٥) هي مدينة إغريقية تقع عند وسط الشاطئ الجنوبي لصقلية. انظر:-

إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(16) Polybius, I, 17. 5.

(١٧) بـــدأ استخدام الفيلة في المعارك الحربية بعد عام ٢٨٠ ق.م، وقد حصلت قرطاجة علي هذه الفيلة من شمال إفريقيا، وكانوا يحضرون لها مدربين هنود، وتعد الفيلة بمثابة الدبابة في عصرنا الحديث. انظر:-

Tarn. W. W, Hellenistic Military And Naval Developments, Cambridge, 1930, P. 94.

ولمزيد من المعلومات حول الفيلة ودورها في الحروب القديمة، انظر: -

Scullard. H. H, " The African Elephant", (NC), Parts, 1-2, 6Th Series, Vol. XI, No.XLI, London, 1951, P. 5 ; فـــوزي مكـــاوي، "الفـــيل الإفريقـــي ودوره في الحروب القديمة"، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد السادس، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٠٩ وما بعدها.

(18) Polybius, I, 17-19.

ثلاثـــة آلاف مـــن المـــشاة و ٢٠٠ مـــن الفرسان، وتم آسر أربعة آلاف رجل، وهلاك ثمانية أفيال[١٩].

وبعـــد هـــذا الانتصار ارتفعت الروح المعنوية للرومان كثيراً، مما جعلهم يفكرون في طـــرد القـــرطاجيين كلية من صقلية، ولكنهم رأوا أيضاً انه طالما ظل القرطاجيون محتفظين بقـــيادة البحر، فإن موازين الحرب ستظل متوازنة بينهما. لذلك أدركوا أن الضرورة تدعو إلى أهمـــية ارتـــياد البحـــر والتمـــرس فـــي ملاحته؛ ولذلك أسرعوا إلى اتخاذ الخطوات اللازمة لـــذلك[٢٠]. ولكن روما لم يكن لديها السفن الحربية القادرة علي منازلة السفن القرطاجية؛ فعلي الأكثر مدها حلفاؤها ببعض السفن الحربية الخفيفة التي تتكون من ثلاثة صفوف من المجاديف والتـــي يمكـــن للـــسفن الحـــربية القرطاجية التي تتكون من خمسة[٢١] صفوف من المجاديف إغـــراقها بـــسهولة[٢٢]. ومـــع ذلك، عزم الرومان علي بناء أسطول مكون من مائة سفينة من الحجـــم الكبير وعشرين من الحجم الصغير[٢٣]. ومن الجدير بالذكر انه، قد تم بناء هذه السفن وفقـــاً لنموذج سفينة قرطاجية كانت قد جنحت في إحدى المرات أثناء أحداث ميسينا[٢٤]. ولعل هذا من سخرية الأقدار!.

ولقـــد حـــاول الرومان تطوير هذا النموذج؛ فأضافوا عليه بعض المعدات التي مكنتهم مـــن كـــسب معـــارك بحرية كثيرة، بل وجعلتها في سهولة المعارك البرية، حيث وضعوا في مقدمـــة السفينة خطافاً كبيراً يتم إنزاله عند الاشتباك علي ظهر السفن المعادية ويتم جرها إليهم ثـــم يقفـــز رجالهم علي ظهرها ويقتلون جنود العدو ويستولون عليها. وسُميت هذه الآلة باسم (الغربان) (*Ravens*) [٢٥].

وفـــي عام ٢٦٠ ق.م، وقع أول اشتباك بحري بين الطرفين في ليبارا (Lipara)، كان فـــي مـــصلحة القـــرطاجيين حيث لم يقوي الأسطول الروماني علي مواجهة السفن القرطاجية العتـــيقة في مجال الملاحة البحرية فأسرع إلى الاستسلام للعدو. وكان قائد الاسطول الروماني

---

(19) Diodorus, XXIII, 8- 9.
(20) Polybius, I, 20.
(٢١) وكان لدي القرطاجيون أيضاً نوع آخر من السفن الحربية، وهي التي تعرف بسباعية الصفوف من المجاديف، وتم استخدام إحداها وكانت تخص الملك بيرهوس وتم الاستيلاء عليها أثناء الصراع معه. انظر:-
عبد العزيز عبد الفتح عمر حجازي، المرجع السابق، ص ٦٩.
(22) Perry. A, OP. Cit., P. 50.
(٢٣) بالإضافة إلى حوالي ١٥ سفينة قديمة تم ترميمها، وحوالي ٢٥ استولوا عليها من الأيتوليين؛ ومن المحتمل أيضاً أثنين أو ثلاثة من ماسيليا. انظر:-
Tarn. W.W, "The Fleets of the First Punic war", (JHS) , Vol. 27 , 1907, London, P. 50.
(24) Polybius, I, 20- 21.
(25) Mommsen. T, OP. Cit., P. 130.
انظر أيضاً:- سيد أحمد على الناصري، المرجع السابق، ص ١٤٠.

هــو جــنايوس كورنيلــيوس سكيبيو[٢٦] (*Gnaius Cornilius Scipio*). وبمجرد أن علم جايــوس دويلــيوس (*Gaius Duilius*) بمــا قــد حــدث جاء علي الفور لكي يتولى قيادة الاسطول. وعندما علم أن العدو كان ينهب ويدمر مقاطعة ميلاي[٢٧] (*Mylae*) أبحر ضدهم. وعــندئذ نــزل القرطاجيون إلى البحر علي رأس مائة وثلاثين سفينة، وكانوا يستخفون بخبرة الــرومان فــي مجــال الملاحة العسكرية. وفي البداية استطاعوا هزيمة الرومان، لكن السفن الــرومانية تماسكت بسرعة بفضل الآلات السالفة الذكر، وقامت بالانقضاض علي ظهر سفن العــدو عــن طــريق الخطاطــيف وهاجموها بقوة، فسقط بعض القرطاجيين واستسلم البعض الآخر[٢٨].

ولقــد أقام الرومان قوس نصر كبير في روما لقائد المعركة؛ وذلك احتفالاً بهذا النصر العظــيم. ومن الجدير بالذكر أن، النقش الذي سجل فيه دويليوس انتصاره ما يزال قائماً، وجاء فــيه: "**كــان أول من أهدي الشعب الروماني أسلاب معركة بحرية، وأول من ساق أمامه في مــوكب نــصره قــرطاجيين أحراراً**"[٢٩]. وكان الأسطول الروماني يتكون من ١٢٠ سفينة حربية[٣٠]، بينما كان الأسطول القرطاجي يتألف من مائتي سفينة حربية[٣١].

ولعــل من أبرز النتائج التي ترتبت علي انتصار الرومان في هذه المعركة هي تحول أنظــارهم إلــى جزيرتي كورسيكا وسردينيا والرغبة في الاستيلاء عليهما وطرد القرطاجيين مــنهما. وممــا تجــدر الإشــارة إليه أن، السيادة القرطاجية كانت مكروهة فيهما، وقد استفاد كورنيلــيوس سكيبيو من هذه الكراهية حيث استطاع السيطرة عليهما بسهولة[٣٢]. وهكذا فقدت قــرطاجة أولــي مــستعمراتها وأغــناها، حيث كانت كلتاهما تتميزان بتربة خصبة، وخاصة سردينيا.

وفــي صــيف عــام ٢٥٦ ق.م أبحر الرومان جنوبا بأسطول من ٣٣٠ سفينة حربية ضــخمة تحت قيادة مانليوس فولسو (*Manilius Vulso*) وأتيليوس ريجيلوس (*Atilius*

---

(26) Polybius, I, 21- 22.

(٢٧) تكتب أيضاً ميلازو (Milazzo) وهي تقع في الشمال الشرقي من صقلية. انظر:-

Perry. A, OP. Cit., P. 51.

(28) Polybius, I, 23- 24.

(٢٩) دونالد.ر. ددلي،حضارة روما، (ترجمة. جميل يواقيم الذهبي؛ و فاروق فريد، راجعه. د/ صقر خفاجة)، الألف كتاب (٥٣٩)، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٦٤. انظر أيضا:-

CF. Frank. T, OP. Cit., P. 99.

(٣٠) هناك رأي آخر يري أنه كان مكوناً من ١٤٠ سفينة حربية؛ وأنهم استولوا علي ثلاثين سفينة من القرطاجيين وأغرقوا ١٩ سفينة. وتقدر خسائرهم بأقل من ١٩ سفينة؛ ويقال عشرة فقط . انظر:-

Tarn. W.W, "The Fleets of the First Punic War", P. 51.

(31) Diodorus, XXIII, 9- 11.

(32) Perry. A, OP. Cit., P. 53.

(*Regulus*) ، بيـــنما كـــان الأسطول القرطاجي يتألف من ٣٥٠ سفينة حربية[٣٣]، أما الجيش الرومانـــي فكان يقدر بحوالي ١٤٠ ألف، وكل سفينة كانت تضم ٣٠٠ مجدف و ١٢٠ بحاراً. أما القرطاجيون، فكانت أعدادهم تتعدى المائة والخمسين ألف.

وكانـــت خطـــة الـــرومان فـــي ذلـــك الوقت الإبحار إلى أفريقيا واحتلال المقاطعات القـــرطاجية فيها، بل وتهديد قرطاجة ذاتها في عقر دارها حتى تضطر في النهاية إلى التخلي عن صقلية؛ بعد أن تجد نفسها ومقاطعاتها في خطر.

وعـــند رأس إكـــنوموس[٣٤] (*Ecnomus*) تقـــريباً التقـــي الفريقان، وكان الأسطول القرطاجي تحت قيادة هانو (نفس القائد الذي هزم عند "أجريجينتوم") في الميمنة، وقائداً آخراً يدعي هاميلكار في الميسرة. ولقد بدأت المعركة بهجوم الرومان علي المركز القرطاجي الذي تلقي الأوامر من هاميلكار بالتقهقر علي الفور بهدف كسر نظام وترتيب الرومان. وفي البداية مكـــنت السرعة والمهارة الفائقة للقرطاجيين من التحرك حول العدو والإحاطة به. ولقد دارت معـــركة شـــديدة بـــين الطرفين. وعلي الرغم من، تفوق القرطاجيين نوعاً ما علي العدو في الـــبداية، إلا أن الأســـطول الرومانـــي ســـرعان ما تماسك وسيطر علي المعركة. ولقد مُني القـــرطاجيين بهزيمة ثقيلة، حيث تمت مهاجمتهم من ناحية المقدمة والمؤخرة، ووجدوا أنفسهم مُحاصـــرين علـــي حـــين غرة، فاستسلموا ثم بدأوا في التقهقر خارج البحر. وانتهت المعركة لصالح الرومان بعد أن فقدوا أربعة وعشرين سفينة غرقت جميعها، ولكن خسارة القرطاجيين كانـــت أكبـــر حـــيث غرق أكثر من ثلاثين سفينة، بالإضافة إلى خمسين سفينة أخرى استولي عليها القنصلان ببحارتها[٣٥].

وعـــندئذ أســـرع هانـــو إلى قرطاجة حاملاً أنباء الهزيمة، وأمر أهل بلاده بالاستعداد للـــدفاع عـــن الـــوطن. ولكـــن قرطاجة كانت تقريباً لا حيلة لها إذا ما هوجمت في ممتلكاتها الخاصـــة، فقـــد كان اتباعها لا يشعرون بالرضا نظراً للمعاملة السيئة والاستغلال الذي كانوا يتعرضـــون لـــه خاصة بين السكان المحليين الخاضعين لها مما جعلهم دائماً مستعدين للثورة ضدها والانضمام لكل عدو لها؛ كما أن مستعمراتها الأخرى لم يكن يسمح لها أن تحمي نفسها

---

(٣٣) يـــري كثيـــر مـــن الكتاب أن هذه الأعداد مبالغ فيها بشدة، لأن الأسطول القرطاجي في العصور السابقة علي الحـــروب البونـــية لـــم يـــتجاوز ٢٠٠ سفينة وقت الحرب؛ و ١٣٠ وقت السلم. وهذا ناتج عن لجوء بعض المؤرخين القدامى أمثال فابيوس (Fabius) وفيلينوس(Philinus) إلى المبالغة في أعداد السفن، وذلك بهدف التضخيم أو التقليل من شأن نصر ما أو هزيمة ما. انظر:-

Tarn. W.W, "The Fleets of the First Punic War",), P. 49.

(٣٤) تقع علي الساحل الجنوبي لصقلية. انظر:-

Heitland. W. E, OP. Cit., P. 100.

(35) Polybius, I, 25. 7- 29.3.

بالأسوار. فلم يكن هناك أي مقاومة يمكن أن يجدها الغزاة(٣٦). ومن ثم اصبح الطريق مفتوحاً وممهــداً إلـــى أفـــريقيا وقـــرطاجة نفسها، وخاصة بعد أن سيطرت روما علي معظم صقلية وضمتها لسيادتها.

وعـــندما علـــم القـــرطاجيون بهذه الكارثة انتابتهم حالة من الرعب الشديد، وعندئذ تم تعيـــين قائـــدين هما، هاسد روبال (ابن هانو)، وبوستار (*Bostar*). كما أرسلوا إلى هاميلكار يأمـــروه بالعودة سريعاً من هيراقليا، حيث تم تعينه قائداً ثالثاً. ولقد أحضر هذا الأخير معه قوة مؤلفة من خمسمائة فارس وخمسة آلاف من المشاة. وبعد عدة أيام شرع ريجولوس في التقدم حتـــى وصـــل إلـــى بلدة هامة تسمي أديس (*Adys*)، ولقد عسكر بالقرب منها وأعد الترتيبات اللازمة لحصارها.

كـــان القرطاجيون يتوقون بشدة لنجدتها؛ فقادوا قواتهم عبر التلال حتى سيطروا علي تل يشرف علي العدو، لكنه لم يكن مكاناً مناسباً لجيشهم، ومع ذلك عسكروا فوقه. وكان هدف القـــرطاجيون هو القضاء علي العدو مستغلين ارتفاع المكان، ولكن هذا المكان كان سبب نكبة علـــيهم حـــيث أن الخـــيل والفـــيلة أثناء هبوطها من أعلي التل إلى المعسكر الروماني أحدثوا فوضى كبيرة تسببت في كسر صفوف المرتزقة في المؤخرة، كما أن الجيش القرطاجي عندما نـــزل إلـــى الـــسهل الموجـــود أسفل التل تعرض لكثير من القذائف والسهام وتتبعهم الرومان بسرعة وانقضوا بشدة علي صفوف العدو المكسورة(٣٧).

وبعـــد هـــذا الانتصار السريع أطلق ريجيلوس لنفسه العنان وأنطلق في أفريقيا يجوب دروبها مدمراً ومخرباً لبلداتها ومدنها الغنية، كما فرض سيطرته علي تونس التي كانت قاعدة مناسبة لهذه الهجمات، وأيضاً موقع جيد للعمليات المتوقعة ضد العاصمة وضواحيها(٣٨).

وممـــا زاد الأمـــور سوءاً في قرطاجة أن النوميديين قاموا بمهاجمتها في نفس الوقت وأصـــابوا الـــبلاد بخـــسارة ليـــست أقل من الرومان إن لم تكن اكثر، بل انهم عرضوا علي الـــرومان أن يـــساعدوهم مقابـــل اقتسام الغنائم فيما بينهما. ولقد عم الرعب في قلوب السكان فهـــربوا إلى مدينة قرطاجة حيث سادت فيها مجاعة شديدة بسبب الزحام الشديد وتولاها اليأس بـــسبب توقـــع فـــرض الحـــصار علـــيها(٣٩). وفـــي تلك الأثناء دعا ريجيلوس القرطاجيين للمفاوضـــات، حـــيث تـــم استدعاء القنصل الآخر للأشراف علي الانتخابات وكان معه نصف الجيش؛ لأن العادة جرت علي ضرورة عودة الجنود الرومان إلى الوطن بعد كل حملة. فيبدو أن ريجيلوس قد خشي من احتمال تعرضه لأي هجوم بعد رحيل زميله مع نصف الجيش. وقد

---

(36) Church. A. J, OP. Cit., p. 141 ; CF. Cook. S &Others, OP. Cit., PP. 682- 683.
(37) Polybius, I, 29. 10- 30. 9.
(38) Perry. A, OP. Cit., P. 55.
(39) Polybius, I, 31.3- 32. 1.

أبـــدي القـــرطاجيون اســـتعدادهم الـــتام لذلك، ولكن نظراً لأن الشروط كانت في غاية القسوة والعجرفة فلم يقبلوها ، ومن ثم فشلت المفاوضات(٤٠).

وكانـــت شـــروط الـــصلح المعروضـــة تـــنص علي:- "**تسليم كل صقلية وسردينيا وكورســـيكا، وإعادة كل الأسرى دون فدية، ودفع كل تكاليف الحرب، والخضوع لنظام جزية سنوي، وتصبح قرطاجة تابعة لروما، كما يتم تقليص قوتها البحرية إلى سفينة حربية واحدة فقط**"(٤١).

وفي تلك الأثناء وصل إلى قرطاجة أحد الضباط الذين تم إيفادهم من قبل إلى اليونان، و معه عدد هائل من الجنود ومن بينهم إكسانثيبوس (*Xanthippus*) الإسبرطي، وهو جندي نـــشأ وتربـــي فـــي كـــنف النظام الإسبرطي ووفقاً لتدريبه، وكانت لديه خبرة عسكرية كبيرة وهائلـــة. وقـــال بعـــد أن تفحص الأمور والأحداث جيداً أن القرطاجيين هم السبب في هزيمة أنفسهم وليس الرومان، نظراً لعدم خبرة قادتهم. وعندئذ قررت الحكومة استدعائه أمامها، وبعد مناقشته والاقتناع بآرائه تم إسناد القيادة إليه. وعلى هذا أخضع اكسانثيبوس القوات القرطاجية لتدريـــبات شـــاقة خارج البلاد لعدة أيام نزلوا بعدها إلى الميدان علي رأس قوة مؤلفة من ١٢ ألف من المشاة، وأربعة آلاف فارس ومائة فيل تقريباً، وكان ذلك في عام ٢٥٥ ق.م(٤٢).

ولقد أُعطي اكسانثيبوس حرية التصرف وإدارة العمليات الحربية؛ ولذلك وضع الفيلة فـــي المقدمـــة في صف واحد أمام القوات كلها، ووضع جانبي الجيش علي بعد مسافة مناسبة خلفهـــم. ووضـــع بعض من المرتزقة في الجناح الأيمن، بينما وضع الغالبية العظمي مع فرق الفرســـان أمام كلا الجناحين(٤٣). وفي البداية، أمر اكسانثيبوس قادة الفيلة بالتقدم وشق صفوف العـــدو، كمـــا أمـــر فرق الفرسان علي كلا الجانبين بتنفيذ حركة التفاف وهجوم. وسرعان ما هـــربت فـــرق الفرســـان الرومانية الموجودة علي كلا الجناحين. وتم أيضا تمزيق الصفوف الأولـــى للـــرومان تحـــت أقـــدام الفيلة. كما تم محاصرة المؤخرة من جميع الجوانب علي يد الفرســـان، أمـــا الذين حاولوا العبور بالقوة عبر الفيلة وتجمعوا خلف تلك الحيوانات؛ هاجموا جانبـــي الجـــيش القرطاجـــي بقوة شديدة، لكنهم تمزقوا إلى جماعات صغيرة وكثيرة. وعندئذ تعـــرض الـــرومان لهزيمة ثقيلة حيث قُتل العدد الأكبر منهم بينما تم آسر البقية علي يد فرق الفرســـان(٤٤). ولكـــن تمكـــن ألفان فقط منهم من الفرار إلى أسبيس (*Aspis*). أما الخمسمائة جندي الذي فروا مع ريجيلوس فقد وقعوا في أيدي العدو وتم آسرهم بما فيهم ريجيلوس نفسه.

(40) Holmes. T. R, The Roman Republic And The Founder Of The Empire, Vol. I (From The Origins to 58 B.C.), Oxford, 1923, P. 7.
(41) Perry. A, OP. Cit., P. 57 ; CF. Cook. S &Others, OP. Cit., PP. 683- 684.
(42) Polybius, I, 32. 1- 33. 7.
(43) Tarn. W.W, Hellenistic Military And Naval Developments, PP. 95- 98.
(44) Polybius, I, 34- 35. 1.

أمـــا خـــسائر القرطاجيين في هذه المعركة فكانت بسيطة جداً، حيث قدرت بحوالي ٨٠٠ من المرتـــزقة(٤٥). وهكـــذا انـــتهت هذه المعركة الهامة لصالح القرطاجيين، ومن المؤكد أنها قد أعادت الثقة والطمأنينة إلى نفوسهم بعض الشيء.

أمـــا اكسانثيبوس الذي يرجع إليه الفضل في كل ذلك، فقد اختار العودة إلى وطنه بعد فترة قصيرة من هذا الانتصار الباهر الذي حققه. ويرى بوليبيوس أن قراره هذا كان غاية في الحكمـــة والعقل، لأن المزيد من الإنجازات والنجاحات البراقة كانت سوف تثير الغيرة والحقد في نفوس القادة الآخرين(٤٦).

ولكـــن هناك رأياً آخر يذكر أن اكسانثيبوس قد لقي حتفه علي يد القرطاجيين، وذلك، علي ما يبدو، حسداً منهم لمهارته ونجاحه (٤٧).

ولكـــن لـــم يلبث الأسطول القرطاجي أن هُزم على يد الأسطول الروماني، الذي كان قادما بتعزيزات لريجيلوس ولكنه لم يصل إلا بعد انتهاء المعركة البرية، وكان ذلك في صيف عـــام ٢٥٥ ق.م بالقـــرب من هيرمايوم(*Hermaeum*) . وقدرت خسارة القرطاجيين في هذا الاشـــتباك بحوالـــي ١١٤ سفينة. ولكن أثناء عودة الأسطول الروماني عصفت به الأنواء تجاه كمارينا (*Camarina*) ولم ينجو من سفنه سوى ثمانيين سفينة فقط(٤٨).

ولكـــن ذلـــك لـــم يُـــضعف مـــن عزيمة الرومان القوية حيث أعدوا في العام التالي (٢٥٤ق.م) مباشـــرة أسطول جديد مكون من ٢٢٠ سفينة، بالإضافة إلى السفن التي نجت من العاصـــفة. ولقـــد أبحـــر القنـــصلان الجديدان أولوس أتيليوس (*Aulus Atilius*) وجنايوس كورنيلـــيوس (*Gnaeus Cornelius*) علـــي رأس هـــذا الأســـطول إلـــى بانورموس بهدف الاســـتيلاء علـــيها. وبعد أن تحقق لهم هذا الهدف أبحروا عائدين إلى روما تاركين حامية في المديـــنة(٤٩). وكـــان لهـــذا الـــنجاح أهمـــية كبرى، حيث شجع كثير من المدن مثل تينداريس (*Tyndaris*)، وسولوس (*Solus*)، وبيترا (*Petra*)، ومدن أخرى كثيرة، علي الانضمام إلى رومـــا والخروج عن طاعة القرطاجيين (٥٠). غير أن نشاط روما ما لم يلبث أن تراخي لأول مـــرة خـــلال الحرب البونية الأولى، وظل الفريقان يرقب كل منهما الآخر فلم يحدث شئ ذو أهمـــية حتى عام ٢٥٠ ق.م عندما حاولت قرطاجة استرداد بانورموس ولكنها فشلت في ذلك ورُدت قـــواتها علي أعقابها بخسائر هائلة، مما شجع الرومان علي مواصلة نشاطهم في العام

(45) Cook. S & Others, OP. Cit., P. 684.
(46) Polybius, I, 36.1-10.
(47) Appian, VIII, 1.4, ; CF. Diodorus, XXIII, 15.4-16.1.
(48) Polybius, I, 36.1-37.6 ; CF. Diodorus, XXIII, 17.1-18.4.
(49)Ibid, I, 38.4-39.2.
(50) Cook. S & Others, Op. Cit., p. 686.

التالــي بالــزحف علــي ليليبــيوم (*Lilybaeum*) [٥١] ومحاصــرة هذه المدينة المنيعة براً وبحــراً[٥٢]. ولقــد اعــتقد الرومان أنه بسقوط هذه المدينة في حوزتهم يكون من السهل نقل الحــرب إلى ليبيا حيث كانت تطل عليها؛ كما أن موقعها يعد قاعدة مناسبة للهجوم علي القلاع التــي أمــام قرطاجة. ونظراً لأهمية هذه المدينة لم يتواني هيميلكو عن الدفاع عنها. وفي تلك الأثــناء، أحبط هذا القائد مؤامرة دبرها بعض الضباط المرتزقة تقضي بتسليم المدينة للرومان؛ فقــد استرضي الجنود المتمردة بفصاحته ووعوده بهدايا ومكافأت سخية وثمينة[٥٣]. ولقد قاوم هيمــيلكو قــوات الحــصار حتــى استطاع هانيبال (بن هاميلكار) بعد مناورة شجاع اختراق الحــصار ودخــول المدينة علي رأس قوة مؤلفة من عشرة آلاف جندي. وعندئذ، قام هيميلكو بهجــوم شرس علي آلات الحصار الخاصة بالعدو ومحاولاً إحراقها؛ ولقد أدى هذا إلى نشوب معــركة عنيفة بين الطرفين. ولقد تقهقر هيميلكو عندما لم يتمكن من إحراق تلك الآلات. ولكن فــي هجــوم آخر، نجح في إحراقها والقضاء عليها تماما[٥٤]. وعندئذ صار الرومان بلا حيلة، خاصــة مــع نقص الإمدادات. لكن هيرو أرسل إليهم إمدادات وفيرة مما أعطاهم دفعة جدية لاستئناف الحصار[٥٥].

وفــي عــام ٢٤٩ ق.م، أرسلت روما قوة جديدة تقدر بحوالي عشرة آلاف جندي إلى صــقلية، وذلــك بعــد أن وصــلتها أنباء ما حدث في ليليبيوم. وعندئذ فكر القنصل بوبليوس كلاوديــوس بولــشير(*Publius Claudius Pulcher*) في مهاجمة دريبانا (*Drepana*) بحــراً، ولكــنه هزم بعد معركة عنيفة أمام القائد القرطاجي ، أدهيربال (*Adherbal*)، بل لقد هــرب القنــصل الرومانــي علي رأس حوالي ثلاثين سفينة فقط، أما البقية وكان عددها يقدر بثلاثة وتسعين سفينة قد تم آسرها بكامل بحارتها وأطقمها[٥٦]. وفي تلك الأثناء، وازداد موقف الــرومان ســوءاً، حيث خسروا أسطولين دفعة واحدة بعد أن تعرضا العاصفة شديدة دمرتهما حتى آخر سفينة، وصارت روما مجبرة بسبب حاجتها الماسة لأسطول علي ترك إمبراطورية البحر لقرطاجة[٥٧]، وإن كان ذلك مؤقتاً.

وفــي عــام ٢٤٧ ق.م أســندت قرطاجة قيادة قواتها في صقلية إلى قائد شاب يدعى هامــيلكار بارقــا (*Hamilcar Barca*) (انظر شكل رقم ٢٥) الذي تمكن من السيطرة علي

---

(٥١) مار سالا (Marsala) حديثاً. انظر:- Heitland. W.E, Op. Cit., p. 98.

(٥٢) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(53) Polybius, I, 41.5-43.1-7.
(54) Perry. A, Op. Cit., p. 62.
(55) Diodorus, XXIV, 1.2-5.
(56) Polybius, I, 49-52.6.
(57)Ibid, I, 54.2-55.1.

جـبل هرقتـي (*Hercte*) قـرب بانورمـوس وجبل أوركس (*Eryx*) بجوار دريبانا و هما موقعين حصينين، و اتخذ منهما قاعدتين لشن غارات خاطفة علي القوات الرومانية التي كانت عندئذ تحاصر ليليبيوم وكذلك دريبانا.

ولكن قرطاجة لم تمد هاميلكار بالإمدادات اللازمة من قوات وسفن ليتمكن من خوض معـركة فاصـلة في صقلية أو تحويل غاراته الخاطفة علي الشواطئ الإيطالية إلى غزو أكثر تأثيراً وفعالية.

وفـي تلك الأثناء حين تغلبت روما علي مشكلة عجز خزانة الدولة عن مواجهة نفقات الحـرب وبـناء أسطول جديد عن طريق جمع التبرعات من مواطنيها مما مكنهم من تجهيز مائتـي سفينة حربية، قررت حكومة قرطاجة الاقتصاد في المصروفات بسحب الجانب الأكبر مـن أسـطولها وتسريح قواته. ولذلك عندما تم بناء الأسطول الروماني وذهب في صيف عام ٢٤٢ق.م لتـشديد الحـصار علـي ليليبيوم ودريبانا من ناحية البحر لم تستطع قرطاجة إعداد أسـطولها بحيث يتمكن من إنقاذ هاتين القلعتين، ولم يكن في وسعها سوى إرسال نجدة بحرية قابلهـا الأسـطول الروماني خارج دريبانا وهزمها في ربيع عام ٢٤١ق.م. ولما لم يبق هناك أمل في إنقاذ ليليبيوم ودريبانا وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الرومان ليغزوا أفريقيا مرة أخرى، قـبلت قـرطاجة شروط الصلح التي قدمها القنصل جايوس لوتاتيوس كاتولوس (***Lutatius Catulus***)، وهو الذي كان يتولى القيادة العليا للأسطول الروماني وعرف هذا الصلح باسمه، أي صلح كاتولوس[٥٨].

وكانـت نصوص هذا الصلح كالتالي: "**علي القرطاجيين إخلاء كل صقلية وألا يعلنوا الحـرب علي هيرو. وعليهم أن يسلموا للرومان كل الأسرى دون فدية، وأن يدفعوا للرومان ٢٢٠٠ تالـنت علي أقساط سنوية لمدة عشرين عاماً** "[٥٩]. ولكن عندما أرسلت هذه الشروط إلى روما لم يقبلها الشعب؛ ولذلك تم إرسال عشرة مفوضين لدراسة الأمر. ولكنهم لم يحدثوا أيـة تغييـرات جوهـرية، بل أضافوا ألف تالنت إلى الغرامة، كما طالبوا قرطاجة بإخلاء كل الجزر الممتدة بين صقلية وإيطاليا[٦٠]. ولقد استمرت هذه الحرب طوال أربعة وعشرين عاماً، فقـد الرومان خلالها حوالي (٧٠٠) سفينة حربية، بينما فقد القرطاجيين حوالي (٥٠٠) سفينة حربية، فضلاً عن حوالي ٢٠٠,٠٠٠ جندي فقدتهم روما في هذه الحرب الشرسة[٦١].

---

(٥٨) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٥٩، ٢٦٠.

(٥٩) التالنت، هو وحدة وزن وهي أيضاً وحدة عملة تساوي ٦٠ مينا اتيكية والمينا الواحدة تساوي مائة دراخمة. انظر:- الأمين علي الأمين، المرجع السابق، ص ٣٥، حاشية ٦.

(60) Polybius, I, 62.4-63.3.

(61) Ibid, I, 63.4-64.2.

وهكــذا انــتهت الحرب البونية الأولى، والتي تكبدت فيها قرطاجة خسائر هائلة، كان أثقلهــا على الإطلاق فقدان صقلية، إلا أن كل ذلك لا يوازى ما سوف تلاقيه وتعانيه فيما بعد؛ حيث لم تلبث أن تورطت في حرب أخرى لا تقل عنفا وضراوة عن الحرب البونية الأولى ألا وهــي الحــرب التي خاضتها ضد فرق المرتزقة التي كانت تعمل لحسابها أثناء الحرب التي خاضــتها ضــد فرق المرتزقة التي كانت تعمل لحسابها أثناء الحرب البونية الأولى.ووصلت خطورة هذه الفرق إلى درجة تهديد قرطاجة نفسها.

دارت أحــداث هــذه الحرب في العام التالي (٢٤٠ ق.م) لنهاية الحرب البونية الأولى مباشــرة، ولقد عرفت باسم "**الحرب الليبية**"(٦٢). وتبدأ وقائعها بمجرد أن عادت فرق المرتزقة مــن صقلية إلى أفريقيا، حيث لم يلبثوا أن طالبوا الحكومة القرطاجية بدفع مستحقاتهم المتأخرة بالإضــافة إلـــى المكافــآت السخية التي كان قائدهم هاميلكار قد وعدهم بها. وعندما عجزت الحكــومة عــن دفعهــا، نظراً للخسائر والغرامات الفادحة التي تكبدتها أثناء الحرب السابقة، أشــعلوا لهــيب الثورة بين الليبيين، فلم تلبث قرطاجة أن وجدت نفسها متورطة في حرب أشد ضــراوة وعــنفا من الحرب التي خرجت منها. بيد أنه عندما أسندت القيادة إلى هاميلكار برقا تمكن من القضاء على الثوار (عام ٢٣٨ق.م) فتنفست قرطاجة الصعداء بعد ثلاث سنوات من العــناء(٦٣). وأثــناء هــذه الحــرب أظهــر الرومان تعاطفاً شديداً مع قرطاجة، فقد زودوها بالإمدادات، كما سمحت لهم بتجنيد مرتزقة من الإيطاليين.

والأكثــر مــن ذلــك أنه، عندما ثارت حامية سردينيا ضد قرطاجة في عام ٢٣٩ق.م وعرضت على الرومان تسليم الجزيرة لهم، رفضوا هذا العرض(٦٤).

بــيد أنه ما أن انتهت الحرب في أفريقيا حتى عدل الرومان عن موقفهم السابق، ذلك أنه عندما تجــدد عــرض مرتزقة قرطاجة في سردينيا مرة أخرى في عام ٢٣٨ق.م، لم يتردد الرومان مطلقــاً في قبوله على الفور. ومن ثم أرسلت روما قوة احتلت المراكز القرطاجية الواقعة في جــنوب غــرب ســردينيا. وعــندما احتجت قرطاجة على ذلك وشرعت في إعداد حملة ضد مرتــزقتها المتمــردين هــناك، تــدخلت روما واعتبرت ذلك عملا عدائياً من جانب قرطاجة وأعلــنت عليها الحرب إلا إذا آثرت السلم بشرط أن تتنازل للرومان عن سردينيا وكورسيكا،

ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:-

Tarn. W.W, "The Fleets Of The First Punic War", pp. 51-52.

(62)Ibid, I, 70-71.6.

(٦٣) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٦١؛ انظر أيضا:-

CF. Rostovtzeff. M, Op. Cit., p. 61.

(64) Grant. M, Op. Cit., p. 87.

وأن تدفــع تعويــضاً إضافيا قدره ١٢٠٠ تالنت. ولما لم يكن في وسع قرطاجة خوض غمار حرب جديدة ضد روما في ذلك الوقت، فإنها اضطرت إلى قبول شروط السلم(٦٥).

وممـــا تقدم يتبين لنا مدى خطأ قرطاجة في الاعتماد الكلي علي المرتزقة وعدم وجود جــيش وطنـــي دائـــم يـــدين لها بالولاء والطاعة. ويعد هذا من الأسباب الرئيسية في هزيمة قــرطاجة، نظــراً لعــدم ولاء هــذه القوات لها واستعدادها الدائم لترك جانبها في أي لحظة والانضمام للطرف المعادي إذا عرض عليها أجر أكبر؛ فضلاً عن استعداد هذه القوات للثورة علــيها فـــي حالـــة إذا ما تأخرت رواتبهم (كما رأينا). وهناك أسباب أخرى أدت بالتأكيد إلى هــزيمة قــرطاجة، ومن الجدير بالذكر أن، هذه الأسباب قد بدت واضحة جداً من خلال سياق الأحــداث أثــناء الحروب السالفة الذكر. ومن بين هذه الأسباب؛ سبب اجتماعي، ألا وهو عدم الانــدماج الكلي بين عناصر المجتمع القرطاجي (العنصر الفينيقي، والعنصر الليبي المحلي)، فــضلاً عن قسوة القرطاجيين في التعامل مع السكان المحليين مما تسبب في كراهيتهم الشديدة لهــم. ففـــي أثــناء الحرب البونية الأولى كثيراً ما رأينا تمرد السكان المحليين وثورتهم ضد قرطاجة ومحاولة الانضمام إلى الرومان، فتسبب هذا في الكثير من القلق لقرطاجة حيث شتت انتــباهها فـــي اتجاهين مختلفين. ولقد تجلت هذه الكراهية بوضوح أثناء أحداث الحرب الليبية حيث لم يتواني السكان الليبيين عن مساعدة الثوار.

ومـــن الجدير بالذكر أن، قرطاجة كانت تعاني من سوء أوضاعها الداخلية فكان هناك نـــزاع تقليدي بين طبقات المجتمع حول الثروة. فبينما كان يفضل البعض الثروة المعتمدة علي الإنـــتاج الزراعـــي كـــان البعض الآخر يفضل المكاسب التجارية المعتمدة علي الأسواق التي يلـــزمها الإبحار الدائم والاستكشاف. فكان هناك نوع من التنافس الشديد بين كل هذه الطبقات حـــول الـــسيادة الـــسياسية فـــي المجـــتمع، كان من نتائجه عدم وجود وحدة الرأي السياسي القرطاجـــي. وقـــد أثـــرت هـــذه المنافـــسات علي العمليات الحربية فكانت من أسباب تعطيل الانتـــصارات عـــدم المـــوافقة علـــي إرسال الإمدادات اللازمة في الوقت المناسب بسبب هذه المعارضـــة، كمـــا حدث مع هاميلكار وسوف يحدث مع هانيبال فيما بعد أثناء الحرب البونية الثانية، وكان لكل جانب حزبه من أعضاء مجلس الشيوخ مما كان يعنى انقسام المجلس وعدم الوصـــول إلـــى رأي نهائـــي موحد بصدد أحد الأمور المعروضة عليه. وفي تقديرى أن هذا الصراع كان هو السبب في هزيمة قرطاجة بل وتدميرها في النهاية.

وبالإضـــافة إلى كل الأسباب السالفة الذكر، هناك سبب آخر يعد من أخطر الأسباب التي أدت إلى هزيمة قرطاجة ألا وهو، مصير كل قائد قرطاجي في حالة إذا ما فشل في المهمة الموكلة

(٦٥) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٦١- ٢٦٢؛ ولمزيد من التفاصيل حول هذه الحرب ، انظر:-
Polybius, I, 66.5-11ff.

إلـــيه؛ فكان مصيره التعذيب ثم الصلب. وبدون شك أن هذا المصير المفزع كان يشغل بال كل قائـــد عـــند القـــيام بأي حملة عسكرية، مما كان يقيد حريته في التصرف ولا يدعه يخرج كل طاقاته وإبداعاته، لأنه كان يخاف أن يفشل فيكون مصيره الصلب. فكان عليه أن ينتظر أوامر مجلـــس الشيوخ في كل صغيرة وكبيرة مما كان يعرقل سير الأحداث. وليس هذا فقط ما كان يـــشغل بال القائد القرطاجي، لأن في حالة نجاحه أيضا كان يصبح عرضة للتشكيك في نواياه المـــستقبلية، فـــضلاً عـــن غيـــرة وحقد أقرانه عليه. وكان يترتب علي ذلك كله عدم إرسال الإمدادات إليه. ولهذا لم يستطع القادة القرطاجيون أن يحققوا الضربة الأخيرة أبداً. وهكذا يبدو مـــن ســـياق الأحداث أن قرطاجة كانت هي السبب الرئيسي في هزيمة نفسها في هذه الحرب، وفـــي الحـــروب التالية حيث سوف تداوم علي اتباع هذه السياسات الخاطئة ولن تغيرها (كما سنري فيما بعد)، مما سوف يؤدي إلى تدميرها في النهاية.

ثانياً: الحرب البونية الثانية:

و لقـــد خـــرجت قرطاجة من الحروب السابقة مثقلة بخسارة ضخمة، وضعف أصابها مـــن جـــراء فقدان أغني مستعمراتها، والغرامات المالية الثقيلة الملقاة علي عاتقها. عندئذ رأي هامـــيلكار ضـــرورة مغادرتهـــا والاتجاه إلى مكان جديد يستطع أن يواصل فيه مجده ويحقق الثـــروة والمجد لبلاده تعويضا لها عن بعض الخسائر التي تكبدتها، فوقع اختياره على إسبانيا، تلـــك الـــبلاد الغنية بتربتها ومناجمها وبشعبها ذو الطبيعة الصلبة؛ الذي يستطيع أن يجند منه جيشاً قوياً يمكنه فيما بعد من غزو روما والانتقام منها، ولأن أسبانيا تطل علي سواحل طويلة علي البحر المتوسط مما يجعلها سهلة الاتصال بالعالم القديم بأسره، كما أنها تملك مناجم غنية مـــن الفـــضة والنحاس وغيرها(٦٦). وفي عام ٢٣٨ ق.م، أبحر هاميلكار إلى إسبانيا مصطحباً معـــه ابـــنه هانيبال، الذي كان عندئذ في التاسعة من عمره. ولقد قضي هاميلكار هناك حوالي تسعة سنوات (٢٣٨-٢٢٩ق.م)أخضع خلالها الكثير من القبائل الأيبيرية لسلطان قرطاجة(٦٧)، كمـــا أنه أخضع كل الساحل الغربي وجزء من الداخل، فضلاً عن إعادة إخضاع معظم الأقاليم الجنوبية والشرقية في جاديس. و أنشأ ميناء وعاصمة في آكرا ليوسي(٦٨).

ولقـــد أثـــارت هـــذه النجاحات الواسعة التي أحرزها هاميلكار في أسبانيا قلق وخوف رومـــا، نظراً ما تحقق له من مستعمرات غنية وموارد مالية ومادية وبشرية هائلة؛ مكنته من تكـــوين جيش جرار من الأسبان يدين بالولاء له وحده، يستطيع أن يغزو به روما ذاتها.وبناءً

(66) Grant. M, Op. Cit., pp. 96-97.
(67) Polybius, II, 1.6-2.8.
(68) Grant. M, Loc. Cit.
ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:- دونالد.ر.ددلي، المرجع السابق، ص ص ٦٨-٦٩.

علـــي ذلـــك أوفدت روما في عام ٢٣٠ق.م بعثة إلى هاميلكار في محاولة منها للتعرف علي نواياه المستقبلية. ولقد تم إيفاد هذه البعثة بإيعاز من ماسيليا، عندما خافت علي مستعمرتيها من التوســع القرطاجـــي، وهما مستعمرة رودي (*Rhode*) وأمبورياي (*Emporiae*) الواقعتين علي شاطئ أسبانيا الشمالي الشرقي، وقد احتجت لدى الرومان بسبب صلاتها التجارية القديمة الوثــيقة بهـــم. ويبدو أن البعثة قد صدقت تفسيراته بأن هدفه الوحيد من وراء ذلك كان مجرد الحـــصول علـــي موارد جديدة لكي تستطيع بلاده أن تدفع لروما الغرامات المفروضة عليها. وبـــناءً علـــي ذلـــك لـــم تقـــم البعثة سوى بالحصول علي وعد بعدم الاعتداء علي ساجينتوم (*Saguntum*)، والتي كانت فيما يبدو تربطها بماسيليا روابط تجارية وسياسية(٦٩).

وبعـــد كفـــاح طـــويل وشاق في أسبانيا استمر لمدة حوالي تسع سنوات سقط هاميلكار القائـــد العظيم في ميدان المعركة أثناء قتاله ضد إحدى القبائل الأسبانية القوية(٧٠). وبعد وفاته تـــم تعيـــين هاســـدروبال، صـــهره، في القيادة خلفاً له. وكان هاسدروبال يتصف بكونه رجلاً سياســـياً أكثـــر مـــن كونه محارب وجندي، فكان يميل إلى الطرق السلمية أكثر من المعارك والحـــروب، وكان يملك من البلاغة ما يمكنه من جذب الكثير من رؤساء القبائل له، ومما زاد من تمكنه زواجه من ابنة رئيس إحدى القبائل الأيبيرية القوية هناك.

وأهـــم إنجـــازات هاســـدروبال علـــي الإطـــلاق هـــي تأســـيس مديـــنة قرطاجنة (*Carthago Nova*) أي قـــرطاجة الجديـــدة، ولقد تم تأسيسها في عام ٢٢٨ق.م(٧١). وكانت قـــرطاجنة تقـــع علي شبه جزيرة تعد واحدة من أفضل الموانئ في العالم القديم، ومحمية من الـــداخل بواســـطة مستنقع، بينما أعطاها الوادي مدخل إلى مناجم الفضة الكثيرة والغنية. ولقد حـــرص هاسدروبال علي اختيار عاصمة تقع نحو الجنوب أكثر، ولقد دفع حدود ولاية أسبانيا الجديدة علي طول الطريق إلى الشمال، حتى وصل إلى ضفاف نهر الإبرو(٧٢).

وبعـــد أن رأي الـــرومان أن هاسدروبال كان في مقدوره أن يقيم إمبراطورية أكثر إتـــساعاً وقـــوة من تلك التي امتلكتها قرطاجة في السابق، قرروا الاهتمام بشئون أسبانيا. ولقد أدركـــوا أنهم كانوا غافلين عن أهميتها، وأنهم سمحوا لقرطاجة أن تنشئ مستعمرة قوية هناك. ولكن في ذلك الوقت لم يكن في مقدور روما فرض أوامر جديدة علي قرطاجة أو الدخول في

---

(٦٩) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٧٠.

(70) Polybius, II, 1.6-2.8.

ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:-

- Diodorus, XXV,10.3- 12.1

- Tarn. W.W, Hellenistic Military And Naval Developments, p. 92.

(71) Perry. A, Op. Cit., p. 73.

(72) Grant. M, Op. Cit., pp. 97-98.

حــرب ضدها، بسبب تهديد الغزو الكلتي لها، فلم تجد أمامها سوى عقد معاهدة مع هاسدروبال (٢٢٦ق.م)، التــزم القــرطاجيون فــيها بعــدم عبور الإبرو بالسلاح معتدين(٧٣). ولقد استمر هاســدروبال فــي حكم أسبانيا حوالي ثماني سنوات، حقق خلالها الكثير من النجاحات والمجد لبلاده، لكنه قتل (٢٢١ق.م) ليلاً في غرفته علي يد مواطن كلتي(٧٤).

وبمجــرد وصول أنباء مقتل هاسدروبال إلى قرطاجة تم تعيين هانيبال (صهره، وبن هاميلكار بارقا) في القيادة خلفاً له، رغم معارضة هانو (زعيم حزب المعارضة) الشديدة وذلك خــوفاً مــن ازدياد قوة آل بارقا أكثر من ذلك في قرطاجة(٧٥). وكان هانيبال عندئذ في حوالي السادسة والعشرين من عمره، حيث ولد في عام ٢٤٧ ق.م في قرطاجة(٧٦) (انظر شكل رقم ٢٦).

وبعــد إسناد قيادة الجيش إلى هانيبال، قام علي الفور بإخضاع القبائل الموجودة حول نهر الإبرو. وعندئذ لم تجروء أيا من الشعوب القاطنة هناك علي مواجهة القرطاجيين، ما عدا شــعب ســاجينتوم ، التــي حــاول هانيبال كثيراً أن يتحاشها ، حيث كان لا يريد أن يصطدم بالــرومان في تلك المرحلة، وذلك حتى يستطيع أن يؤمن سيادته علي بقية هذه البلاد. وعندما تحقــق له ذلك رأي أن الوقت قد حان لتحقيق هدفه المنشود الذي طالما راوده، ألا وهو إشعال نــار الحرب مرة أخرى ضد روما. ولقد رأي هانيبال أن الفرصة مواتية في ذلك الوقت نظراً لانــشغال رومــا بحروبها ضد الغال فأراد انتهاز الفرصة قبل أن تنتهي من هذه الحروب(٧٧). ولقــد واتت هانيبال الفرصة عندما اشتبكت ساجينتوم مع إحدى القبائل الحليفة لقرطاجة بسبب اســتقبالها لــبعض المنفيين السياسيين من ساجينتوم، حيث كانت روما قد تدخلت في السياسة الداخلــية لهــذه المدينة وساعدت علي إسناد الحكم إلى الحزب المناهض لقرطاجة(٧٨).و إزاء الاســتعدادات التي اتخذها هانيبال لحصار ساجينتوم، استنجدت هذه المدينة بالرومان. وعندئذ أرســل الــسناتوس سفارة إلى هانيبال في عام ٢١٩ ق.م لتحذره من الاعتداء علي ساجينتوم، نظــراً لأن هذه المدينة كانت تحت حمايتهم. ولكن هانيبال أنكر علي الرومان حقهم في التدخل فــي هــذا الموضوع. وعندئذ توجهت السفارة إلى قرطاجة، وهناك أيدت الحكومة القرطاجية وجهــة نظر هانيبال(٧٩). وبناءً علي هذا التأييد ، ونظراً لتوقعه أن الرومان سيحاولون عاجلاً

---

(73) Polybius, II, 13.5-14.5.
(74)Ibid, 36.
(75) Perry. A, Op. Cit., pp. 73-74.

(٧٦) حسن حسيني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، الطبعة الثالثة، تونس، ١٩٥٦، ص ١٦. وانظر أيضا:-
CF. Sladen. D, Op. Cit., p. 141.
(77) Polybius, III, 13.4-15.3.

(٧٨) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٧١.

(79) Grant. M, Op. Cit., p. 98.

أو آجـلاً انـتحال كافة الحجج لطرد قرطاجة من أسبانيا مثلما فعلوا في صقلية ثم في سردينيا وكورسـيكا، قرر الاستيلاء علي ساجينتوم فحاصرها و استولى عليها بعد مقاومة عنيفة دامت ثمانية شهور (خريف ٢١٩ق.م) (٨٠).

ويبدو أن، هانيبال كان يتوقع أن العديد من المزايا والفوائد سوف تعود عليه من وراء الاسـتيلاء علـي ساجينتوم. ففي المقام الأول اعتقد أنه بهذه الطريقة سوف يحرم الرومان من أي أمـل في حملة أو غزو في أيبيريا، كما سوف يستطيع أن يتقدم بأمان دون أن يترك عدواً خلفه؛ بالإضافة إلى المكاسب والغنائم الهائلة التي سوف يحصل عليها والتي يمكن أن تساعده فـي حملـته المنتظرة علي روما. ويبدو أيضا أنه قد حقق بالفعل هذه الأهداف المرجوة عند استيلائه علي هذه المدينة(٨١).

وبعـد سقوط مدينة ساجينتوم أرسل الرومان سفارة أخرى إلى قرطاجة تطالب بتسليم هانيـبال، ولكن الحكومة القرطاجية قررت مساندة هانيبال مهما تكن العواقب؛ كما ألقت باللوم علي ساجينتوم في اندلاع هذه الحرب، وأنها كانت البادئة بالعدوان وليس هانيبال. وعندئذ فتح كوينـتوس فابيوس (*Quintus Fabius*) رئيس السفارة عباءته وقال للقرطاجيين "**إنني أحمل لكـم فـي هـذا الطـرف السـلام، وفـي ذلك الطرف الحرب فاختاروا ما تشاءون**" فأجابه القـرطاجيون فـي تحـد بـأن يعطـيهم ما يشاء لأنهم لا يهتمون؛ فأثار ذلك غضب السفير الرومانـي، فقـال لهم "**حسن،فأنى أعطيكم طرف الحرب**"، عندئذ صاح القرطاجيون في وقت واحـد بـأنهم يقـبلوه وسوف يتحملون ذلك بنفس الروح التي قبلوها به(٨٢). وهكذا تم إعلان الحرب البونية الثانية علي قرطاجة في عام ٢١٨ق.م.

يـرى بوليبـيوس أن الاستيلاء علي ساجينتوم كان فقط السبب الظاهري للحرب. أما الأسـباب الحقيقـية فلم تكن وليدة اللحظة، إنما ترجع إلى زمن الحرب البونية الأولى وحرب المرتزقة ونتائجهما الثقيلة علي قرطاجة، فكل ذلك جعل قرطاجة تريد الانتقام بشدة من روما، نظـراً للإهانة الشديدة التي تعرضت لها علي يدها. وكان هاميلكار بارقا هو الزعيم الذي رفع رايـة الانتقام وتلقاها بعده ابنه هانيبال وفاء منه لليمين الذي أقسمه لأبيه. كما أن النجاح الذي حققه القرطاجيون في أسبانيا آثار حقد ومخاوف الرومان(٨٣).

وكانـت خطة هانيبال تنطوي علي الزحف براً عبر جبال البرانس وجنوب بلاد الغال عبـر الألب ثم عبور جبال الألب والانقضاض سريعاً علي شمال إيطاليا، حيث كان يأمل في

---

(٨٠) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٧٢. وعن تفاصيل هذه الحرب، انظر: Livy, XXI, VII. 3-XV.6.

(81) Polybius, III, 16.5-18.3 ; CF. Livy, XXI, XIV.4-XV.6.

(82) Livy, XXI, XVIII.

(83) Polybius, III, 9.4-13.4.

حـــسن استقبال الغال له والحصول علي إمدادات وفيرة من المؤن والرجال ثم التقدم إلى أبوليا فـــي الجنوب ليقطع بذلك خطوط المواصلات الرومانية ويضم إليه حلفاء روما الناقمين عليها ويتمكن من الاتصال بحراً بقرطاجة عن طريق إحدى الموانى الإغريقية في الجنوب(٨٤).

وبعـــد أن اعلـــنت رومـــا الحرب علي قرطاجة، قررت إرسال بوبليوس كورنيليوس ســـكيبيو إلـــى أســـبانيا لمـــواجهة هانيـــبال، وتيبريوس سمبرونيوس لونجوس (Tiberius Sempronius Longus) إلى أفريقيا ليغزوها، ولكن هانيبال قطع عليهم هذا التدبير بالخطة الجريئة التي وضعها لغزو إيطاليا(٨٥).

وفـــي ربيع عام ٢١٨ ق.م، غادر هانيبال قرطاجنة، تاركا أخاه هاسدروبال في القيادة هناك. وتقدم لعبور جبال الألب علي رأس جيش مكون من تسعين ألفاً من المشاة، واثني عشر ألفـــا من الفرسان، بالإضافة إلى سبعة وثلاثين فيلاً. وبعد أن اجتاز هانيبال جبال البرانس عبر نهـــر الـــرون، كما استطاع أيضاً تفادي التصادم مع جيش سكيبيو، وكان قد وصل بحراً إلى ماســـيليا (Massilia) فـــي طـــريقه إلى أسبانيا. وعندما علم سكيبيو بأن هانيبال عبر الرون أرسل أخيه جنايوس علي رأس جيشه إلى أسبانيا لكي يدير الحملة هناك، بينما أسرع هو عائداً إلى روما ليجند جيشاً اخر ينتظر به هانيبال عند هبوطه من جبال الألب(٨٦).

وفـــي نهاية الصيف اقترب الجيش القرطاجي من مطلع جبال الألب. ولقد عاني هانيبال كثيراً فـــي هـــذه الجـــبال الوعرة بسبب البرد والجوع والمرض. واخترق هانيبال جبال الألب لمدة خمسة عشر يوماً في تجربة قاسية، حيث مر في ممرات ضيقة للغاية حول فوهة هوة سحيقة، وحـــيث تقطن القبائل الجرمانية العدوانية، وقد سقط في تلك الهوة السحيقة عدد كبير من دواب الحمل والجياد، كما نفق عدد آخر من البرد والجوع(٨٧)، ولم يكن الجنود أحسن حالاً فقد هلك منهم الآلاف(٨٨).

وبعـــد تسعة أيام من صعود الألب وصل هانيبال إلى القمة، وبقي هناك يومين لإراحة الناجـــين مـــن جيشه. وعندئذ بدا موقع روما من بعيد؛ فأخذ هانيبال يشير إلى رجاله قرب نيل المجد ليرفع من روحهم المعنوية المنخفضة، وليجدد فيهم الحماس من جديد. وفي اليوم التالي

---

(٨٤) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٧٣-٢٧٤؛ انظر أيضا: دونالد.ر.ددلي، المرجع السابق، ص ٧١ .

(85) Polybius, III, 39.10-40.6.

(86) Frank. T, Op. Cit., p. 115.

(٨٧) وكان هانيبال يملك ٨,٠٠٠ حصان، و ٢,٠٠٠ من البغال خسر عدداً كبيراً منها. انظر:-
Wilkinson. S, Hannibal's March Through The Alps, Oxford, 1911, p. 24.

(٨٨) سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ١٤٥.

بــدأ فــي عملــية الهبوط من أعلي الجبال، ونظراً لوعورة الأرض والثلج كانت خسائره ثقيلة مثلما كانت في عملية الصعود، وبعد سبعة أيام أخرى من الزحف هبط إلى منطقة السفوح.

ولقد استغرقت المسيرة كلها من قرطاجنة حوالي خمسة شهور. وعندما هبط إلى سهل الــبو كــان عــدد الباقين من قواته يقدر بحوالي أثني عشر ألفاً من الأفارقة وثمانية آلاف من المشاة الايبيريين، وليس أكثر من ستة آلاف فارس[٨٩].

وفــي نفس الوقت وصل بوبليوس سكيبيو إلى سهل البو، وأراد أن يشتبك مع هانيبال وأخــذه علــي حين غرة، ولذلك تقدم الاثنين في اليوم التالي مباشرة علي طول البو من أجل الاشــتباك مــع بعضهما البعض. وبالفعل اشتبك الطرفان قرب نـهر تيكينوس (*Ticinos*) أحد روافــد نهر البو في شمال غرب إيطاليا، ولقد استطاع هانيبال هزيمة الرومان، بل وكادوا أن يقــتلون سكيبيو نفسه لولا شجاعة ابنه الذي لم يكن قد تجاوز السبعة عشر ربيعاً ،إذ تمكن من المغامــرة بحــياته لإنقــاذ أبيه الجريح. ومن ثم انسحب الجيش الروماني خائفاً علي اثر هذه الهزيمة[٩٠].

ولقــد واصــل ســكيبيو انسحابه حتى وصل إلى نهر تريبيا (*Trebia*)، ثم انضم إليه ســمبرونيوس بجيــشه بهدف تطويق هانيبال. غير أن هانيبال أدرك بذكائه ما يدور في ذهنهم وبــادر بالهجــوم عليهم، حيث قام في يوم شديد البرودة من شهر ديسمبر بإيقاظ جنوده مبكراً لتــناول الإفطار وجعلهم يدهنون أجسامهم بالزيت وقاية لهم من البرد الشديد، ثم أرسل فرقة مــن الفرسان عبر النهر ليغري الرومان بالاشتباك معه في معركة. وكان سمبرونيوس يتتوق لإحــراز نصر سريع طلباً للمجد والشهرة فقاد جنوده لتعقب جنود هانيبال دون تناول إفطارهم وحينما عبروا النهر شلت المياه الباردة أجسامهم عن الحركة وخاصة لأنهم كانوا جوعي. وقد أرســل هانيبال أخاه ماجو ليفاجئ الرومان من الخلف بينما جعل فرسانه تهاجم جناحي الجيش الروماني، وبعد قتال عنيف تم هزيمة الجيش الروماني هزيمة ثقيلة[٩١].

ويقــدر عــدد الأسرى الرومان في هذه المعركة بحوالي ٣٠,٠٠٠ جندي، علي حين ارتفــع عدد الجيش القرطاجي إلى حوالي ٩٠,٠٠٠ جندي وذلك بعد انضمام الكثير من قوات الحلفــاء إلى هانيبال بعد هزيمة الرومان مثل الكلت والغال وليجوريا[٩٢]. وكان من نتائج هذه الهزيمة أيضاً أن الرومان انسحبوا من شمال إيطاليا تاركينه تحت رحمة هانيبال[٩٣].

---

(89) Polybius, III, 53.3-56.6.

(٩٠) سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(91) Polybius, III, 67.6-68.5-14,71.8-74.8 .

(92) Perry. A, Op. Cit., p. 80.

(٩٣) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٧٦.

وكـــان هانيـــبال يتمتع بذكاء حاد وشخصية متميزة [٩٤]، مما خدمه كثيراً في معاركه الحـــربية. وقـــد ظهر ذكائه هذا في معاملته للأسرى من حلفاء الرومان بعد هذه المعركة، فقد احـــسن معاملتهم كثيراً (علي العكس تماماً من معاملته للأسرى الرومان) وأخبرهم أنه لم يأتي لمحاربـــتهم، بـــل لمحاربـــة الـــرومان من أجلهم لكي يعيد إليهم الحرية التي فقدوها علي يد الـــرومان، ولـــذلك نـــصحهم بالانضمام إليه. وفي النهاية، أعادهم إلى أوطانهم دون فدية[٩٥]. وبالتأكيد كان يهدف إلى كسب واستمالة سكان إيطاليا إلى جانبه.

ولقـــد قـــضي هانيبال الشتاء في تدريب الغال الذين انضموا إليه، وذلك استعداداً لغزو شـــبه الجزيـــرة الإيطالية في ربيع عام ٢١٧ق.م. وفي تلك الأثناء قرر الرومان اتخاذ موقف الدفاع، فوضعوا جيشاً تحت قيادة القنصل جنايوس سرفيليوس (***G. Servilius***) عند أريمينوم (***Ariminum***)[٩٦] ليـــسد "طـــريق فلامينـــيوس" في وجه الغزاة، ووضعوا جيشاً آخر بقيادة القنـــصل الآخـــر جايـــوس فلامينيوس (***G.Flaminius***) عند أرتيوم (***Arretium***) ليحمي أتـــروريا. بـــيد أن هانيبال مر من ممر مكشوف بجبال الأبنين ووصل إلى مكان وراء جيش فلامينـــيوس واستدرجه الي بحيرة تراسيمني (Trasimene)، حيث أخفي أكثر قواته في التلال الـــواقعة علـــي الجانب الآخر من الطريق المار بجوار البحيرة[٩٧]. وفي يوم كثيف الضباب، أعطـــى هانيـــبال إشـــارة بـــدء المعركة، وبمجرد دخول الجزء الأكبر من جيش العدو الممر الـــضيق، أمـــر بـــإغلاق طرفي ذلك الممر. وعندئذ ظهرت فجأة القوات القرطاجية من وراء الـــتلال وهاجمت الرومان من جميع الجهات في وقت واحد. وعندئذ تعرض الرومان لمذبحة بـــشعة راح ضحيتها خمسة عشر ألف جندي روماني، كما قتل أيضا القنصل فلامينيوس علي يـــد بعض الكلتيين. ولقد قدر عدد الأسرى الرومان بحوالي أكثر من خمسة عشر ألف جندي، وقـــد اتبع هانيبال مع أسرى الرومان من الحلفاء نفس السياسة التي اتبعها مع ذويهم في نهاية معركة نهر تريبيا.

أما خسائر القرطاجيين فقدرت بحوالي ألف وخمسمائة جندي فقط. ولم يلبث هانيبال أن أحرز نـــصراً آخـــر عـــندما علم القنصل الآخر بدخول العدو أتروريا وأرسل فرسانه لمساندة جيش

---

(٩٤) وكـــان نابليون بونابرت يقدر هانيبال كثيراً كقائد عسكري عظيم إلى درجة أنه وضعه ضمن أعظم سبعة قادة عـــسكريين عرفهم العالم قاطبة. وكان يصفه دائماً بـ"هانيبال، الأكثر شجاعة علي الإطلاق؛ الأكثر دهشة؛ غاية في الجسارة؛ غاية في العظمة في كل شئ". انظر:- Motley. M, Op. Cit., p. 59.

(95) Polybius, III, 77.1-78.4.

(٩٦) تقع هذه المقاطعة علي ساحل الأدرياتيك حيث يرتبط سهل كيساليين غال ببقية إيطاليا ليس بعيداً عن مصب نهر البو. انظر:- Polybius,III,85.9-86.7 .

(٩٧) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٧٦- ٢٧٧.

فلامينـــيوس ولكـــنهم وصـــلوا بعد المعركة، فما كان مصيرهم إلا أن هانيبال هزمهم هزيمة نكراء[٩٨].

ولقـــد تجلـــت عظمة هانيبال الإنسانية خلال هذه المعركة، حيث أنه عندما علم بمقتل فلامينـــيوس أمر بالبحث عن جثمانه حتى يوفيه حقه من الإجلال والتعظيم وأشرف علي دفنه في احتفال عسكري مهيب، وذلك إعجاباً منه بشجاعة هذا الرجل وبسالته في القتال[٩٩].

وبعـــد هـــذا الانتصار أصبح هانيبال علي أعتاب روما على مسافة خمسة عشر ميلاً، ولـــم تكن روما في الحالة التي تسمح لها بالدفاع عن نفسها، كما لم يكن لديها القوات اللازمة لذلك. فبدا أن سقوطها كان وشيكا، ومع ذلك لم ينتهز هانيبال هذه الفرصة، بل تخلي عن فكرة الاســتيلاء عليها تماماً متبعاً سياسة أخرى ألا وهي نهب وتخريب البلاد الموجودة علي جانبي الطـــريق المـــؤدي إلى روما، معتقداً أن ذلك سوف يجعل روما تجثو علي ركبتيها أمامه بعد المـــتاعب والجـــوع الذي سوف يصيبها من جراء هذا الدمار. وعندئذ يستطيع أن يملي عليها شروطه[١٠٠]. و يحقق بذلك رغبته الدفينة في إذلال روما.

ويعلل البعض عدم إقدام هانيبال علي غزو روما في ظل الظروف السابقة الذكر، بأنه لـــم يكـــن يملك المعدات اللازمة لفرض الحصار عليها، لأن حصار ومهاجمة أسوار روما لم يكـــن بالمهمة الهينة، كما أنه كان يفتقر أيضا إلى قواعد قريبة تمده بالمؤن والإمدادات اللازمة أثناء فترة الحصار؛ لأن مدن وسط إيطاليا ظلت علي ولائها لروما[١٠١].

ولمـــا وصـــلت أنباء تلك الهزائم إلى روما سادت حالة من الخوف والذعر في البلاد. وعـــندئذ رأي الـــسناتوس أن الموقف يتطلب سلطة منفردة ومطلقة، وهي التي يطلقون عليها الدكـــتاتورية، وأن الـــرجل الـــذي يلـــيق لهـــذا المنصب هو فابيوس ماكسيموس (***Fabius Maximus***) . وفي نفس الوقت تم تعيين ماركوس مينوكيوس (***Marcus Minucius***) قائداً للفرسان[١٠٢]. وفي ظل الظروف القاسية التي كانت تمر بها روما في ذلك الوقت، أصبح من الصعب عليها خوض غمار معركة جديدة ضد القرطاجيين في الوقت الراهن؛ نظراً لما كانت تعانـــيه مـــن نقـــص شديد في الرجال والمال بعد الخسائر الهائلة التي منيت بها في المعارك السابقة. لذلك لجأ فابيوس إلى سياسة جديدة تماماً علي الشعب الروماني، وهي سياسة تشبه في مفهومنا الحديث "حرب الاستنزاف".

---

(98) Polybius, III, 83.7-86.7 ; CF. Diodorus, XXV, 19.1.

(٩٩) سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ١٤٨.

(١٠٠) نفسه.

(101) Grant. M, Op. Cit., p. 101 ; CF. Frank. T, Op. Cit., pp.117-118 ;Cary. M, Op. Cit., p.161.

(102) Plutarch, Fabius Maximus, III ; CF. Polybius, III, 87.3- 88.2.

ولقــد لجأ فابيوس إلى ذلك بعد أن لاحظ معنويات هانيبال المرتفعة ونشاطه الذي بلغ الـذروة، كمــا لاحظ أن إمداداته كانت قليلة نظراً لبعده الشديد عن الوطن وافتقاره إلى قواعد قــريبة تابعــة لــه لإمداده بالمؤن اللازمة. كما كان هناك تناقص في أعداد جيش هانيبال بعد المعــارك الطــويلة التــي خاضها. فلذلك أراد أن يرهق ويستنفد تدريجيا كل إمدادات وموارد هانيــبال(١٠٣). لذلك، خلال الفترة التالية استمر في التحرك موازياً للعدو، ويحتل مقدماً المواقع التــي يعــتقد أنها الأكثر أهمية له. وفي نفس الوقت اعتمد علي الفرص التي تتاح له لمهاجمة العــدو بــصورة جــزئية، وبهــذه الطريقة استطاع أسر وقتل أعداد من العدو؛ مما تسبب في تــناقص أعــداد العــدو من ناحية، ومن الناحية الأخرى أدى إلى رفع الروح المعنوية لقواته تدريجيا عن طريق هذه الانتصارات والنجاحات الجزئية(١٠٤).

لكن هذه السياسة أثارت الشعب الروماني، الذي كان يتصف بالشجاعة وميله إلى حسم الأمــور بــسرعة عن طريق المعارك الحربية. وعندما استمر الوضع بهذا الشكل أطلق عليه الــشعب لقب مهين؛ هو (***Cunctator***) أي المتخاذل أو المتباطئ(١٠٥)، كما أطلقوا عليه أيضا لقــب آخــر أشد وطأة وهو "التابع" (***Cliens***) لأنه كان يتبع هانيبال، ووصفوه أيضا بالجبن. ومع ذلك، تحمل فابيوس هذه الإهانات بهدوء أعصاب(١٠٦).

ومــن الجديــر بالذكــر أن، هانيبال اتبع في نفس الوقت خطة مضادة لخطة فابيوس تنطوي علي إثارة الرومان ضد فابيوس عن طريق إغارات ضد المقاطعات الرومانية الهامة، معتقداً أنه بهذه الطريقة سوف يجبر فابيوس علي خوض غمار معركة حاسمة تحت ضغط من الــشعب الروماني وقياداته. ومع ذلك، استمر فابيوس في البقاء خلف العدو علي مسافة يوم أو اثنــين من السير المتواصل رافضاً التقدم إلى الأمام والاشتباك مع العدو. وعندما رأي هانيبال أن فابــيوس لــم تكــن لديه النية في الدخول في معركة ضده، قام بهجوم عنيف في فاليرنوم (***Falernum***) فــي سهل كابوا (***Capua***)، معتمداً علي احتمال من اثنين:- إما إجبار العدو علي القتال، وإما يجعل من الواضح أمام الجميع أنه ينتصر وأن الرومان يتركون البلاد له.

وبــناءً علــي حدوث ذلك يبدو أن هنانيبال كان يأمل في انضمام المدن الإيطالية إليه، حــيث لــم تخرج مدينة إيطالية واحدة علي طاعة روما وانضمت إليه حتى ذلك الوقت. ولقد

---

(103) Ibid, V.

(104) Polybius, III, 90.2-10.

(105) Rostovtzeff. M, Op. Cit., p. 67.

(106) Diodorus, XXVI, 2.1-3.3.

ولمعرفة المزيد من الألقاب التي أطلقت عليه، انظر :-

Gilman. A, Op. Cit., p.139.

ألحـــق هانيـــبال الدمار الكلي بالسهل. وعندئذ قرر فابيوس أخيراً أن يتخذ خطوة إيجابية ضد العدو ويخرج عن صمته، حيث قرر مهاجمة هانيبال، ولكنه هزم ومنى بخسارة كبيرة(١٠٧).

وعند وصول هذه الأنباء إلى روما ثارت حالة شديدة من الكراهية لفابيوس، كما ازداد الازدراء والإهانة له أكثر من أي وقت. ولم يكن السناتوس أقل غضباً من الشعب. وإزاء ذلك الموقــف، اتخــذ الــرومان خطوة لم يسبق لها مثيل وهي إعطاء مساعد فابيوس " ماركوس مينوكــيوس" سلطات مساوية لسلطاته، وذلك لأنه كان يدعو إلي اتباع خطة هجومية. وعندئذ عــزم ماركــوس علــي مهاجمة العدو، وبالفعل اشتبك مع العدو فكاد هانيبال أن يقضي علي جيشه تماماً لولا وصول فابيوس في الوقت المناسب لنجدته(١٠٨).

ومـــنذ ذلك الحين بدا واضحاً للجميع أن فابيوس كان محقاً في سياسته. ومن ثم تحول لقـــب المـــتخاذل الذي أطلق عليه من قبل إلى صفة مدح، كما أن الشاعر إينيوس (***Ennius***) خلده بوصف كونه "الرجل الذي بمفرده أنقذ الدولة بصبره"(١٠٩).

وفـــي تلـــك الأثـــناء تخلـــي فابيوس عن منصبه، وعادت روما مرة أخرى إلى نظام القناصـــل. وفـــي عام ٢١٦ق.م، تم إجراء الانتخابات من أجل فترة قنصلية جديدة. وكان أول المرشـــحين لهذا المنصب هما، لوكيوس إيميليوس باولوس (***Lucius Aemilius Paulus***)، وجايوس تيرينتيوس فارو (***Gaius Terentius Varro***)وبالفعل فاز هذان الرجلان بمنصب القنصلية لهذا العام(١١٠).

كـــان الـــرومان في ذلك الوقت في شدة الشوق والرغبة لخوض غمار معركة فاصلة ضـــد هانيـــبال. فلـــذلك عمـــل القنصلان علي حشد أكبر جيش جندته روما في تاريخها علي الإطلاق، تألف من ثمان فرق، وكل فرقة تضم خمسة آلاف من المشاة وثلاثمائة فارس. كما بلـــغ عدد المتطوعين الإيطاليين في الفرق المساعدة رقماً مقارباً للجيش الروماني،و بذلك بلغ إجمالـــي الجـــيش حوالي ثمانين ألف جندي. وكان هذا الجيش واثقاً من نفسه إلى حد الغرور، معـــتمداً علـــي تفـــوقه العـــددي الهائـــل متجاهلاً قدرة العدو الفنية وقدرات هانيبال العسكرية والتكتيكية العالية.

وفـــي أحـــد أيـــام صـــيف عـــام ٢١٦ ق.م التقي الجيشان بالقرب من مدينة كاناي (***Cannae***) الـــواقعة علـــي ضـــفاف نهـــر أوفـــيدوس (***Aufidus***) في مقاطعة أبوليا(١١١) (***Apulia***) وفـــي هـــذه المعركة عمل الرومان علي مضاعفة خطوط مشاتهم بهدف زيادة أثر

---

(107) Polybius, III, 90.2-10-93.2.
(108) Plutarch, Fabius Maximus, VII, X-XII ; CF. Polybius, III, 101.7-105.6.
(109) Cary. M, Op. Cit., p. 162.
(110) Plutarch, Fabius Maximus, XIV.
(١١١) سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ١٥٠.

هجـومهم علـــي جـــيش هانيـــبال، وذلك اعتمادا علي تفوقهم العددي. وعندئذ ظهرت براعة هانيـــبال العسكرية، حيث أدرك نوايا العدو فقسم مشاته إلى قلب وجناحين، وجعل قوات القلب مـــتقدمة وعلـــي جانبـــيها فرسانه، وخلف الفرسان وضع جناحي المشاة، وأمر القلب بالتقهقر تدريجـــياً أمـــام هجـــوم الرومان. وما أن بدأت المعركة حتى بدد فرسانه فرسان الرومان، ثم عـــادوا للهجـــوم علـــي مـــشاة الرومان من الخلف بعد أن صاروا محاطين من الأمام و من الجانبـــين. وهكـــذا طوق هانيبال عدوه تماماً، وعندئذ دارت أعنف مجزرة تعرض لها الجيش الرومانـــي علـــي الإطـــلاق. وتعتبر هذه المعركة مثلاً عظيماً لنجاح جيش صغير في تطويق جـــيش أكبـــر منه تطويقاً كاملاً، حيث قدر جيش هانيبال في هذه المعركة بحوالي أربعين ألف جندي فقط(١١٢).

ولقـــد فقد الرومان في هذه المعركة حوالي خمسين(١١٣)ألف جندي سقطوا في ميدان المعركة، وكـــان من بين القتلى القنصل باولوس نفسه، كما سقط سرفيليوس قنصل العام السابق وحوالي ثمانـــين عضواً من أعضاء السناتوس(١١٤). ولقد فر حوالي ستة آلاف من الفرسان إلى فينوسيا *(Venusia)* مـــع القنـــصل تيـــرينتيوس. أما المشاة فتم آسر حوالي عشرة آلاف منهم، بينما هـــرب حوالي ثلاثة آلاف فقط إلى مدن صغيرة مجاورة. أما بالنسبة لجيش هانيبال فقد سقط حوالـــي أربعـــة آلاف مـــن الكلـــت، وألـــف وخمسمائة من الأسبان والأفارقة وحوالي مائتي فارس(١١٥).

وعـــندما عـــاد فارو من هروبه إلى روما علي رأس من استطاع الفرار بهم، خرج الـــشعب الرومانـــي والسناتوس لاستقباله بحفاوة وترحاب شديد، بالرغم من أنه كان عائداً من هـــزيمة كبري. وشكر السناتوس فارو لأنه استطاع إنقاذ بعض الفرق الرومانية، وأعلن رضاه عنه لأنه أنقذ الجمهورية ولم ييأس منها. ومن الجدير بالذكر أن، فرحة هذا النصر قد أسكرت أعـــوان هانيبال وأخذوا يحثونه علي المزيد من التقدم ومتابعة انتصاراته، ولذلك عرض عليه ماهـــرابال **(Mahrabal)** قائد فرسانه السماح له بالانطلاق إلى روما واعداً إياه بالنصر وأن يجعلـــه يتـــناول عـــشاءه في الكابيتول بعد خمسة أيام فقط. لكن هانيبال رفض ذلك، مما أثار ماهرابال بشدة وجعله يصرخ في وجهه قائلاً:- "**أنت تستطيع إحراز النصر، يا هانيبال، لكنك**

---

(112) Cary. M, Loc. Cit.

(١١٣) ولقـــد تم اكتشاف مقبرة علي مسافة حوالي ٤٠٠ متر من كاناي تحتوي علي بقايا حوالي اثني عشر ألف جثة، ويرجح أنها جثث بعض من الجنود الذين سقطوا في هذه المعركة. انظر:-

Scullard. H.H, Cannae: Battle-Field And Burial Ground, Historia, Band. IV, 1955,London, p. 474.

(114) Frank. T, Op. Cit., p. 121.

(115) Polybius, III, 116.9-118.1 ; CF. Plutarch, Fabius Maximus, XVI.

لا تعـرف اسـتغلال مـثل هذا النصر"(١١٦). ولعل ذلك ساعد علي تهدئة حالة الرعب والفزع الشديد التي ثارت في روما بعد هذه الهزيمة.

ومــن الجديــر بالذكــر أن، نتائج معركة كاناي كانت شديدة الوطأة علي روما، حيث انــضم حلفــاء روما في الجنوب إلى هانيبال، ومما شجعهم علي ذلك وعده لهم بعدم إلزامهم بـتقديم قوات إليه. وبناءً علي ذلك فقدت روما كل جنوب إيطاليا تقريباً فيما عدا المستعمرات الـرومانية واللاتينـية والمدن الإغريقية الساحلية. وفضلاً عن ذلك، عقد فيليب الخامس ملك مقدونـيا فـي عـام ٢١٥ق.م مع هانيبال معاهدة لتبادل المساعدة، وعندئذ أخذ فيليب يتحرش بالممـتلكات الـرومانية فـي ألـوريا لطـرد الرومان منها. والأكثر من ذلك، انضمام كابوا (*Capua*) علي الفور إلى هانيبال وذلك علي أمل أن تخلف روما في السيادة علي مدن إيطاليا كلهـا، حـيث كانـت تعـد أهم وأكبر مدينة بعدها. ولما كانت كابوا عندئذ المركز الصناعي الرئيسي في إيطاليا، فإن تحالفها مع هانيبال وفر له قاعدة ممتازة لإمداداته(١١٧).

ولقـد ذهـب هانيبال إلى كابوا ومكث هناك علي رأس جيشه طوال فصل الشتاء، حيث أقام مركـز قـيادته الشتوي هناك. ويذهب البعض إلى أن هذه الفترة التي أقامها هانيبال هناك قد أوهـنت عزيمة قواته بعد أن اعتادوا علي حياة الترف والراحة في هذه المدينة(١١٨). والأسوأ مـن ذلـك أن، هيرو ملك سيراكوزة قد توفي في تلك الأثناء. و تمكن أعوان هانيبال من ضم خليفـته الشاب هيرونيموس (*Hieronymus*) إلى جانبهم وظهر أسطول قرطاجي في ميناء سيراكوزة، وهكذا فقدت روما أعظم مدينة يونانية (٢١٤ق.م) في غرب البحر المتوسط، وذلك مع احتمال ضياع صقلية كلها أيضا(١١٩).

وفـي تلـك الأثـناء، أرسـل هانيـبال أخيه ماجو إلى قرطاجة لكي يقدم لهم تقرير بالانتـصارات التـي حققهـا هانيـبال في إيطاليا ضد الرومان، وأيضا من أجل طلب المؤن والإمـدادات لإحراز المزيد من الانتصارات ووضع نهاية مشرفة لهذه الحرب الطويلة. وبعد الكثيـر مـن المجادلات العنيفة بين أعضاء مجلس الشيوخ حول مسألة إرسال الإمدادات إلى هانيـبال مـن عدمها، تقرر إرسال أربعة ألاف من النوميديين، وأربعين فيلاً ومبلغ كبير من المـال. لكـن خطـاب المعارضة كان له تأثيره، فكان هناك إبطاء في إرسال هذه الإمدادات، فكانوا يريدون من هانيبال الاعتماد علي نفسه من أجل البقاء في إيطاليا(١٢٠).

---

(116) Plutarch, Fabius Maximus, XVII-XVIII.

(١١٧) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٧٨-٢٧٩.

(118) Toynbee. A.J, A Study Of History, Vol. 2,London, 1935, pp. 19-20.

(119) Polybius, VII, 2-6.5.

(120) Perry. A, Op. Cit., p. 86 ff.

وكانــت خطــة هانيبال في السنوات التي تلت معركة كاناي هي الاستيلاء علي المدن الــساحلية، والتــنقل مــن مكان إلى آخر علي أمل أن يغري الرومان علي الاشتباك معه في معــارك حاسمة حتى يضطرهم إلى الاستــلام في النهاية. وكانت أولى الخطوات التي اتخذها هانيــبال لتنفــيذ سياســته هــذه الاســتيلاء علــي مدينة تارنتوم (***Tarentum***) وميتابونتم (***Metapontum***) وهرقليا وثوربي، في عام ٢١٣ق.م(١٢١).

علــى أن الرومان اتخذوا خطة مضادة لخطة هانيبال ألا وهي، محاولة استرداد المدن التــي انحازت إليه وذلك للحد من مصادر حصوله علي المؤن والإمدادات. أما لمواجهة خطر المحالفــة التي عقدت بين هانيبال وفيليب الخامس، عقدت روما محالفة مع الأيتوليين في عام ٢١٢ق.م وحرضــتهم علــي مهاجمة مقدونيا مما أدى إلى نشوب ما يسمي بالحرب المقدونية الأولى (٢١٢ – ٢٠٦ق.م).

وهكــذا فــوت الــرومان على هانيبال وفيليب فرصة اجتماعهما علي محاربتهم، في الوقت الذي كانت فيه روما تجتاز أصعب مراحلها وهزائمها(١٢٢).

وفــي عــام ٢١٣ق.م أرســل الــسناتوس جيشاً بقيادة القنصل ماركوس كلاوديوس ماركلــوس (***M.Claudius Marcellus***) إلى سيراكوزة. ولقد تم حصار هذه المدينة المنيعة حــصاراً شديداً وطويلاً، وذلك بفضل الاستحكامات والدفاعات التي اخترعها العالم المعروف أرشميدس أبن هذه المدينة ، الذي لقي حتفه علي يد جندي روماني . ولم يستول الرومان علي سيراكوزة إلا في عام ٢١١ ق.م (١٢٣).

ولقــد تــوجه الرومان بعد ذلك إلى جنوب إيطاليا حيث حاصروا مدينة كابوا، فحاول هانيــبال فــك حصارها بتحويل أنظارهم للدفاع عن روما، حيث عسكر علي بُعد ثلاثة أميال مــنها، وبدأ الهجوم عليها ولكنه لم ينجح في حصارها لعدم وجود آلات حصار معه، وسقطت كابــوا بعــد قتال عنيف راح ضحيته كثير من الطرفين سنة ٢١١ق.م(١٢٤). ولقد عاقبت روما هذه المدينة بأن قامت بحرمانها من الحقوق المدنية، كما صارت أراضيها ملكية رومانية(١٢٥).

ويــري الــبعض أنــه بحلول عام ٢١١ق.م كانت روما قد اجتازت أسوأ مراحل هذه الحــرب، حيث أتبعت استيلاءها علي سيراكوزة وكابوا بالاستيلاء علي هيميرا في نفس العام

انظر أيضا:– توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ١٤٧ وما بعدها.

(١٢١) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٧٩–٢٨٠.

(١٢٢) نفسه، ص ص ٢٨٠–٢٨١.

(123) Rostovtzeff. M, Op. Cit., p.68.

(١٢٤) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ٩٤؛ ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر:–
- Livy, XXVI, V-XIV.2-8.

(125) Holmes. T.R, Op. Cit., p. 9 ; CF. Mommsen. T, Op. Cit., pp.172-173.

وعلـــي أجـــريجينتوم في العام التالي. وهكذا استعادت روما سيطرتها علي هذه الجزيرة التي كانـــت تعتبر جسراً بالغ الأهمية بين إيطاليا وأفريقيا. كما استردت عدد من المدن الصغيرة في ســـامينوم وأبوليا، وفي عام ٢٠٩ق.م استردت تارنتوم. وبعد نجاح الرومان في السيطرة علي عـــدد مـــن المواقـــع الاســـتراتيجية، وقطع اتصال هانيبال بالغال، والانقضاض علي القوات القـــرطاجية الموجـــودة في أبوليا وعلي حلفاء هانيبال اللوكانيين والبروتي، لم يعد لدي هانيبال أي أمـــل فـــي النـــصر إلا إذا جاءته إمدادات من خارج إيطاليا ، وذلك لأنه التزم بوعده بعدم إلزام حلفائه الإيطاليين بمده بالجنود(١٢٦).

ومن الجدير بالذكر أن هذه الانتصارات التي أشرنا إليها أتاحت الفرصة للرومان لكي يـــستخدموا جيوشهم بحرية؛ فأرسلوا جزءاً منها إلى أسبانيا التي كان موقفهم فيها حرجاً. ولكي نتعـــرف بوضـــوح علي هذا الموقف الحرج الذي كان يحيط بالقوات الرومانية في أسبانيا في ذلـــك الـــوقت، يجب العودة إلى الوراء قليلاً و إلقاء بعض الضوء علي الأحداث هناك والتي تزامنت مع سير أحداث الحرب في إيطاليا.

لقـــد ســـبق وأن ذكرنا أنه عندما فشل بوبليوس سكيبيو في الالتقاء بهانيبال عند الرون فـــي عـــام ٢١٨ق.م عـــاد إلى روما بينما أرسل أخاه جنايوس علي رأس الجيش إلى أسبانيا. وكـــان هـــذا القرار في غاية الأهمية لأنه سوف يؤثر علي سير أحداث الحرب في إيطاليا فيما بعـــد. ومـــنذ ذلك الحين أخذت روما تراقب أسبانيا وتحسب أهميتها الطبيعية وتهتم بها كثيراً وبمـــا يـــدور فيها. وربما راودها الحلم في تملك أسبانيا وطرد القرطاجيين منها كما فعلت من قـــبل في أماكن قرطاجية أخرى. ولقد أطلق جنايوس يده في أسبانيا وبذل أقصى جهوده هناك، فلقـــد اتخـــذ في عام ٢١٨ق.م قاعدة له شمالي نهر الإبرو وشرع في الاستيلاء علي الشاطئ الـــشرقي. وفـــي العـــام التالي أرسل السناتوس أخاه بوبليوس علي رأس قوات إضافية، وقام الاثنان بعبور الإبرو وغزو ممتلكات قرطاجية جنوبية. وإذا كان هاسدروبال قد استطاع أخيراً هزيمة الأخوين اللذين قتلا في ميدان القتال في عام ٢١١ق.م ،فإن ذلك لم يحدث إلا بعد نجاح الأخـــوين ســـكيبيو في بث الفتنة بين رعايا قرطاجة الأسبان وفي وقف إرسال الإمدادات إلى هانيبال في إيطاليا، ولو أن هذه الإمدادات وصلت إليه في الوقت المناسب لتغير سير الأحداث ونتـــيجة الحـــرب كلـــية(١٢٧). وبعـــد مقـــتل الأخوين سكيبيو تم تعيين كلاوديوس نيرو(١٢٨)

---

(١٢٦) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٨١-٢٨٢.

(١٢٧) نفسه ، ص ٢٨٣، انظر أيضا:- محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ٩٤.

(١٢٨) وكـــان نيـــرو تلميذا لفابيوس، وخدم كثيراً تحت قيادته في إيطاليا، وكان مثل أستاذه مؤمناً بنفس سياسته الاحتياطية الدفاعية؛ بل ولقد عمل علي تطبيقها في أسبانيا . انظر:-

Scullard. H.H, A History of the Roman World (from 753 to 146 B.C.), London, 1979, p. 211.

(*C.Nero*) فــي القــيادة خلفاً لهما. لكن في عام ٢١٠ق.م عين السناتوس ابن أحد القنصلين اللــذين سقطا في العام الماضي، وكان يدعي مثل أبيه بوبليوس كورنيليوس سكيبيو، في القيادة العلــيا في أسبانيا. وكان عندئذ في الخامسة والعشرين من عمره. ولقد سار سكيبيو علي نهج أبيه في كسب القبائل الأسبانية وتشجيعها علي الخروج علي طاعة القرطاجيين(١٢٩).

وفــي عــام ٢٠٩ق.م، فكــر ســكيبيو فــي الاستيلاء علي مدينة قرطاجنة، عاصمة القــرطاجيين فــي أســبانيا. وكان لاختيار قرطاجنة لبدء الهجوم علي القرطاجيين في أسبانيا اعتبارات عسكرية خاصة، منها بعدها مسافة مسيرة عشرة أيام عن الجيوش القرطاجية الثلاثة الموجــودة فــي أسبانيا، وبذلك يصعب نجدتها بسرعة(١٣٠)، كما أنها غنية بمواردها ومكتظة بمعــدات القــرطاجيين الحربية والعسكرية، كما كان هناك رهائن من كل أسبانيا وتعد المدينة أيضا معبر جيد للعبور إلى أفريقيا، كما تقع علي ميناء فسيح يسع لأسطول ضخم(١٣١).

وبعد الكثير من الاشتباكات العنيفة ضد القرطاجيين، استطاع سكيبيو الاستيلاء عليها. ولقد تم آسر حوالي عشرة آلاف رجل حر، أطلق سكيبيو منهم سراح مواطني مدينة قرطاجنة الأصــليين. كما استولي أيضا علي كمية ضخمة من معدات ومستلزمات الحرب، ومن الذهب والفضة، ومن القمح والشعير(١٣٢). وبعد ذلك عمل علي كسب واستمالة الأسبان إلى جانبه عن طــريق العطايا وإعادة رهائنهم وأسراهم إليه. و بهذه الطريقة استطاع كسب الكثير من القبائل والــشعوب الأسبانية إلى جانبه وضمهم جميعاً إلى السيادة الرومانية. وعندما رأي هاسدروبال ذلك، قرر محاربة سكيبيو في أقرب وقت ممكن.

ومــع بداية الربيع، تحرك سكيبيو علي رأس قواته من تاراكو (*Tarraco*) في طريقه لمقابلة العدو ومنازلته. و التقي الفريقان بالقرب من مدينة بايكولا (*Baecula*)، ودارت بينهما العديــد مــن المعــارك والاشــتباكات كان النصر فيها دائما من نصيب سكيبيو. وعندئذ وجه هاســدروبال سيره علي طول نهر تاجوس (*Tagus*) في اتجاه البيرينيس. ويبدو أن هدفه كان عــبور ذلــك النهــر في طريقه إلى إيطاليا(١٣٣). وفي خريف عام ٢٠٨ق.م، بدأ هاسدروبال التحــرك فــي طريقه إلى إيطاليا للقاء أخيه هانيبال والاتحاد معه بجيشه(١٣٤) ومهاجمة روما ســويا، حــيث كــان يعتقد أنه في هذه الحالة سوف يستطيعان الضغط سويا علي روما بشدة

---

(129) Scullard, H.H, Scipio Africanus: Soldier And Politician, London, 1970, p. 38.
(130)Ibid, pp. 45-46.
(131) Livy, XXVI, XLII.I-7 ; CF. Altamira. R, Op. Cit., p. 29.
(132) Ibid, XXVI, XLVI.7-XLVIII.2.
(133) Ibid, XXVII,XVI.16-XIX.2.
(١٣٤) وقدر هذا الجيش بحوالي عشرين ألف رجل، ولقد تم رفع هذا العدد إلى ثلاثين ألف رجل عند وصوله إلى وادي البو. انظر:-
Scullard.H.H, A History of the Roman World (from 753 to 146 B.C.), p. 217.

وهـــزيمتها هزيمة ثقيلة تضطر علي أثرها الانسحاب من أسبانيا بناءً علي شروط القرطاجيين. وبهـــذه الطريقة يكون هناك أمل في استعادة أسبانيا مرة أخرى لسيادة القرطاجيين. لذلك أسرع هاســـدروبال الخطي إلى إيطاليا(١٣٥). وعندئذ أرسل الرومان جيشين:- أحدهما، بقيادة القنصل نيـــرو للتـــصدي لهانيبال في أبوليا، والأخر بقيادة القنصل ماركوس ليفيوس (***Livius***) لوقف زحـــف هاســـدروبال(١٣٦). ولما كان هانيبال غير متأكد من خط سير أخيه، فإنه ظل في أبوليا ينتظر وصول أية رسائل أو معلومات أكيدة منه(١٣٧).

وفـــي تلـــك الأثناء، أرسل هاسدروبال أربعة فرسان من الغال واثنان من النوميد بين برسالة إلى هانيبال، ولكنهم لسوء الحظ وقعوا في أيدي نيرو. ولقد عرف منهم أن هاسدروبال ســـوف يلاقـــي أخـــيه في يومبريا (***Umbria***). وعندئذ تقدم نيرو علي رأس ستة آلاف من المـــشاة، وألف من الفرسان في طريقه إلى مدينةِ بيكينوم (***Picenum***) من أجل الانضمام إلى زمـــيله(١٣٨). ولمـــا علم هاسدروبال في الصباح أن الجيشان الرومانيان قد اتحدا سويا، حاول التقهقـــر وتفادي الدخول في معركة يفرضها عليه العدو، ولكن القنصلين اجبراه علي الدخول فـــي معـــركة عنـــيفة عند شاطئ نهر ميتاوروس (***Metaurus***). وكانت النتيجة نصراً كاملاً للرومان وهزيمة ساحقة لهاسدروبال الذي لقي حتفه (٢٠٧ق.م) بعد أن هلك جيشه(١٣٩). وبعد أن عـــاد نيـــرو إلـــى معسكره أمر بإلقاء رأس هاسدروبال أمام معسكر هانيبال، الذي أصيب بـــصدمة شديدة. ويقال أنه عندئذ عرف علي الفور مصير قرطاجة المنتظر. ولقد نقل هانيبال معـــسكره إلـــى أرض البـــروتيان، وبقي هناك فترة طويلة لا يقوي علي القتال نظراً لاحتياجه الشديد للمؤن والإمدادات، وفي حالة شديدة من اليأس والحزن حتى تم استدعائه إلى الوطن في خريف عام ٢٠٣ق.م، من أجل الدفاع عنه(١٤٠).

وبعـــد هروب هاسدروبال من أسبانيا في طريقه إلى إيطاليا، عكف سكيبيو علي إتمام فـــتح أسبانيا. وبالفعل تمكن من ذلك بنجاح منقطع النظير، فما وافي عام ٢٠٦ق.م حتى كانت قرطاجة قد فقدت ممتلكاتها الأسبانية إلى غير رجعة(١٤١).

---

(١٣٥) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٨٥.

(136) Frank. T, Op. Cit., p. 125 ; CF. Scullard.H.H, A History of the Roman World (from 753 To 146 B.C.), p. 217.

(137) Cary. M, Op. Cit., p. 165.

(138) Livy, XXVII, XLIII-XLIV.I.

(١٣٩) سيد أحمد علي الناصري، المرجع السابق، ص ١٥٤.

(140) Livy, XXVII, LI .5 -II, LI. 12-13.

(١٤١) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٨٥.

وعـــندما عاد سكيبيو إلى روما في عام ٢٠٥ق.م، تم تعينه قنصلاً . ولقد طلب سكيبيو السماح له بغزو أفريقيا وقرطاجة ذاتها، حيث كان يعتقد أنه في هذه الحالة سوف يتم استدعاء هانيـــبال وقواته من أجل الدفاع عن الوطن، ومن ثم تتخلص روما من خطر تهديده لها(١٤٢). وبالفعـــل صـــدقت كل توقعات سكيبيو هذه. لكن السناتوس رفض هذه الفكرة في البداية، خوفاً مـــن تقلـــيل حجم القوات التي تدافع عن إيطاليا في ظل استمرار تواجد هانيبال هناك، وأيضا رغـــبة فـــي عدم فرض أعباء جديدة علي حلفاءهم الإيطاليين(١٤٣). لكن سكيبيو استطاع إقناع الـــسناتوس وكسب تأييد جمعية المئينات، بعد أن أثار رغبتهم في الانتقام من قرطاجة. وعندئذ ســـمح السناتوس لسكيبيو بجمع أي متطوعين بالإضافة إلى فرقتين من بقايا الجيش الذي هزم فـــي كانـــاي، وكان السناتوس قد أرسلهما إلى صقلية ليخدما هناك اثني عشر عاماً عقاباً لهما علـــي هـــروبهما من ميدان القتال. ولقد بلغ عدد المتطوعين حوالي سبعة آلاف رجل، وبذلك أصبح العدد الكلي للجيش أكثر من ثلاثين ألف جندي(١٤٤).

ومـــن الجديـــر بالذكـــر أن البربر قد لعبوا دوراً كبيراً في هذا الصراع، حيث تحالف القـــرطاجيون مـــع سيفاكس (*Syphax*) زعيم مملكة مازيسيلة (*Masaesyli*)، وكان حليف الرومان في الماضي وتسبب في الكثير من المتاعب لقرطاجة. وإزاء ذلك تحالف الرومان مع الملك ماسينيسا (*Massinissa*) زعيم دولة ماسيلة (*Massyli*)، وكان في الماضي من حلفاء قـــرطاجة وساعد في هزيمة الرومان في أسبانيا في عام ٢١١ق.م. وكان انضمامه إلى سكيبيو يرجع إلى أن سيفاكس كان قد استولي مؤخراً علي مملكته، ففر إلى سكيبيو (١٤٥).

وفـــي عام ٢٠٤ق.م، نزل سكيبيو علي الشاطئ الأفريقي قرب أوتيكا (*Utica*)، شمال غـــرب قرطاجة. وعندئذ كلف القرطاجيون هاسدروبال بن جيسكو، بتجنيد قوات جديدة للدفاع عـــن المديـــنة. ولقد استطاع القرطاجيون وسيفاكس تضيق الخناق علي سكيبيو وشل حركته، فعمـــد إلـــى حـــيلة تظاهر فيها باستعداده لعقد الصلح ودخل في مفاوضات أطال أمدها متعمداً بهـــدف الاســـتفادة من الوقت المتاح له في تدعيم الاستعدادات العسكرية والوقوف علي حالة القـــرطاجيين ووضعهم العسكري (١٤٦). وما أن حل ربيع عام ٢٠٣ق.م حتى قطع المفاوضات وقـــام بـــشن هجوم مفاجئ، هُزم فيه الجيش القرطاجي وجيش سيفاكس وعندما أعيد تشكيلهما مـــرة أخرى أنزل بهما سكيبيو هزيمة ساحقة وخلع سيفاكس وأقام مكانه ماسينيسا في عاصمته

(142) Plutarch, Fabius Maximus, XXV.
(143) Appian, VIII,II.7.
(144) Grant. M, Op. Cit., p. 106.

(١٤٥) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ص ٢٦٩-٢٧١.
(١٤٦) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ص ١٧٥-١٧٦.

كيـــرتا (*Cirta*). وعندئذ طلبت قرطاجة الصلح، وفي نفس الوقت استدعت هانيبال وماجو من إيطالـــيا[١٤٧]. ولقد توفي ماجو في الطريق إلى الوطن. أما هانيبال فقد تلقي أمر استدعائه في حـــزن شـــديد ، وعبر عن ذلك قائلاً:- "**الآن يرسل المجلس في دعوتي بعد أن أصابت طعنة العـــدو قلبه، وكم رفض أن يمدني بمال أو رجال. لقد أنهزم هانيبال- لا بقوة الرومان الذين شتت جموعهم، بل بالحقد الذي يحمله له مجلس الشيوخ في وطنه، ولن يبتهج سكيبيو لعار عودتـــي بقـــدر مـــا ســـيبتهج هانو الذي لم يجد سبيلاً يسلكه ليهدم أسرتي إلا بهدم الوطن كله...!**" [١٤٨]. ولقد وافق الرومان علي عقد الصلح، وكانت شروطه تنص علي:-

تـــنازل قـــرطاجة عن أسبانيا وتقليص أسطولها إلى عشرين سفينة ودفع تعويض قدره خمسة آلاف تالـــنت. وعلـــي الـــرغم من أن قرطاجة قبلت شروط الصلح، فإن عودة هانيبال ومعه حوالـــي خمـــسة عشر ألفا من الجنود المجريين أعاد إليها الثقة في نفسها وشجعها علي خرق الهدنـــة قبل تنفيذ شروط الصلح، وذلك بالاعتداء علي بعض السفن الرومانية ورفض تقديم أي تفسير لهذا التصرف عندما طلب إليها سكيبيو ذلك، مما أدى إلى استئناف القتال[١٤٩].

وفـــي صـــيف عام ٢٠٢ق.م ، جرت معركة عنيفة بين الطرفين عند زاما (***Zama***)، ويطلق عليها أيضا "جامة"، وتقع علي بعد حوالي ٧٥ ميلاً من المدينة، وهي الآن ساقية سيدي يوســـف[١٥٠]. وقـــد بدأ هانيبال المعركة بإطلاق فيلته (حوالي ثمانين فيلاً) علي قوات العدو، ولكن هذه الخطوة لم تجد نفعاً بل أضرته بشدة، ذلك أن سكيبيو قد توقع ذلك فأخذ حذره بحسن توزيـــع فرقه وبالتنبيه علي قواته بأنه عند اقتراب الفيلة[١٥١] تقوم بإحداث ضجة كبيرة وتفتح أيـــضا ممرات بين صفوفها. وكانت النتيجة أن الضجة أثارت الرعب في الفيلة فارتد بعضها وانقـــضت علـــي مقدمة جيش هانيبال واندفعت بعضها في الممرات إلى الفضاء الواسع. وبعد ذلـــك حاول سكيبيو تطويق هانيبال، ولكن هانيبال كان يقظاً ومد خطوط مشاته بنفس السرعة التـــي مـــد بها سكيبيو خطوطه. وبينما كان مشاة الفريقين مشتبكين في قتال مرير، بدد فرسان ســـكيبيو شـــمل فرســـان هانيـــبال دون أن يـــتمادوا في مطاردتهم بعيداً، لكي يعودوا بسرعة

---

(١٤٧) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٨٦- ٢٨٧؛

CF- Perry. A, Op. Cit., pp. 92-93.

(١٤٨) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ١٧٨ وما بعدها.

(١٤٩) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ٢٨٧؛ ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: -

- Diodorus, XXVII, 11-12.2.

(١٥٠) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص ٢٧٣.

(١٥١) ولقد اكتشف سكيبيو أيضا حساسية منطقة ما تحت الذيل عند الفيل للإصابات، فأوصي جنوده بالتركيز علي إصابة هذه المناطق ونجح فيما قد خطط له. انظر:-

فوزي مكاوي، الفيل الأفريقي ودوره في الحروب القديمة، ص ص ٢١٤، ٢١٥.

ويهاجمـوا مـشاة هانيبال من الخلف فهزم جيشه تماماً[١٥٢]. أما هانيبال نفسه فقد انسحب من الميدان بـصحبة خمسين فارساً فقط، ووصل في حالة من الحزن إلى هادروميتوم (سوسة). وقـدرت خـسائر الرومان في هذه المعركة بحوالي ألف وخمسمائة جندي، وفي المقابل سقط حوالـي عـشرون ألف قرطاجي في ميدان المعركة، بالإضافة إلى عشرين ألف آخرين وقعوا فـي ذل الآسـر. ولقـد تم استدعاء هانيبال إلى قرطاجة، فعاد إليها بعد حوالي ٣٦ عاماً من الغياب، ونصح مجلس الشيوخ بطلب الصلح. وفكر سكيبيو لبعض الوقت في حصار قرطاجة، لكنه عدل عن هذه الفكرة، ووافق علي الصلح وفقاً للشروط التالية[١٥٣]:-

١- تـنازل قرطاجة عن أسبانيا وصقلية وكل الجزر الواقعة في غرب المتوسط للرومان وعن جميع ممتلكاتها ماعدا مدينة قرطاجة ذاتها وإقليمها (أي ما يعادل تقريباً تونس) وإقليم المدن الثلاث (طرابلس).
٢- تسليم كل الأسرى والهاربين لروما.
٣- دفع تعويض قدره عشرة آلاف تالنت لروما علي أقساط سنوية لمدة خمسين عاماً .
٤- تـسلم قـرطاجة لروما كل فيلتها[١٥٤]،وأيضا جميع سفنها الحربية ما عدا عشر سفن فقط.
٥- إلتـزام قرطاجة بعدم خوض أية حرب في أفريقيا أوخارجها دون موافقة روما علي ذلك.
٦- أن ترد قرطاجة إلى ماسينيسا كل الممتلكات التي كانت في حوزته وحوزة أسلافه.
٧- أن تمد قرطاجة الجيش الروماني بالمؤن اللازمة له في وقت الحاجة إليها.
٨- أن يتخيـر سـكيبيو مائـة رهينة من أبناء القرطاجيين تسلم إلى روما ضماناً لتنفيذ المعاهدة، وصفاء الجو بين البلدين.
٩- علـي القرطاجيين سحب الحاميات العسكرية الموجودة في إيطاليا خلال ستين يوماً. وكانت مهمة هذه الحاميات إثارة الغال ضد روما، بينما تعهد الرومان بإخلاء أفريقيا في خلال مائة وخمسين يوماً.

وأمـام الهـزيمة الثقـيلة التـي منيت بها قرطاجة، لم يعد في وسعها سوى قبول هذه المعاهـدة بـشروطها المهينة المذلة. و في عام ٢٠١ق.م أبرم الطرفان هذه المعاهدة. وعندما

(١٥٢) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٢٨٧-٢٨٨.

(153) Perry. A, Op. Cit., pp. 96-97.

(١٥٤) ولقد تم إرسال جزءا منها إلى روما، بينما أعطوا بقيتها لحليفهم ماسينيسا كهدية له. انظر:-

- فوزي مكاوي، الفيل الأفريقي ودوره في الحروب القديمة، ص ٢١٥.

عـــاد ســـكيبيو إلى روما تم استقباله بالورود وأقواس النصر احتفالا وتقديراً لانتصاره العظيم علي قرطاجة، كما تم منحه لقب "أفريكانوس" أي الأفريقي، تخليداً لذكري فتحه لإفريقيا(١٥٥).

ولقـــد استجابت قرطاجة لمطالب الرومان، فقامت بتسليم كل الفيلة، وأسطولها الحربي أيـــضا، وقـــد بلـــغ الخمـــسمائة سفينة، وجميع الهاربين والأسرى الرومان وقد تجاوز عددهم الأربعـــة آلاف رجـــل. ولقد أمر سكيبيو أن تشد السفن كلها إلى الشاطئ وإشعال النيران فيها علي مرأى ومسمع من شعب قرطاجة كله؛ فأصابهم ذلك بالحزن الشديد والحسرة(١٥٦). ويبدو أن هـــدف سكيبيو من وراء حرق هذا الكم الهائل من السفن الحربية القرطاجية الممتازة، بدلاً من الاستفادة بها في فتوحات مستقبلية، كان إذلال القرطاجيين أكثر وإشعارهم بالحسرة واليأس مـــن محاولتهم استعادة السيادة البحرية في غرب البحر المتوسط. ويبدو أيضا أنه كان نوع ما من التهديد لهم.

ولم تحظى روما وماسينيسا وحدهما بالمكاسب الطائلة التي حصلا عليها من قرطاجة، بـــل حـــصلت أوتيكا أيضا علي نصيبها من هذه الغنيمة، حيث كافأتها روما نظير مساندتها لها فـــي الحرب بأن منحتها كل الساحل الذي يمتد بين مدينتها وهيبو (***Hippo***). وفي الحقيقة أن كل ذلك أدى إلى تقليص مساحة قرطاجة إلى مساحة ترجع بها إلى بداية مرحلة استقرارها في شمال أفريقيا(١٥٧).

ويـــبدو مـــن ســـياق الأحداث أن أسباب هزيمة القرطاجيين في هذه الحرب لا تختلف كثيراً عن أسباب هزيمتهم في الحرب الأولى، حيث استمروا في اعتمادهم علي فرق المرتزقة اعـــتماداً أساســـياً برغم كل ما لاقوه علي يدها، كما كان للنزاع السياسي الداخلي في قرطاجة دور هـــام فـــي هذه الهزيمة، حيث طالما عرقل سير الإمدادات إلى هانيبال في إيطاليا، مثلما رأيـــنا عندما أرسل هانيبال أخيه ماجو إلى قرطاجة لطلب الإمدادات بعد معركة كاناى، ولو تم إرســـالها فـــي الـــوقت المناسب لكان من الممكن أن يتغير موقف قرطاجة تماماً، بل كان من الممكـــن أن يـــنقلب الوضع كلية. كما أن هناك خطأ آخر فادح وقع فيه القرطاجيين أثناء هذه الحرب، ألا وهو إهمالهم لأسطولهم الحربي رغم تاريخ قرطاجة البحري العريق، فقلما سمعنا خـــلال أحـــداث هذه الحرب الطويلة عن معارك بحرية مثلما رأينا في الحرب البونية الأولى. وهكـــذا انـــتهت الحرب البونية الثانية بعد أن هُزمت قرطاجة في معركة زاما عام ٢٠١ق.م، وتحـــولت وفقـــاً لبـــنود معاهدة الصلح التي عقدت بعدها إلى مرتبة التابعين الخاضعين لسيادة

---

(155) Scullard. H. H, Scipio Africanus: Soldier And Politician, pp. 156-160 ; Scullard. H. H, A History of the Roman World (from 753 to 146 B.C.), p. 226.

(١٥٦)توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ص ١٨٦-١٨٧.

(157) Frank. T, Roman Imperialism, New York, 1929, p. 236.

الـــرومان، وإن لم يتم إعلان ذلك صراحة. أما روما فقد فازت بسيادة الدنيا بأسرها وتزعمت العـــالم القـــديم وأصبحت سيدة علي البحر المتوسط قاطبة، خاصة بعد أن تخلصت من سيادة قرطاجة البحرية عليه بعد أن سلبتها أسطولها كله.

ولقـــد مضت قرطاجة في تنفيذ بنود اتفاقها مع الرومان بكل طاعة وهمة، ولكن عندما حـــان مـــيعاد أول دفعة من الغرامة المالية المفروضة عليهم بكي الكثير من الأعضاء، نظراً للأزمـــة المالـــية الـــشديدة والحالـــة الاقتـــصادية السيئة التي كانوا يعانون منها بشدة في ذلك الوقت(١٥٨).

وعـــندئذ قرر هانيبال القيام بحركة إصلاحية كبيرة في كافة المجالات السياسية، والاقتصادية، والعـــسكرية، وذلـــك بعـــد أن لاحظ وجود الكثير من التجاوزات والفساد؛ وخاصة في الإدارة الاقتـــصادية والدوائـــر الـــسياسية. ومن الجدير بالذكر أنه، قد لاقي مساندة كبيرة من الحزب الـــشعبي، كما تم انتخابه حاكما في ذلك الوقت، ومن ثم عزم علي إصلاح كل الأوضاع غير الـــصحيحة، حـــيث رأي أن حياة الطبقة الأرستقراطية المترفة كانت تهدد حرية الطبقات الدنيا البـــسيطة. ومن الجدير بالذكر أن، قرطاجة عرضت في عام ١٩١ق.م دفع كل الأقساط الباقية فـــي الغرامة المفروضة عليها دفعة واحدة وعلي الفور، مما يدل علي أن إصلاحات هانيبال قد أثبـــتت نجاحهـــا. ولقـــد أكسبت هذه الإصلاحات هانيبال شعبية وشهرة كبيرة بين العامة كما حـــصل علـــي تأيـــيد ومـــساندة هائلة من جانبهم. ولكن في نفس الوقت، أثارت ضده كراهية وغـــضب جزء كبير من الطبقة الأرستقراطية الذين تضرروا من جراء هذه الإصلاحات، بل وأخـــذوا يثيرون الرومان ضده. ولقد داوم أعضاء الحزب المعارض لهانيبال علي الكتابة، كل واحـــد منهم إلى أصدقائه بين المسئولين في روما، أن هانيبال قد أرسل رسائل إلى أنطيوخوس كمـــا استقبل رسل الملك سراً. ونقلوا عنه أيضا، أنه قد اشتكي أن الأمة أسرفت وضاعت في حالة من السلام ولا يمكن أن تفيق من سباتها إلا عن طريق ضجة السلاح فقط(١٥٩).

وفـــي الـــنهاية، استطاع أعداء هانيبال في قرطاجة إقناع السناتوس الروماني بإرسال ســـفارة إلـــى قـــرطاجة لتوجيه التهم إليه أمام مجلس الشيوخ، بأنه يتآمر مع أنطيوخوس للقيام بحـــرب ضدهم. وعندما وصلوا إلى قرطاجة كانت حجتهم أنهم جاءوا لوضع نهاية للنزاعات التي قد نشبت بين القرطاجيين وماسينيسا. لكن هانيبال كان يعلم جيداً ويشعر أنهم قادمون من أجله هو فقط، وليس لشيء آخر مما يدعون. وبالفعل صدق حدسه، فقد تطورت الأمور وألقوا عليه مسئولية النزاع الذي نشب مع ماسينيسا وطالبوا بضرورة تسليمه لهم علي الفور. وعندئذ

---

(158) Perry. A, Op. Cit., p. 98.

(159) Livy, XXXIII,XLIV.7-XLVII.5.

قـــرر هانيـــبال الفـــرار علـــي وجه السرعة. ولقد غافل الناس جميعاً وعبر ليلاً إلى مقاطعة بيـــزاكيوم (*Byzacium*)، ووصـــل فـــي الـــيوم التالي إلى قصره علي الساحل بين أكيللا (*Acylla*) وثابـــسوس (*Thapsus*) ، وهـــناك وجد سفينة في انتظاره. وفي نفس اليوم وصل إلـــى جزيـــرة كيركينا (*Cercina*)، ومن هناك واصل هروبه حتى وصل إلى صور في عام ١٩٥ق.م[١٦٠]، بعـــد رحلة شيقة وتم استقباله هناك بحفاوة وترحيب شديد. وبعد إقامة قصيرة أبحـــر إلـــى أنطيوخوس في إفيسوس (*Ephesus*). وكان أنطيوخوس ما يزال متأرجح الفكر حـــول الحـــرب ضد روما، لكن وصول هانيبال كان حدث ذو أهمية كبري وحافز قوي علي تثبـــيت فكره حول الحرب. وفي ذلك الوقت أيضا كان الأيتوليون ميالون إلى ترك تحالفهم مع روما[١٦١].

ولكـــن بعـــد فترة قصيرة صار أنطيوخوس فاتراً في علاقته مع هانيبال. فقد ازدادت عـــدم ثقـــته فـــي هانيبال بعد العديد من المحادثات التي دارت بينه وبين الرسل الرومان الذين وصـــلوا إلـــى إفيـــسوس . وكان هذا هو هدف الرومان من هذه المحادثات واستطاعوا بالفعل إدخال الشك إلى قلب الملك أنطيوخوس[١٦٢].

وبعـــد فتـــرة عبـــر الـــرومان إلـــى داخـــل آسيا، وهزموا أنطيوخوس عند ماجنيسيا (*Magnesia*). و فـــي عـــام ١٨٩ق.م، أرســـل أنطيوخوس سفارة إلى الرومان، طالباً العفو ومـــنحه السلام وفقاً لأية شروط ممكنة ومهما كانت. وبالفعل تم منحه السلام. وكان من ضمن الـــشروط[١٦٣] التي فرضت علي أنطيوخوس ضرورة تسليم هانيبال إلى الرومان[١٦٤]. وعندئذ لجـــأ هانيـــبال إلى بروسياس (*Prusias*) ملك بيثنيا (*Bithynia*) وعاونه في قتال أحد حلفاء رومـــا. وفـــي تلك الأثناء، قدم فلامينيوس ليطالب باسم السناتوس بتسليم هانيبال وأحس الملك بالعجـــز عـــن مقاومة هذا المطلب، فأرسل فرقة للقبض عليه. ولقد حاول هانيبال الفرار، لكن جـــنود بروســـياس سدوا عليه كافة السبل إلى الفرار، فسارع إلى سم كان يحتفظ به، وتجرعه وخـــر علـــي الأرض صريعاً. وكانت هذه هي آخر عباراته التي تلفظ بها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيـــرة ويفـــارق الحـــياة:- "**فليـــسترح الرومان من هذا القلق الذي يضيقون به، ماداموا**

---

(١٦٠) وهناك رأي آخر يذهب إلى أن فرار هانيبال كان في عام ١٩٦ق.م. انظر:-

Scullard. H.H, Roman Politics (220-150 B.C.), Oxford, 1951, p.284.

(161) Livy, XXXIII, XLVII.5-XLIX.I-8.

(162) Polybius, III, 11-12.3.

(١٦٣) أمـــا بقية الشروط؛ فكانت تتضمن تنازل أنطيوخوس عن كل آسيا غرب جبال طوروس **Taurus** للرومان، ودفع ١٥,٠٠٠ تالنت لهم. انظر:-

- Gilman. A, Op. Cit., p. 162.

(164) Diodorus, XXIX,10.1.

يحسون بالعجز عن انتظار الموت لرجل طاعن في السن مثلي...!" . ولقد توفي هانيبال عن عمر يناهز الخامسة والستين، بعد حياة مليئة بالكفاح والقتال والمعارك الدامية[١٦٥].

ثالثاً: الحرب البونية الثالثة:

كانت قرطاجة بعد توقيع معاهدة عام ٢٠١ق.م، قد تخلت عن كل أحلامها في أي مجد عسكري ووجهت جل عنايتها وتركيزها إلى النشاط الاقتصادي وخاصة التجاري، وساعدها علي ذلك أسطولها التجاري الذي تركه لها الرومان ولم يحرقوه مع الأسطول الحربي، فكان مصدر الرخاء والثراء لها من جديد وعوضها عن بعض ما فقدته في الحرب البونية الثانية. وهكذا مضت قرطاجة في هدوء تستعيد سابق مجدها وثرائها. ويبدو أن نشاطها التجاري هذا قد أثمر بالفعل، حيث عرضت قرطاجة (كما رأينا) علي روما دفع باقي قيمة الغرامة المفروضة عليها دفعة واحدة، مما أثار قلق الرومان من هذا الثراء الذي طرأ عليها مرة أخرى، وخوفاً من أن تئول لها هذه الثروة الكبيرة التفكير في محاربة روما مرة ثانية. ولكن علي الرغم من ذلك، فإن روما لم يكن لديها الحجة المناسبة لإعلان الحرب علي قرطاجة والتخلص من هذا الخطر الذي طالما أقلقها وشغل بالها. ولكن سرعان ما واتتها هذه الفرصة المناسبة للتخلص من قرطاجة نهائياً[١٦٦]. وقد أتيحت هذه الفرصة علي يد ماسينيسا (ملك نوميديا[١٦٧]) ، وهو الذي سعي منذ معاهدة عام ٢٠١ق.م إلى تحقيق حلمه بإنشاء إمبراطورية تشمل الأقاليم المعروفة اليوم بالجزائر وتونس وطرابلس وتكون قرطاجة عاصمة لها. وكان ماسينيسا يري أن بقاء قرطاجة كدولة ذات سيادة بمثابة شوكة في جانبه وحائلاً دون ضم طرابلس، لذلك حرص علي إثارة شكوك الرومان ومخاوفهم تجاه قرطاجة، وفي نفس الوقت الإغارة علي الأقاليم المتبقية لها بعد معاهدة الصلح. وكلما شكت قرطاجة إلى روما من كل اعتداء جديد، كان السناتوس إما يغض الطرف وإما يصدر قراراً في صالح ماسينيسا. وإزاء تلك المساندة من جانب الرومان، حاول ماسينيسا الاستيلاء علي مدن طرابلس الثلاث في ستينات القرن الثاني ق.م واحتل بالفعل سهل الجفارة. ولكن قرطاجة استطاعت الدفاع عن المدن الثلاث وعجز ماسينيسا عن الاستيلاء عليها[١٦٨].

وعندما شكت قرطاجة إلى روما، أرسل السناتوس حوالي عام ١٥٥ ق.م بعثة للتحقيق كان علي رأسها ماركوس كاتو الأكبر (*Cato*)، الذي كان يكره قرطاجة بشدة ويريد أن

---

(١٦٥) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ص ٢٠١-٢٠٢.

(١٦٦) نفسه ، ص ص ٢٠٦- ٢٠٧.

(١٦٧) نوميديا – اسم أطلقه الرومان علي جميع القسم الشرقي من بلاد الجزائر الآن والغربي من تونس. انظر:- حسن حسيني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ١٧.

(١٦٨) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٣٣٦- ٣٣٧.

يمحـــوها من علي وجه الأرض. وعندما ذهب كاتو إلى قرطاجة لم يجدها في حالة من الفقر، كمـــا كـــان يـــتوقع، لكن وجدها نوعاً ما مكتظة بالرجال ذوي الهمة والحماس للقتال، وتفيض بثـــروة هائلة، ومحتشدة بالإمدادات الحربية والعسكرية من كل نوع(١٦٩). وبناءً علي ذلك، عاد كاتـــو بسرعة إلى روما، ونصح السناتوس بضرورة إعلان الحرب فوراً علي قرطاجة. وكان نص خطابه (١٧٠)الذي ألقاه في السناتوس كالتالي:- " إن **نصيب هذا الشعب من القوة والبأس في حاضره، لأروع من نصيبه منهما في ماضيه، وهو يعد للحرب اليوم في أفريقيا استعداداً لإثارتهـــا فـــي وجـــوهكم، وإلقاء حممها فوق أجسادكم**". ثم ألقي أثناء كلامه بحماس بعض الثمـــرات مـــن التين القرطاجي الناضج، كان يحتفظ بها في إحدى ثنيات ثوبه، أمام الأعضاء قـــائلاً لهـــم:- "**إن الـــبلد التي تنتج مثل هذا التين الناضج علي بُعد ثلاثة أيام إبحار فقط من رومـــا**"، ثم أضاف لرأيه هذه الكلمات التالية:- "**في رأيي، قرطاجة يجب أن تدمر**" . وعندما تم اســـتدعاء بوبلـــيوس سكيبيو ناسيكا (*Nasica*) للإدلاء برأيه كان علي العكس من ذلك، حيث كان ينهي خطابه دائماً بهذا التصريح:- " **في رأيي، قرطاجة يجب أن تبقي**"(١٧١).

وإزاء هـــذا الانقـــسام في الآراء ظلت مشكلة قرطاجة معلقة. ولكن في تلك الأثناء، تمـــادى ماسينيسا في تضييق الخناق علي قرطاجة إلى حد التدخل في شئونها الداخلية. ذلك أنه عـــندما حـــدث نزاع داخلي في قرطاجة (عام ١٥١- ١٥٠ق.م) ونجح الديمقراطيون في نفي زعمـــاء الحزب الذي يريد الاتفاق مع ماسينيسا، طالب هذا الأخير بإعادة المنفيين. وعندئذ نفذ صبر قرطاجة وأعلنت عليه حرباً يائسة خاضتها معه بجيش غير معد جيداً مما مكن ماسينيسا مـــن هـــزيمته فـــي عام ١٥٠ق.م(١٧٢). وعندئذ شرعت روما في حشد جيش من كل إيطاليا لمحاربـــة قرطاجة علي اعتبار أنها هكذا قد خرقت شروط معاهدة عام ٢٠١ق.م. وعندئذ قام القـــرطاجيون، عـــندما أدركـــوا هـــذه الحقيقة وخشوا من انتقام الرومان، بالحكم بالموت علي هاســـدروبال، الذي قاد الحملة ضد ماسينيسا، وكارثالو، قائد القوات الاحتياطية، وأي أشخاص

---

(169) Scullard. H.H, Roman Politics (220-150 B.C.),pp. 240-241.

(١٧٠) كانت جملة الخطب التي ألقاها كاتو ضد قرطاجة، ويحث فيها علي إعلان الحرب علي قرطاجة، ثلاثة خطب. انظر:-

Ibid, p. 288.

(171) Plutarch, Marcus Cato, XXVI-XXVII.

ولمزيد من المعلومات حول الحجج التي اتخذها كلا من الطرفين للدفاع عن رأيه في مسألة بقاء قرطاجة أو تدميرها، انظر:-

Scullard. H.H, Roman Politics (220-150 B.C.),pp. 241-245 ; Frank. T, Roman Imperialism, p. 235.

(١٧٢) إبـــراهيم نـــصحي، المـــرجع السابق، ص ٣٣٨. ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر:- توفيق الطويل، المرجع السابق، ص ص ٢١١- ٢١٣.

كانـــوا السبب في الحرب، مفكرين في وضع نهاية للورطة التي كانوا فيها. وبعد ذلك أرسلوا إلى روما، ليشكون من تصرفات ماسينيسا، ويلقون تبعة الحرب معه علي قادتهم الذين حكموا علـــيهم بالمـــوت. ولقـــد أعرب القرطاجيون عن استعدادهم للتكفير عما حدث، ولكن السفارة القـــرطاجية لـــم تحـــصل من السناتوس علي إجابة واضحة، حيث كان ردهم:- "**يجب عليكم إرضـــاء الـــشعب الروماني**" وعندما تسأل القرطاجيون عن ماهية الترضية المطلوبة بالضبط، رفض الرومان التوضيح وأجابوا بأن القرطاجيين يعرفون ذلك جيداً.

وفـــي أوائـــل عام ١٤٩ق.م، أرسلت اوتيكا بعثة إلى روما تعرض عليها تسليم المدينة إلـــيها، فقـــبل الرومان بالطبع عرضهم هذا. وعندئذ تم إعلان الحرب علي قرطاجة، وتم علي الفـــور إرســـال القناصل إلى أوتيكا، حيث تولي مانيليوس (***Manilius***) قيادة القوات البرية، بيـــنما تولـــي ماركوس سينسورينوس (***Censorinus***) قيادة الأسطول[١٧٣]. ولذلك تم إرسال سفارة قرطاجية أخرى إلى روما تعلن الاستسلام التام دون قيد أو شرط، فأبلغها السناتوس بأنه ســـوف يـــسمح للقرطاجيين بالاحتفاظ بحريتهم وقوانينهم وإقليمهم وممتلكاتهم العامة والخاصة بـــشرط أن يسلموا في خلال ثلاثين يوماً ثلاثمائة رهينة من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ، وأن يطـــيعوا الأوامـــر التي يصدرها لهم القنصلان اللذان عبرا البحر إلى أوتيكا علي رأس الجيش والأســـطول. وهـــناك طلـــب القنـــصلان تسليم الأسلحة ومعدات الحرب جميعها، ورغبة في استرضـــاء الـــرومان وافقت قرطاجة علي هذا المطلب. ولقد تسلم الرومان عدة حربية كاملة تكفـــي لتـــسليح مائتي ألف جندي، بالإضافة إلى أعداد لا تحصي من النبال والسهام، وحوالي ألفـــي منجنـــيق [١٧٤]. وبعـــد ذلك عاد الرسل القرطاجيون مرة أخرى إلى القناصل الرومان، وعـــندئذ أفصح القنصلان أخيراً عن هدف السناتوس وأخر مطالبه، حيث طلبا من القرطاجيين إخـــلاء مدينـــتهم والاســـتقرار حيثما يشاءون بشرط أن يكون ذلك على بُعد عشرة أميال من البحـــر. وفى الواقع، كان ذلك يعنى عمليا الحكم بالفناء على دولة مثل قرطاجة كانت التجارة البحـــرية خاصة المصدر الرئيسي لثروتها. وعندئذ ثار القرطاجيون ثورة عنيفة نابعة من حالة اليأس الشديد التي كانوا يعانون منها، ورفضوا تنفيذ هذا المطلب وعزموا على تحدى الرومان ومحاربـــتهم[١٧٥]، ذلك أنه عندما أعلن الرسل القرطاجيون مطلب القناصل هذا في مقر مجلس الـــشيوخ، تـــم علـــى الفـــور إعلان الحرب على روما وأعطيت الحرية للعبيد، كما تم اختيار هاســـدروبال، الذي سبق وأن حكموا عليه بالموت. ومع ذلك، أرسلوا إلى القناصل مرة أخرى

---

(173) Appian, VIII, XI, 74- 75 ; CF. Diodorus, XXXII, 1,3,3.1-4.3.
(174) Ibid, VIII, XI, 76-80 ; CF. Polybius, XXXVI, 3.6-8.2 ; Livy, XLIX ; Diodorus, XXXII,4.5-6.2-4.
(175) Frank. T, Roman Imperialism, pp. 235-236.

يطلـــبون مهلة لمدة ثلاثين يوماً لكي يرسلوا سفارة أخرى إلى روما. وعندما تم رفض مطلبهم هـــذا، عـــزموا علــــى القـــتال بكل حماس والدفاع عن وطنهم والتضحية في سبيله بكل غالٍ ورخـــيص. ومن ثم عملت قرطاجة على الاستعداد لهذه الحرب بكل همة ونشاط، فلقد تحولت كـــل الأمـــاكن المقدســـة، والمعابد، وكل مكان يمكن الاستفادة به إلى ورش للعمل، حيث قام الـــرجال والنـــساء بالعمـــل ســـويا ليلا ونهاراً دون توقف، فكانوا يصنعون يومياً مائة درع، وثلاثمائة سيف، وألف قذيفة للمنجنيقات، وخمسمائة سهم وحربة، والكثير من النبال. ومن أجل أوتـــار القسي تبرع النساء بشعرهن، نظراً لنقص الخيوط اللازمة. ولم تكن هذه هي التضحية الوحـــيدة التـــي بذلها نساء قرطاجة فقد تبرعن جميعاً بكل مجوهراتهن من أجل شراء المؤن ومستلزمات الحرب.

وبينما كان العمل يجرى هكذا في قرطاجة على قدم وساق، كان القناصل في حالة من البطء والتراخى الشديد، معتقدون أن القرطاجيين لن يقدروا على القتال وأنهم سوف يستسلمون كمـــا حـــدث في السابق، وأيضا نظراً لنقص المؤن ووسائل الدفاع والمقاومة(١٧٦). ومما يدعو للعجـــب حقـــاً، لمـــاذا لم يفعل القرطاجيون ذلك منذ البداية بدلاً من هذه السلسلة الطويلة من التـــنازلات المهينة والمذلة، وكانوا عندئذ سيحتفظون بأسلحتهم، وسفنهم، ورهائنهم، وقبل وأهم من كل ذلك بكرامتهم بين الشعوب وعبر مراحل التاريخ المختلفة.

ولكـــن مما تجدر الإشارة إليه، أنه بفضل هذا المجهود الكبير والصحوة العظيمة التي أظهـــرتها قـــرطاجة في آخر لحظة، خيبت آمال الرومان فلم تكن الحرب البونية الثالثة مجرد نزهة عسكرية بل كانت سلسلة من المعارك القوية استغرقت أربعة أعوام (١٤٩-١٤٦ ق.م). و لـــم يستطع الرومان في خلال العامين الأولين (١٤٩ و ١٤٨ ق.م) أكثر من مجرد حصار قـــرطاجة دون أن يتمكنوا من اقتحام استحكاماتها المنيعة أو حصارها حصاراً فعالاً. ولم يكن للحـــصار أي تأثير ملموس قبل عام ١٤٧ ق.م، حيث تم إسناد أحد منصبي القنصلية في ذلك العـــام، وكذلك القيادة العليا في أفريقيا إلى ضابط شاب كان قد أثبت كفاءته العسكرية في أثناء أحـــداث معـــارك عامي ١٤٩ و ١٤٨ ق.م ، على حين أثبت الآخرون فشلهم، وهو بوبليوس كورنيلـــيوس ســـكيبيو أيميلـــيانوس (***Aemilianus***)، وكان ابنا لأيميليوس باولوس، وحفيداً بالتبنى لسكيبيو أفريكانوس. ولم يكن هذا الضابط الشاب مؤهلا لتولى القنصلية، ولكن بموجب قانـــون خـــاص أسندت إليه القنصلية والقيادة العليا أيضا. ولقد لجأ الرومان إلى اتخاذ مثل هذه الخطـــوة بعـــد شعورهم بالضيق والملل من سير أحداث الحرب وعدم إحراز خطوات إيجابية

---

(176) Appian, VIII, XIII, 91, 93-94.

ضـــد العـــدو(١٧٧). ولكن سكيبيو استطاع تغيير الموقف كلية، وإحكام قبضته على المدينة كلها وتـــضيق الخـــناق عليها. ولقد استطاع سكيبيو أيضا إغلاق الميناء عن طريق سد ضخم أقامه داخل البحر، وأخضع المدينة عن آخرها وحتى أطرافها. ومن الجدير بالذكر أن، المحاصرين قد حفروا في الصخر لصنع مدخل إلى ميناءهم، كما أنشأوا من أخشاب مبانيهم أسطول جديد. لكـــن سرعاً ما تم احتلال الميناء؛ ونفذ الرومان إلى داخل المدينة(١٧٨). ومع بداية الشتاء، عزم ســـكيبيو على حرمان قرطاجة من أخر حلفائها، فتحرك إلي نيفيريس (*Nepheris*). ولقد تم الاســـتيلاء علـــى هـــذه البلدة بعد حصار دام لمدة اثنين وعشرين يوما. ولقد ساعد هذا النجاح كثيراً في الاستيلاء على قرطاجة، لأن المؤن والإمدادات كانت ترسل إليها من هذه البلدة، كما أنـــه أيضا شجع شعوب أفريقيا على الانضمام إلى الرومان والخروج عن طاعة القرطاجيين. وعـــندئذ قلـــت إمدادات ومؤن قرطاجة كثيراً. وفى بداية الربيع فرض سكيبيو الحصار على بيرسا، واستولى على ميناء الكوثون والساحة العامة ومعبد أبولو(١٧٩).

وفـــي عـــام ١٤٧ ق.م، وبيـــنما كان القرطاجيون محاصرون، أرسل هاسدروبال إلى جلوســـا (*Gulussa*) يدعـــوه للمجـــيء للمحاورة والمناقشة. ولقد لبى جلوسا دعوته بالفعل، وعـــندئذ طلـــب هاسدروبال منه أن يكون رسوله إلي سكيبيو معلناً استعداده لتقبل أي شروط تفـــرض عليه مهما كانت؛ وذلك بشرط الإبقاء على مدينة قرطاجة. ولكن جلوسا استطاع إقناع ســـكيبيو بمـــنح هاســـدروبال العفـــو والسلامة له، ولزوجته، ولأولاده، ولعشرة عائلات من أصـــدقائه، كمـــا يمكـــنه الاحتفاظ بعشرة تالنتات من ثروته الخاصة، وأن يأخذ معه أي عبيد يخـــتارهم حتـــى مائة عبد. وعندما سمع هاسدروبال عرض سكيبيو هذا، قال:- "**أن اليوم لن يأتى على هاسدروبال الذى ينظر فيه إلى الشمس وفى نفس الوقت على مدينته وهى تشتعل بالنيـــران؛ لأن أنبل جنازة على الإطلاق بالنسبة للرجال ذوى العقول السليمة هي أن يهلكوا في مدينتهم الأم ووسط نيرانها**"(١٨٠).

وعـــندئذ عـــزم سكيبيو على مهاجمة بيرسا، أقوى جزء في المدينة، حيث لجأ الجزء الأكبـــر مـــن السكان إليه. وكان هناك ثلاثة شوارع تصعد من الساحة العامة إلي هذه القلعة. وعلـــى جانبي هذه الشوارع كانت تمتد منازل ترتفع ستة طوابق في الهواء، ومنها تم مهاجمة

---

(١٧٧) إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص ص ٣٣٩-٣٤٠. ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر:-
Appian, VIII, XIV-XVI, 97-111 ; Livy, XLIX.

(178) Perry. A, Op. Cit., p. 112.

ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر:- Appian, VIII, XVII-XVIII, 112-125.

(179) Appian, VIII, XVIII-XIX, 126-127.

(180) Polybius, XXXVIII, 6.5-8.3-10 ; CF. Diodorus, XXXII, 19.1-22.1.

الـــرومان بالنـــبال. ولكـــن الـــرومان استطاعوا الاستيلاء على بعض البيوت القصيرة، ومنها هاجمـــوا البيوت التالية. وبينما كانت هناك حرب تدور بهذه الطريقة على الأسطح، كان هناك أخـــر يدور في الشوارع في الأسفل. وعندما وصل سكيبيو إلى بيرسا أشعل النيران في الثلاثة شوارع في وقت واحد. ولقد انتشرت النيران وقضت على كل شئ تقريبا.

ولقـــد انقـــضت ســـتة أيام وليالي في هذا الاضطراب والدمار، وفى اليوم السابع جاء بعض المتوسلين إلي سكيبيو، وطلبوا منه الإبقاء على حياة هؤلاء الذين يرغبون في الاستسلام والـــرحيل مـــن بيرسا. ولقد منح سكيبيو هذا العفو للجميع ما عدا الهاربين. وعلى الفور خرج مـــن هـــناك خمـــسون ألف رجل وامرأة. وعندئذ لجأ الهاربون الرومان، وكان عددهم حوالي ٩٠٠ رجل، إلى معبد أيسكولابيوس مع هاسدروبال وزوجته وولديهما. ولقد دافعوا عن أنفسهم لفترة طويلة، لكنهم هُزموا في النهاية؛ فتركوا ملحقات المعبد وهربوا إلى السطح(١٨١).

وعـــندئذ هـــرب هاسدروبال سراً إلي سكيبيو، حاملاً غصن زيتون. فأمره سكيبيو بأن يجلـــس عند قدميه. وعندما ألقى هاسدروبال نفسه كخادم عند قدمي سكيبيو، إلتفت الأخير إلى مـــن حوله وعلق قائلاً:- "**انظروا، يا أصدقائي، كيف يعرف الحظ الجيد أن يقدم لنا مثال على الـــرجال الطائشين. هذا هو هاسدروبال الذي رفض مؤخراً أكثر العروض تسامحاً أنا وهبته لـــه، وقال أن مدينته الأم ونيرانها أحب الجنازات له؛ وها هو مع فروع شجرة يأتى متوسلا ومتضرعاً من أجل حياته منى ويضع كل آماله على**"(١٨٢).

وعندئذ جعل الهاربين يرونه على هذا الوضع المهين. وعندما رأوه صبوا كل لعناتهم وملامـــتهم علـــيه، وبعـــد ذلك أشعلوا النار في المعبد وألقوا أنفسهم فيها. وقيل أنه بينما كانت النيـــران مشتعلة ارتدت زوجة هاسدروبال أفضل ما لديها، ووضعت ولديها إلى جانبها، وبعد ذلـــك إلتفتت إلى هاسدروبال وصاحت فيه قائلة:- "**تعس، خائن، أضعف الرجال، هذه النيران ســـوف توارينـــي أنا وأطفالي. لكن بالنسبة لك، أي نصر روماني سوف تُزينه أنت، يا قائد قـــرطاجة العظمـــى؟**". وبعـــد أن سبته هكذا، قامت بذبح أطفالها، وألقتهم في النيران، ثم ألقت نفسها بعدهم أيضا.

ولقـــد أرســـل الـــسناتوس عشرة من أعضائه لتنظيم الأوضاع في أفريقيا بالتعاون مع ســـكيبيو. ولقد أمر هؤلاء المبعوثين بتدمير أي شئ مازال باقيا(١٨٣)من مدينة قرطاجة وتسويته

---

(181) Appian, VIII, XIX, 127-130.

(182) Polybius, XXXVIII, 19.1-20.7; CF. Diodorus, XXXII, 22.1-24.1.

(١٨٣) ويقال أن سكيبيو عارض بشدة تدمير ما بقى من المدينة، لكن الرومان رفضوا الاستماع إلى صوت العقل والاعتدال. انظر:- Powell. E.A, Op. Cit., p. 78.

بـــالأرض، كمـــا حرموا على أي شخص أن يعيش هناك، حيث فرضوا اللعنات على كل من يحاول ذلك(١٨٤).

وفـــي النهاية، تم تغطية أرض المدينة بالملح لمنع إعادة نموها وخصوبتها(١٨٥). ويقال أن ســـكيبيو، عندما نظر إلى المدينة بينما كانت قد تدمرت كلية، ذرف الدمع وبكى علانية من أجل أعدائه.

ويروى لنا **بوليبيوس** مقتطفات من حوار سكيبيو معه بعد تدمير قرطاجة قائلاً:- "**وقد إلتفت لي فجأة وأمسك سكيبيو يدي وقال، يالها من لحظة عظيمة، يا بوليبيوس؛ لكنني لدى حدس وتشاؤم مخيف أن يوم ما نفس المصير سوف ينصب على بلادى**"(١٨٦).

وهكـــذا تدمـــرت قرطاجة المدينة العظيمة التي بسقوطها يكون قد سقطت حضارة من أعظـــم وأقـــوى الحضارات في العالم القديم ازدهرت ما يقرب من سبعمائة سنة، كانت خلالها اللواء لكثير من البلاد والشعوب، فقد كانت زعيمة المدن الفينيقية في الغرب بعد مدينة صور، المديـــنة الأم للفينيقيـــين. وكانـــت مدينة قرطاجة العاصمة القلب النابض لإمبراطورية عظيمة متـــرامية الأطراف في صقلية و سردينيا وإسبانيا وغيرها من بلدان العالم القديم. وهكذا دمرت روما قرطاجة، من أجل إبعاد منافس تجارى قوى عن طريقها، ولتصبح سيدة بلا منازع على حوض البحر المتوسط قاطبة.

---

(184) Appian, VIII, XIX, 131, XX. 135.

(185) WWW.iam.classics.unc.edu.

(186) Polybius, XXXVIII, 22.1-3.

الخاتمـــــة

فـــي النهاية ومن خلال هذه الدراسة المعدة عن حضارة قرطاجة نستطيع أن نستخلص الآتي:

١- ظلــت قــرطاجة مدينــة – دولـــة منذ بدايتها وحتى نهايتها، علي الرغم من كل هذه الممتلكات والمستوطنات الكثيرة والشاسعة التي كانت خاضعة لسيادتها.

٢- كــان الــنظام القرطاجـــي قائماً علي سيطرة التجار الأثرياء وهم الذين سيطروا علي السلطة الفعلية في البلاد. وكان دستور قرطاجة ونظام حكمها يجمع بين أصلها كمدينة فينيقــية وبـــين تأثيرات اكتسبها ذلك النظام من خلال اتصاله بالنظم السياسية الأخرى في الغرب. وفي الواقع يمكن سحب هذه الحقيقة علي مدينة قرطاجة عامة؛ فكثيراً ما جمعــت بين الموروث الفينيقي في الوطن الأم وبين صفات ومؤثرات البيئة المحيطة بهم في الغرب، وذلك في شتي مجالات حياتها.

٣- تقوم الزراعة القرطاجية علي نوع من التخصص الدقيق، حيث تخصص القرطاجيون فـــي زراعـــة الأشـــجار المثمـــرة، في حين تخصص الليبيون وبعض المستوطنات القرطاجية الغنية الأخرى مثل سرد ينيا في زراعة الغلال، وخاصة القمح.

٤- تطـــورت الـــزراعة القرطاجية في القرن الخامس، ولقد أدى هذا إلى ازدهار قرطاجة ونمـــوها، كمـــا نشأت طبقة أرستقراطية زراعية قوية. ولقد أدى هذا، بدون شك، إلى حـــدوث تغيـــرات سياسية هامة في نظام الحكم، أدت إلى استقرار أحوال الجمهورية القرطاجية.

٥- يتميـــز الاقتـــصاد القرطاجي بالمرونة والتنوع، حيث اعتمد علي الزراعة والصناعة والـــتجارة، وإن كان قد اعتمد علي التجارة أكثر. وكان سريع التأقلم مع كافة الأزمات التي ألمت به والخروج منها سريعاً في حالة من الازدهار.

٦- كانت التجارة هي محور حياة المجتمع القرطاجي والمحرك الأول له ولسياساته.

٧- عـــاش المجـــتمع القرطاجي وسط شعوب تكن له العداء والكراهية والحقد مما جعلهم يحاولـــون تـــشويه صورته في كتاباتهم، خاصة الكتاب اليونان والرومان، مما أضفى بعـــض الغموض علي حياة هذا الشعب، وفي أحيان أخرى أضفى بعض من البشاعة، مما يوجب توخي الحذر عند الاعتماد علي هذه الكتابات.

٨- لــم يعــان المجتمع القرطاجي من صراع طبقي خطير، ولكن الخطر الذي عاني منه المجــتمع كان نابعاً من الشعوب الخاضعة، خاصة الليبيين والأسبان، نظراً للالتزامات الثقــيلة المفروضـــة عليهم، بالإضافة إلى تعنت قرطاجة في منح المواطنة القرطاجية للشعوب الخاضعة تحت سيادتها.

٩- كــان الفــن القرطاجــي مــزيجاً من طرز فنية كثيرة مختلفة، ولكن التأثير المصري واليونانـــي كــان أوضــحها وأشــهرها علـــي الإطلاق. وكانت معظم مجالات الفن القرطاجي تقريباً في خدمة المعتقدات الدينية القرطاجية. كما كتعد الجبانات القرطاجية فـــي مخـــتلف العالم القرطاجي تقريباً المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن الفن القرطاجي ومجالاتـــه، وذلـــك مـــن خـــلال الاكتشافات الأثرية التي قام بها الكثير من الأثريين والمكتشفين.

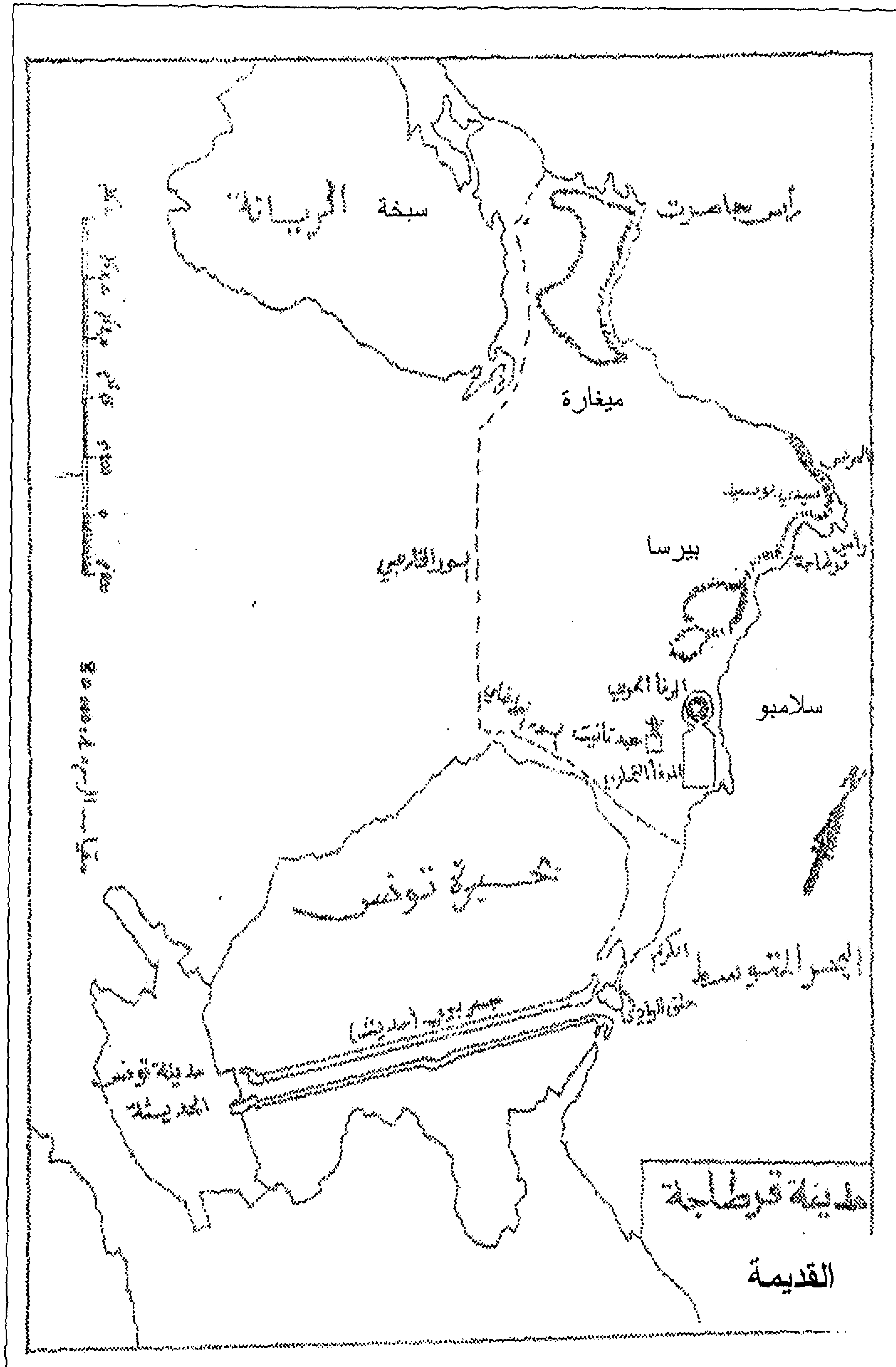
١٠- لــم تستطع العمارة المدنية القرطاجية مقاومة المؤثرات المعمارية اليونانية في كثير مـــن عناصـــرها، فلقد انتشرت علي نطاق واسع في كثير من المباني، وخاصة تلك التي تخص النبلاء والأثرياء القرطاجيين.

١١- لعـــب الكهنة القرطاجيون دوراً ثقافياً ذا أهمية تاريخية كبري، إذ يرجع إليهم الفضل فـــي بقـــاء اللغة، والثقافة، والحضارة القرطاجية في أفريقيا بعد تدمير المدينة نفسها وانتهاء سلطانها عليها، فقد استمروا لعدة قرون بعد الغزو الروماني.

١٢- ظلت الديانة القرطاجية فينيقية في جوهرها، وذلك بالرغم من كل المؤثرات الأجنبية التي أثرت فيها مثل اليونانية والمصرية وغيرها.

١٣- دمـــرت روما مدينة قرطاجة في عام ١٤٦ق.م، من أجل إبعاد منافس تجاري قوي عن طريقها، ولتصبح سيدة بلا منازع علي حوض البحر المتوسط قاطبة.

الملاحق



شكل رقم ١

نقلاً عن:- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص١٠٩.

ظهر العملة



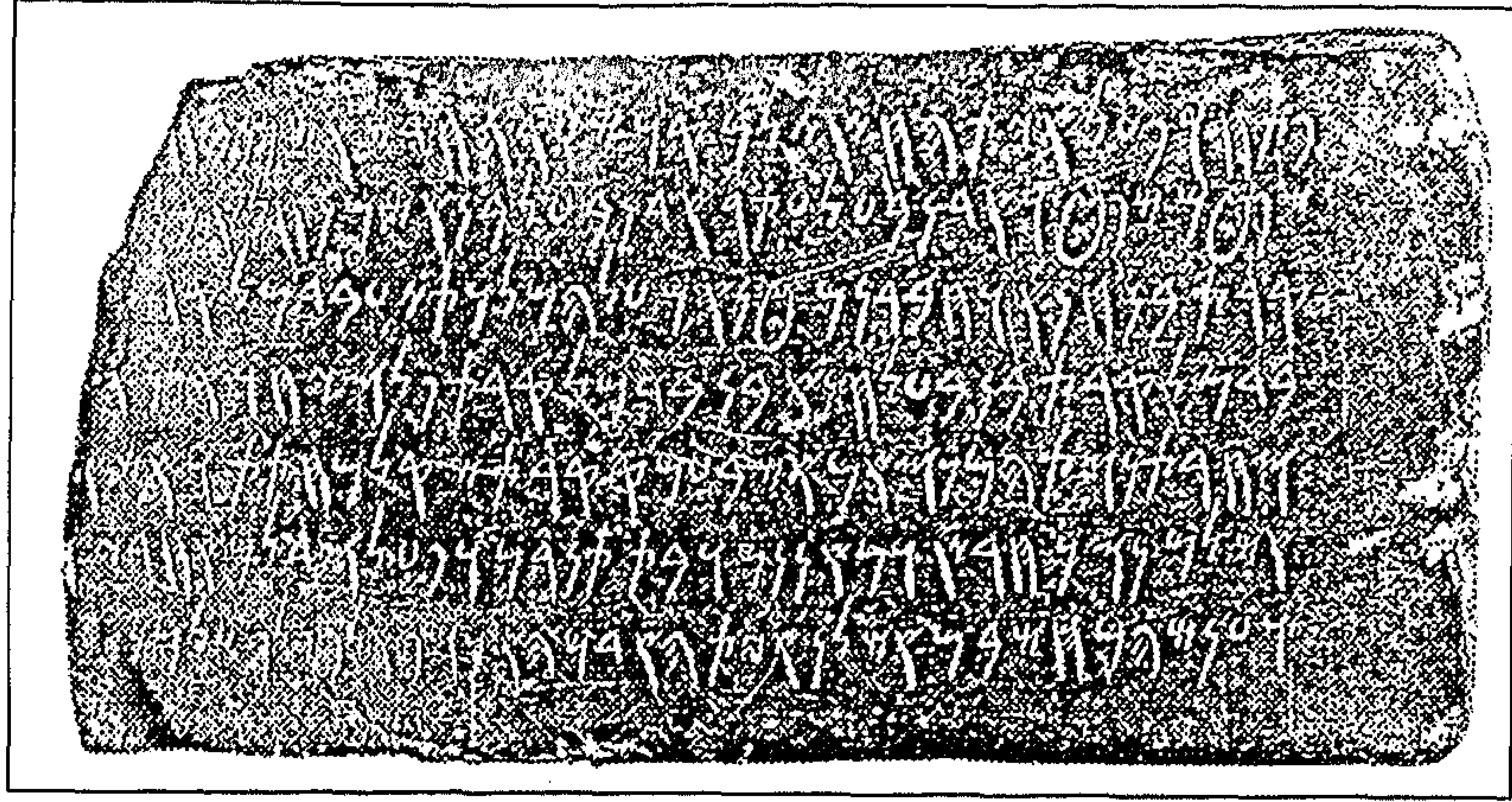
وجه العملة



شكل رقم ٢

نموذج لعملة قرطاجية تحمل صورة حصان علي أحد وجهيها

نقلاً عن:- **Moscati. S, Op. Cit., PLS. 101- 102**

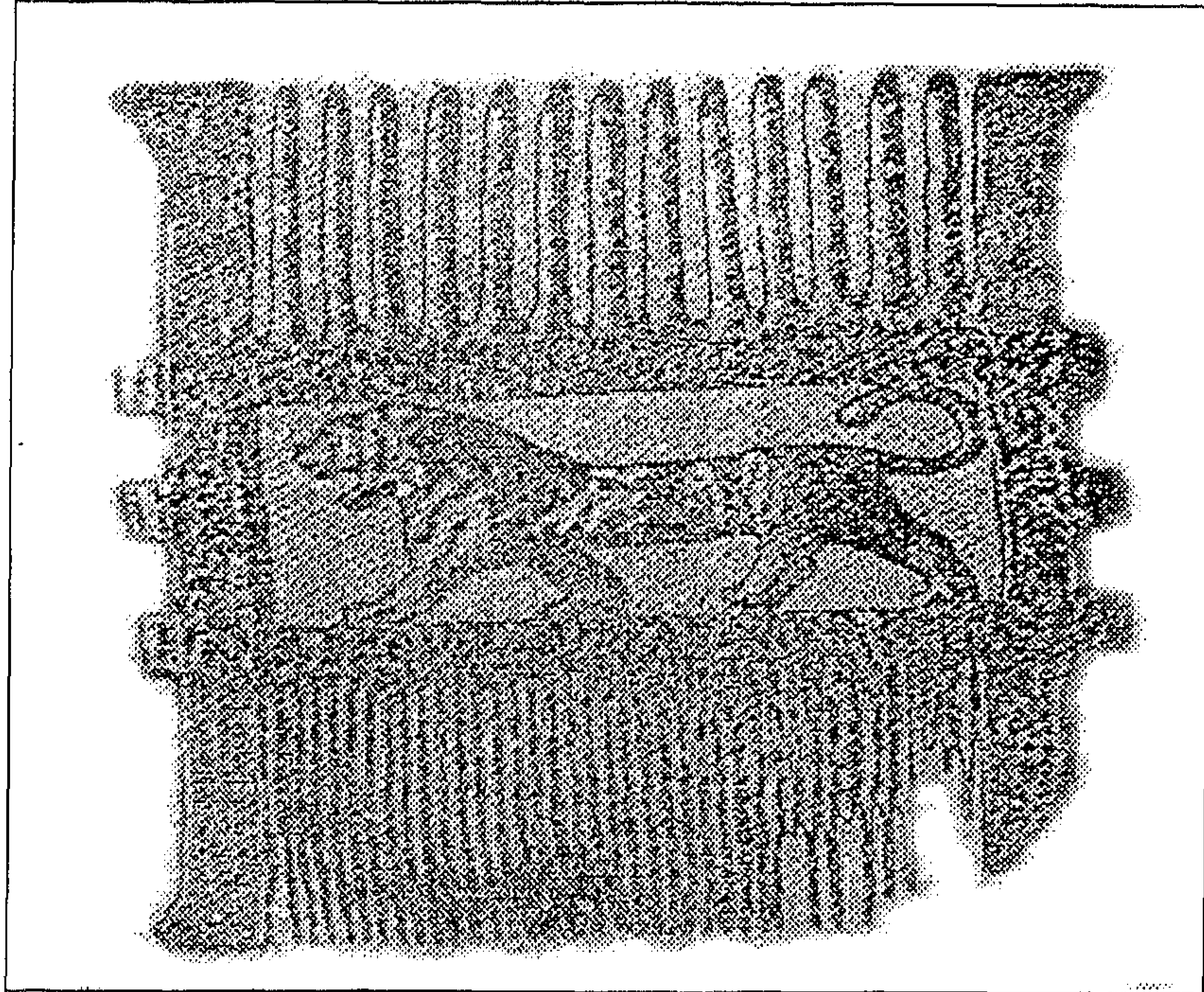


شكل رقم ٣

نقش قرطاجي ذات محتوى معماري يرجع إلى القرن الثالث ق.م

مدينة قرطاج الأثرية (متحف قرطاج)

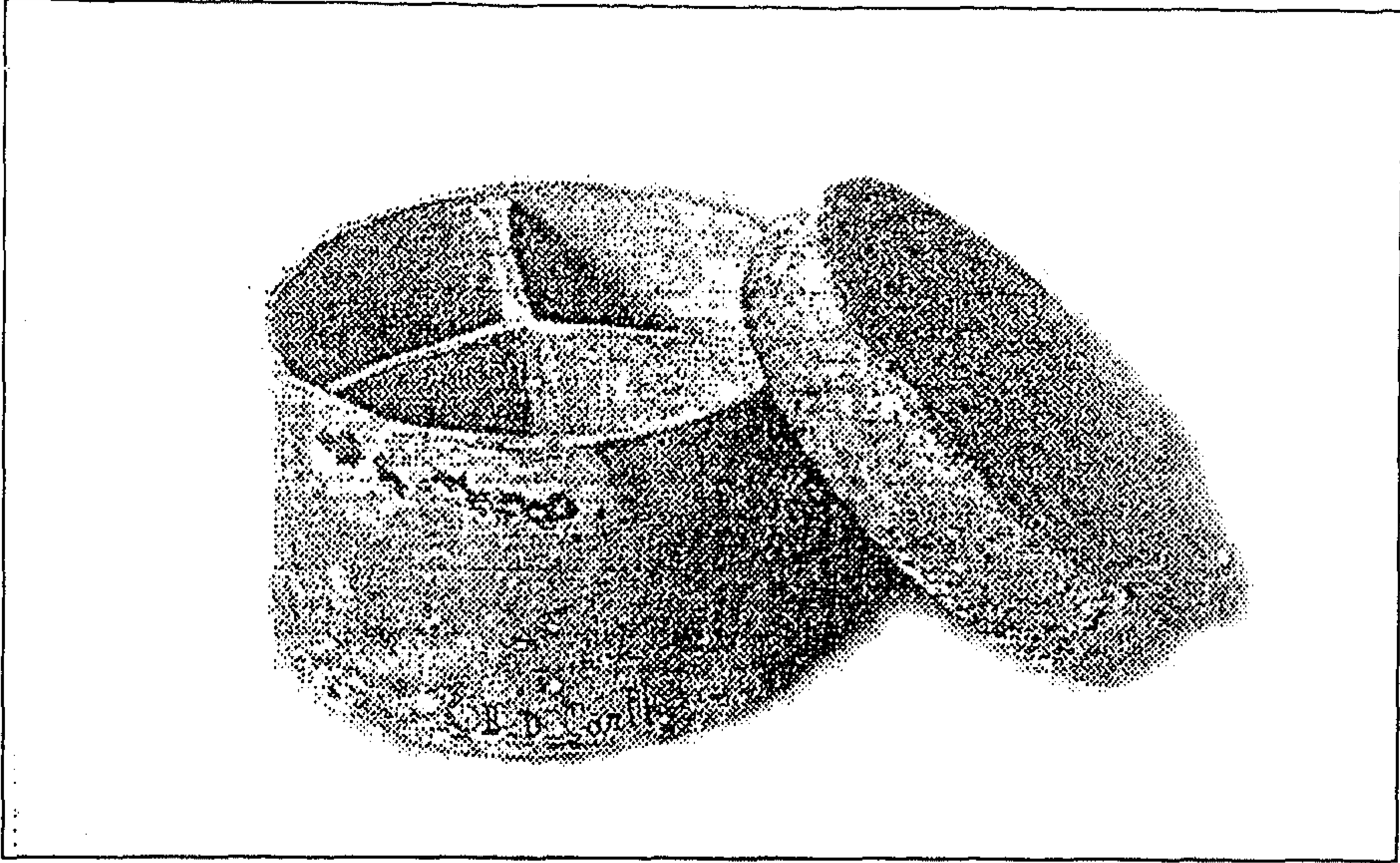
نقلاً عن:- Fantar. M. H, Op. Cit., p. 48.



شكل رقم ٤

مشط من العاج

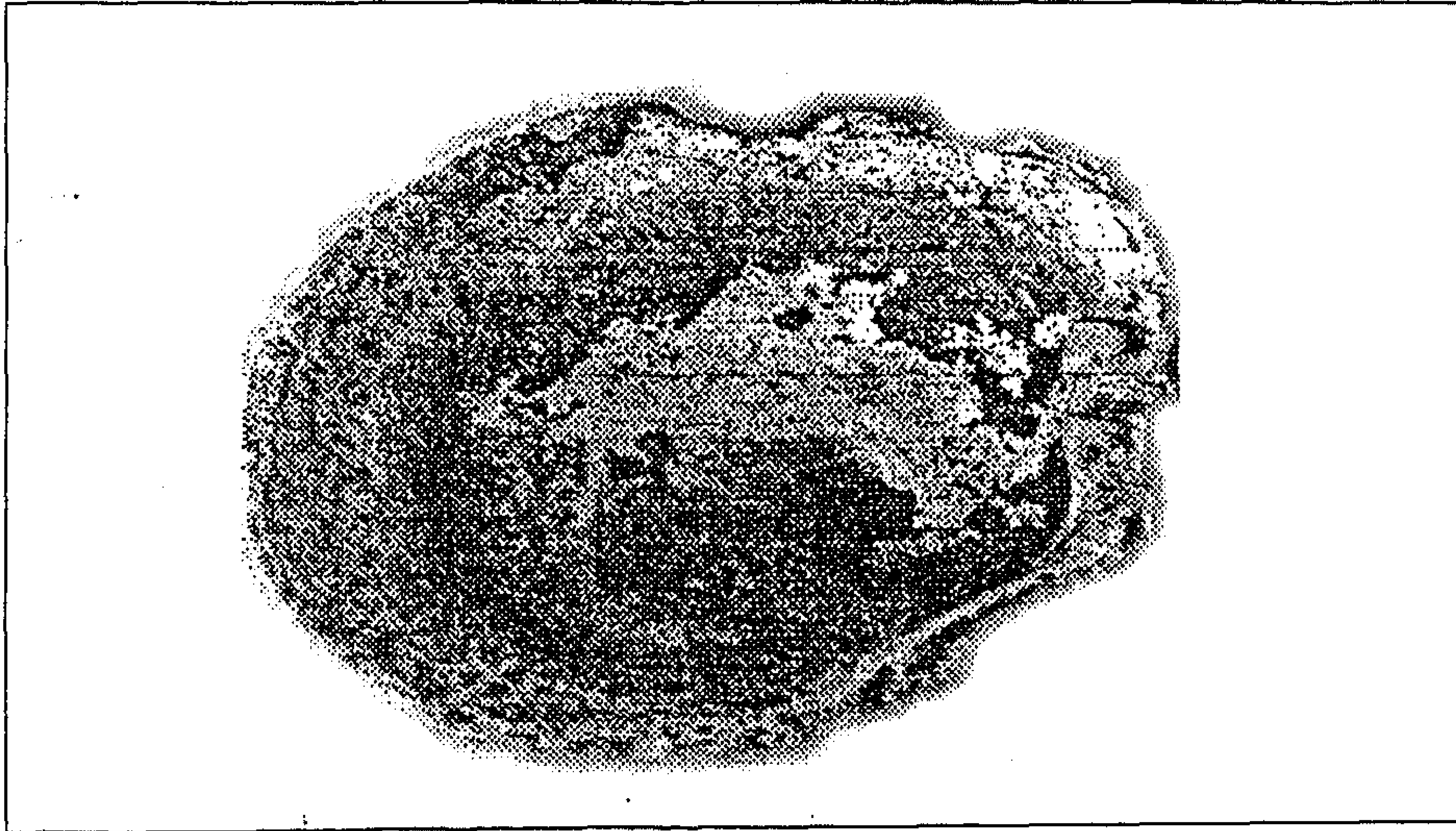
نقلاً عن :- أحمد صفر، المرجع السابق، ص ١٤٦.



شكل رقم ٥

مدهنة من الرصاص ترجع إلى القرن الرابع أو الثالث ق.م مدينة قرطاج (متحف باردو)

نقلاً عن:- **Fantar. M. H, Op. Cit., p. 179**

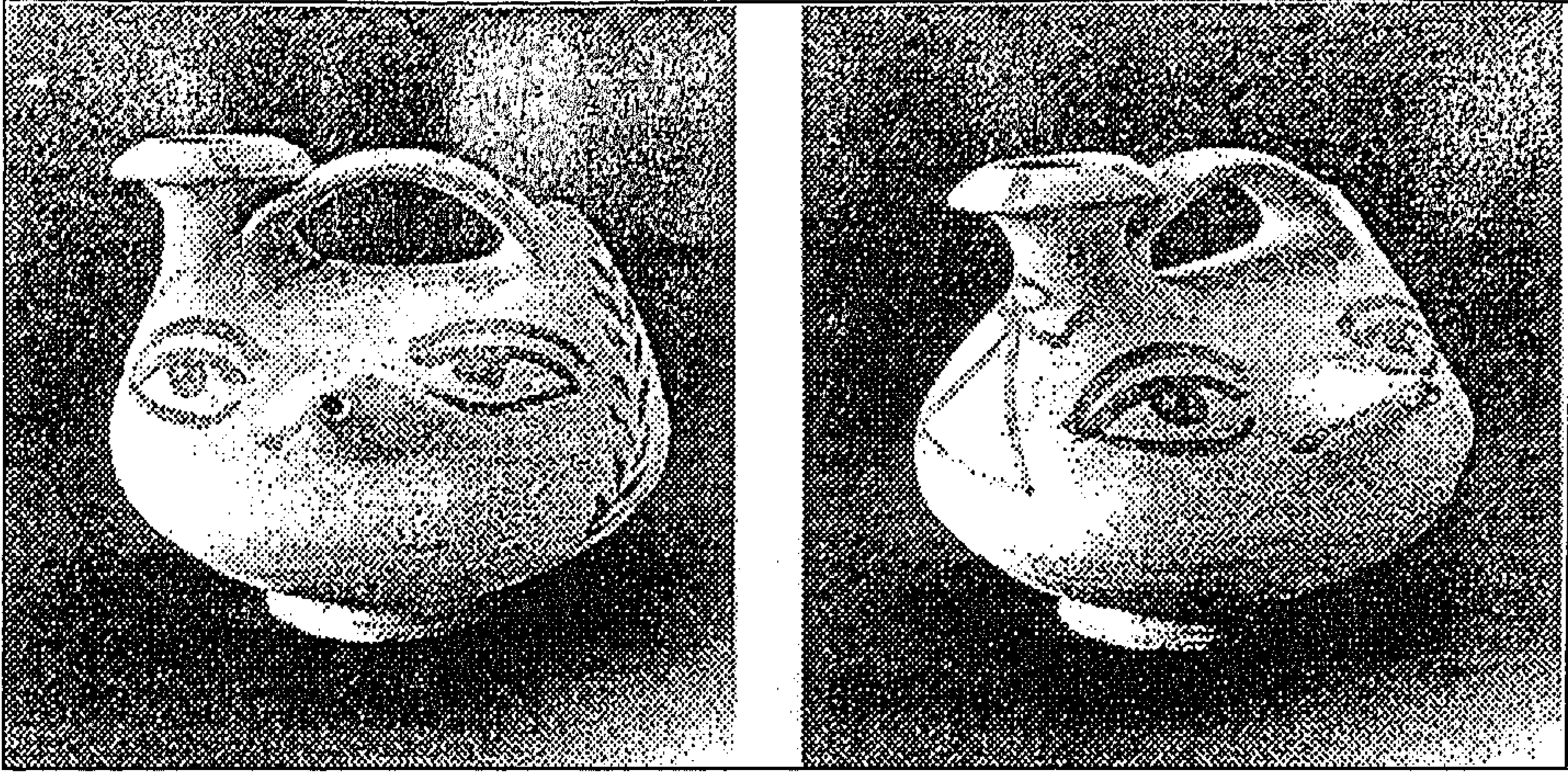


شكل رقم ٦

مدهنة علي شكل محارة، ومازالت تحمل أثر الأصباغ الحمراء

ترجع إلى القرن الرابع أو الثالث ق.م

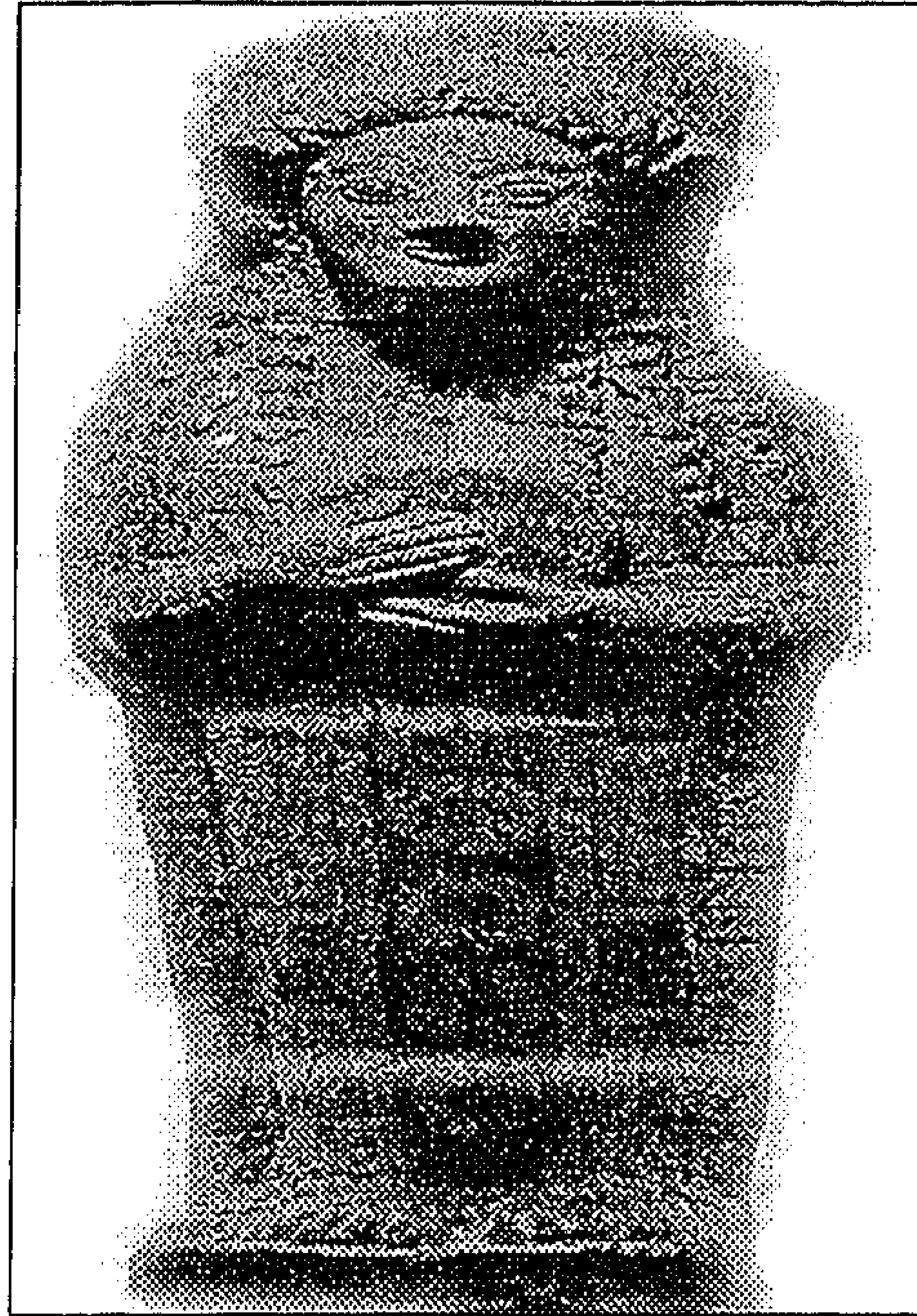
نقلاً عن:- **Fantar. M. H, Op. Cit., p. 180**



شكل رقم ٧

إناء قرطاجي من الفخار مخصص لإطعام الأطفال الصغار، تؤرخ من القرن الرابع إلى الثالث ق.م

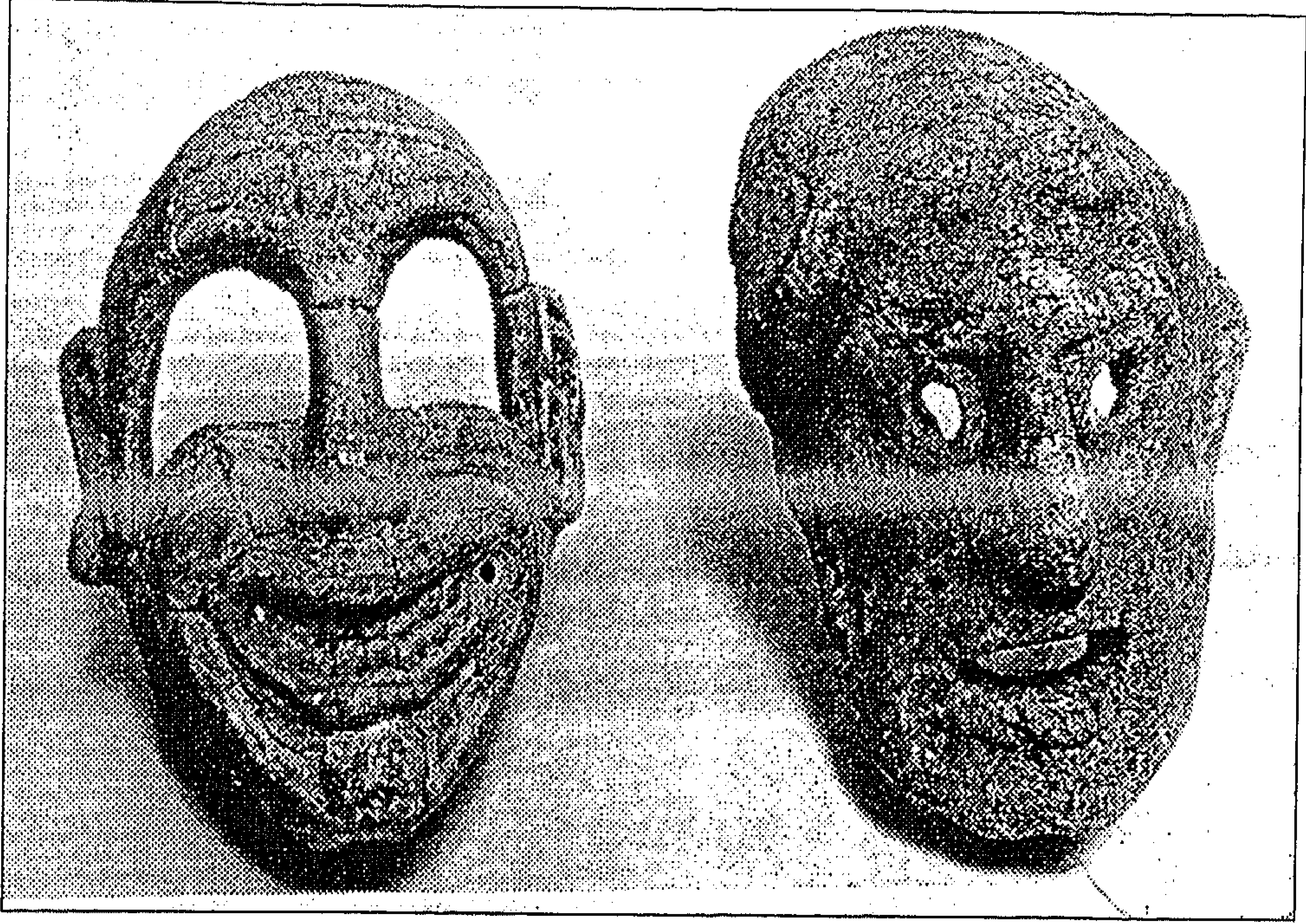
نقلاً عن: Khader. A& Soren. D, Op. Cit., p 45



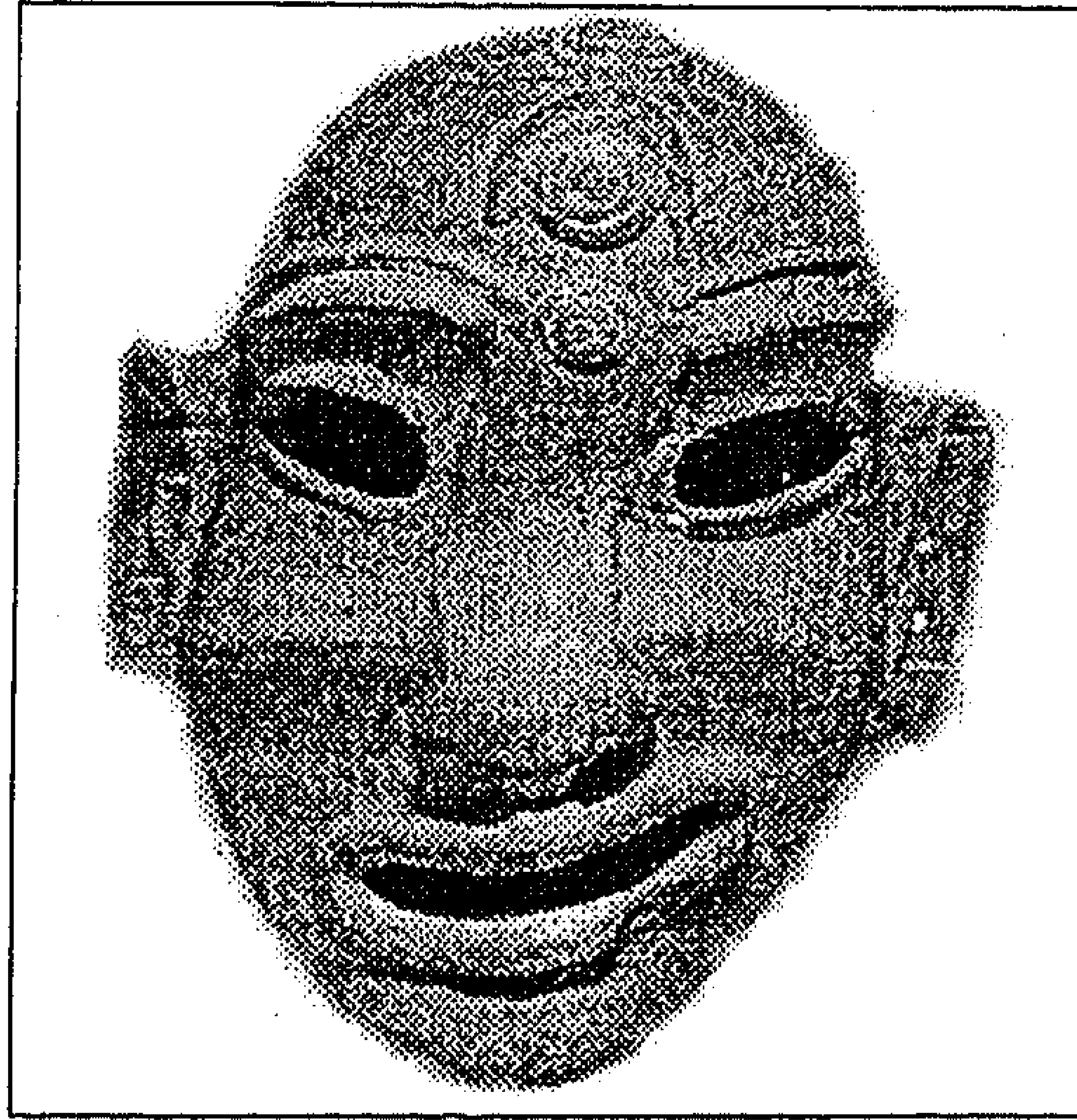
شكل رقم ٨

نموذج للتماثيل النسائية القرطاجية (من قرطاجة)

نقلاً عن: Moscati. S, Op. Cit., PL. 65.



من إبيزا

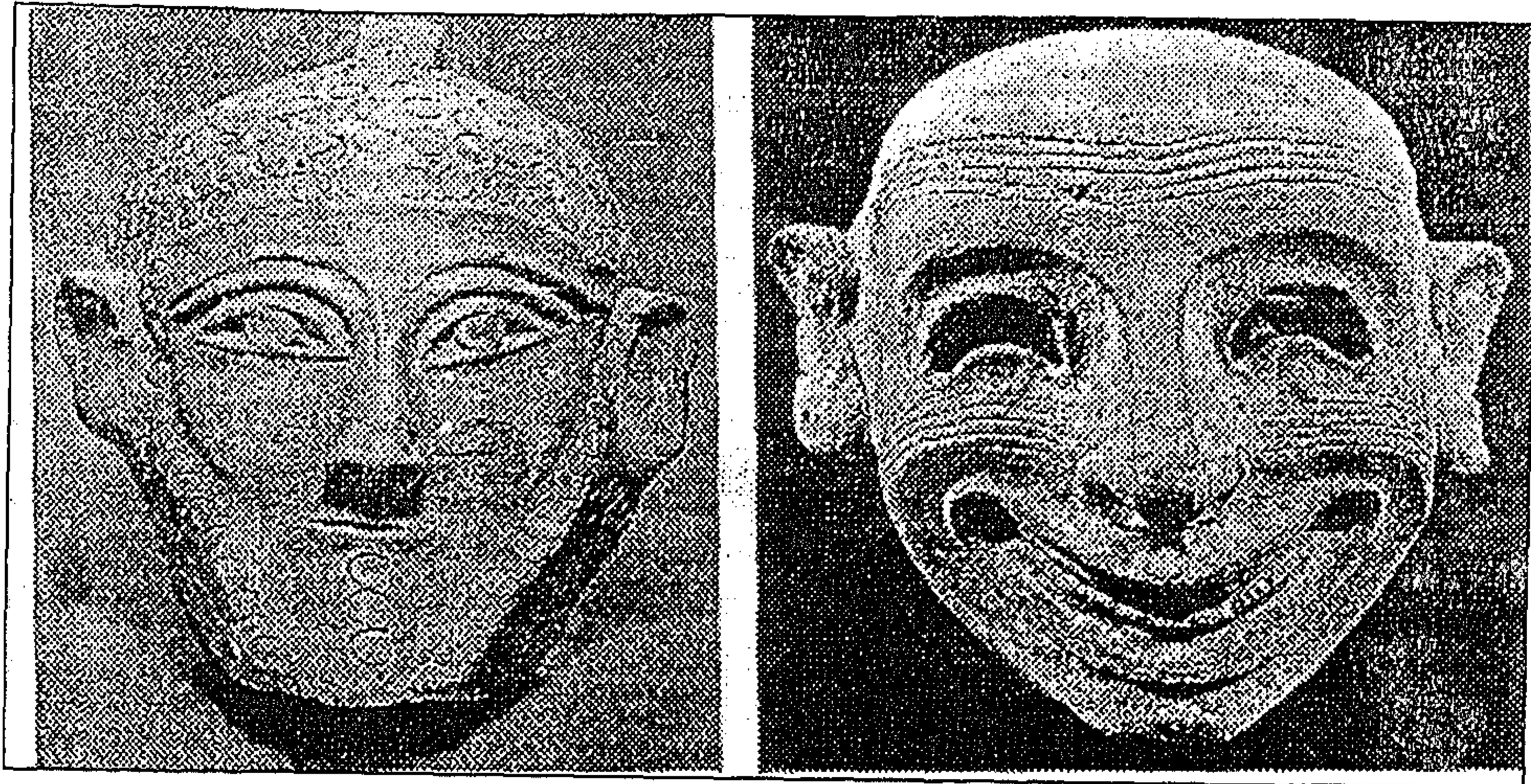


من قرطاجة

شكل رقم ٩

نماذج من الأقنعة الفخارية القرطاجية

نقلاً عن:- Moscati. S, Op. Cit., PLS. 72, 77

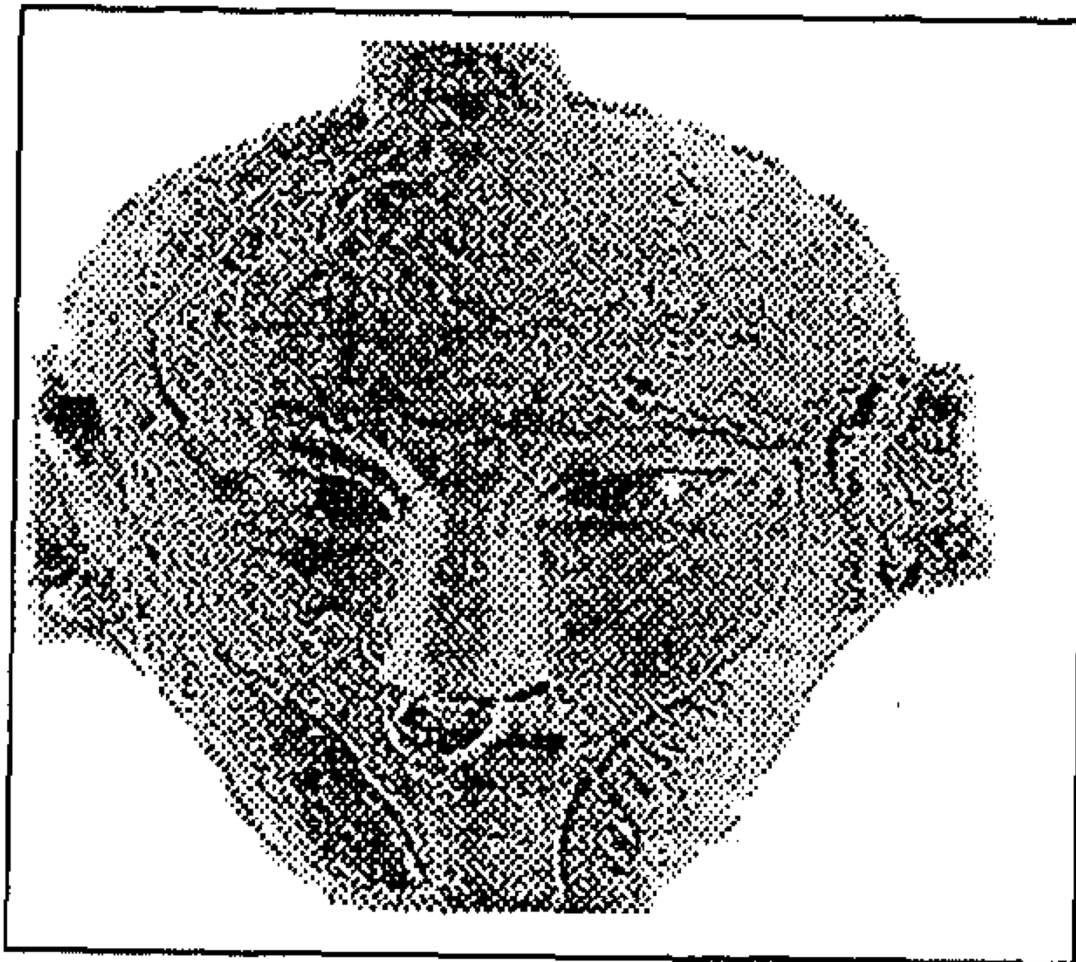


من موتيا

من قرطاجة



من قرطاجة



من قرطاجة

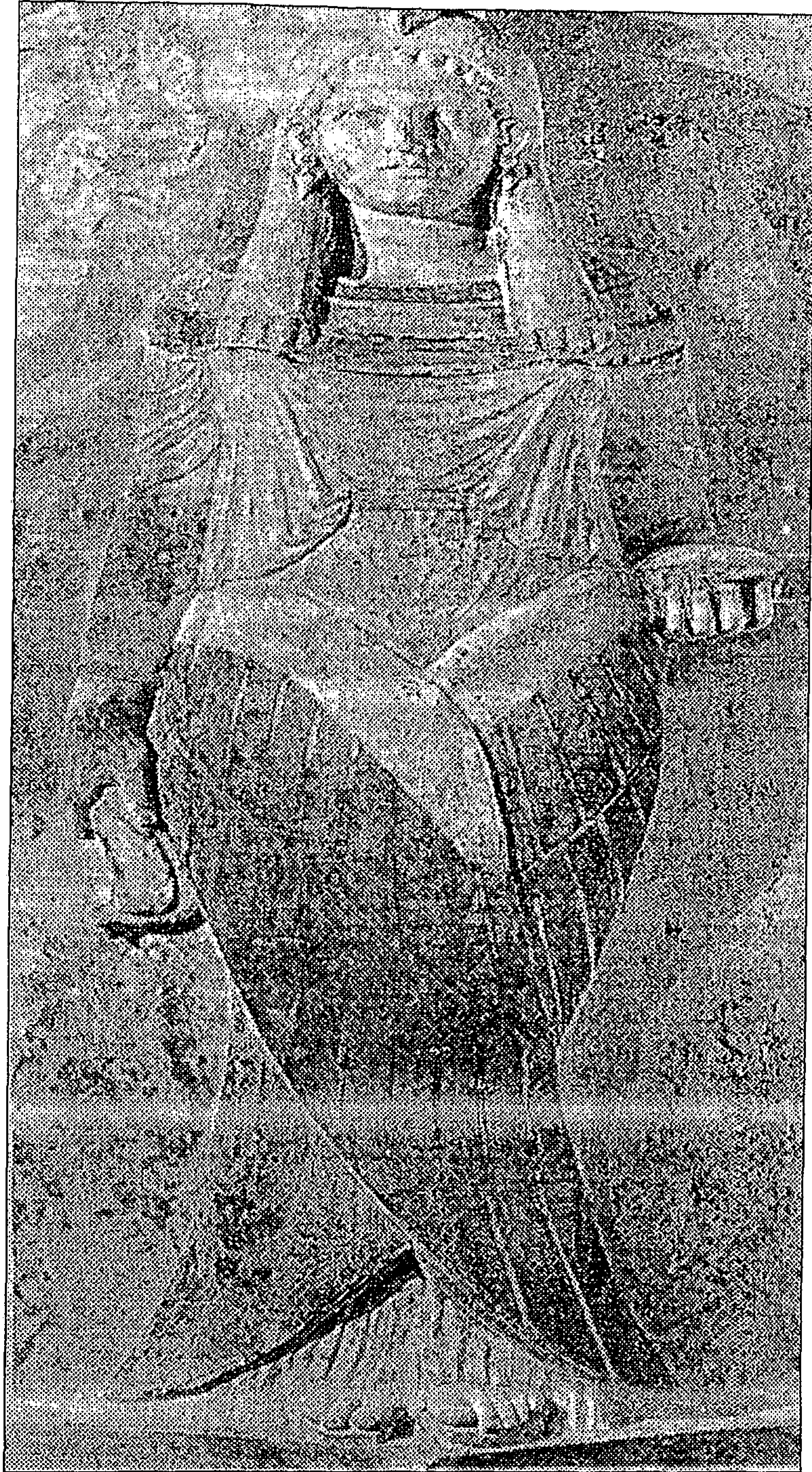


من قرطاجة

شكل رقم ١٠

نموذج من الأقنعة الفخارية القرطاجية

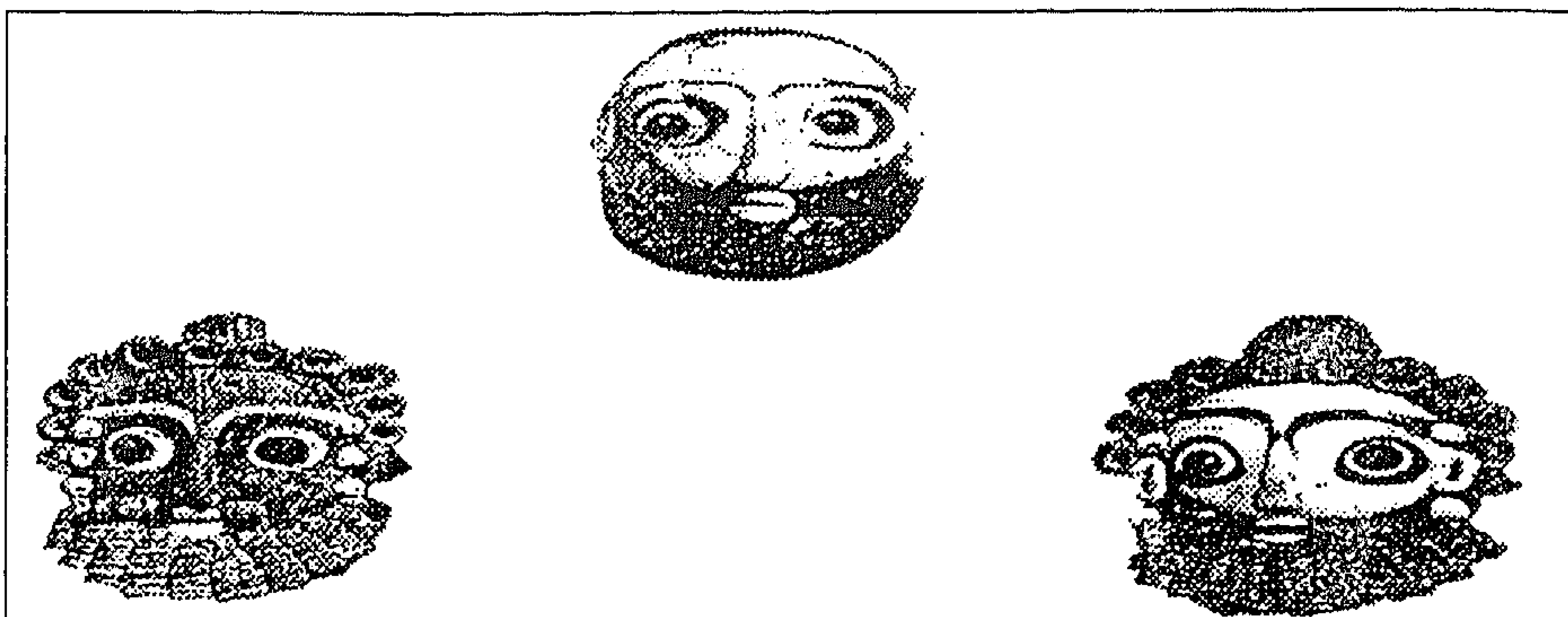
نقلاً عن:- **Moscati. S, Op. Cit., PLS. 73, 76.**



شكل رقم ١١

غطاء تابوت من النوع الانثروبويد يظهر كاهنة مجنحة

نقلاً عن:- Moscati. S, Op. Cit., PL.9



شكل رقم ١٢

ثلاثة تمائم من الزجاج علي هيئة دلايات صغيرة

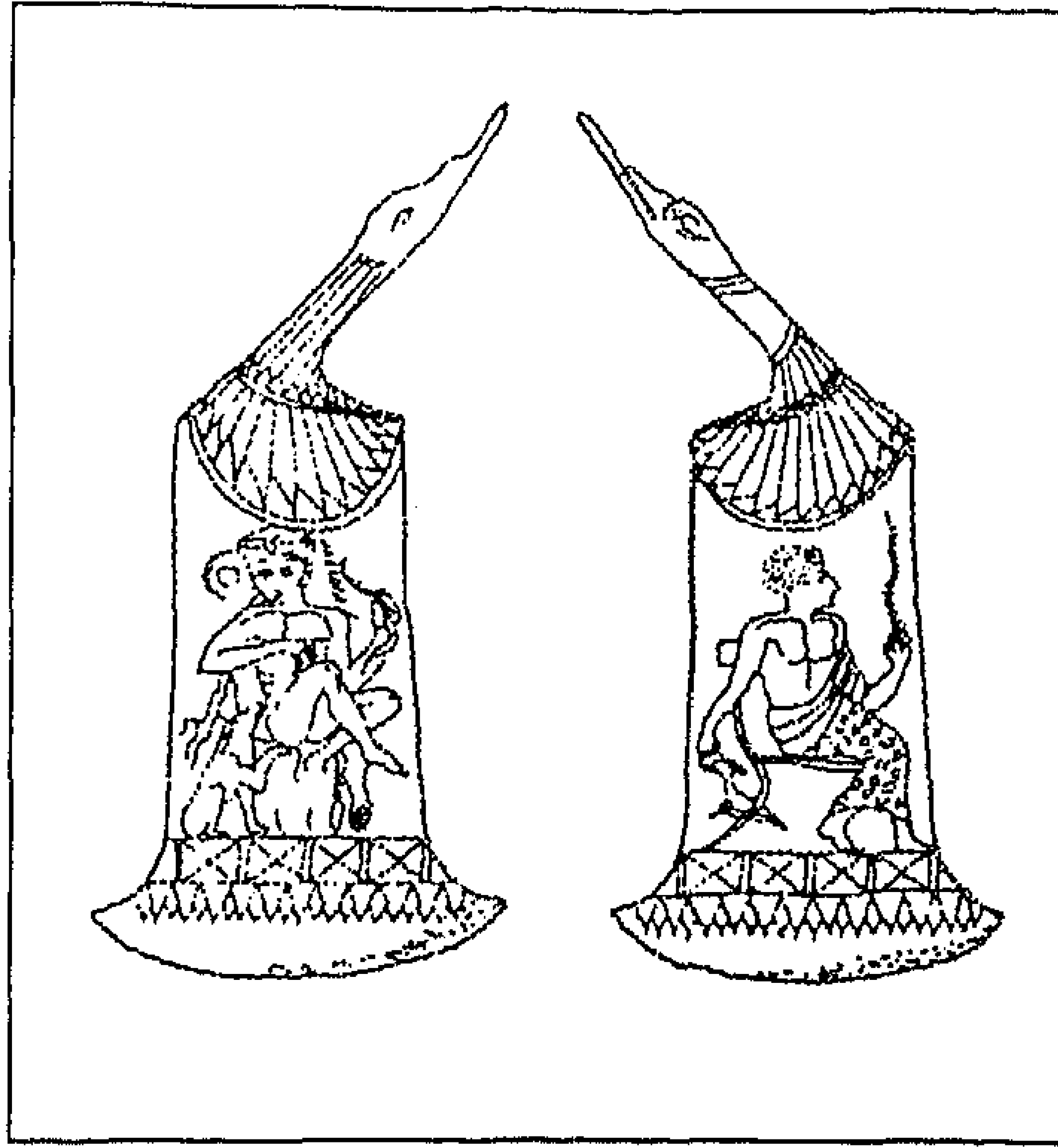
نقلاً عن: Lancel. S, Op. Cit., p. 218

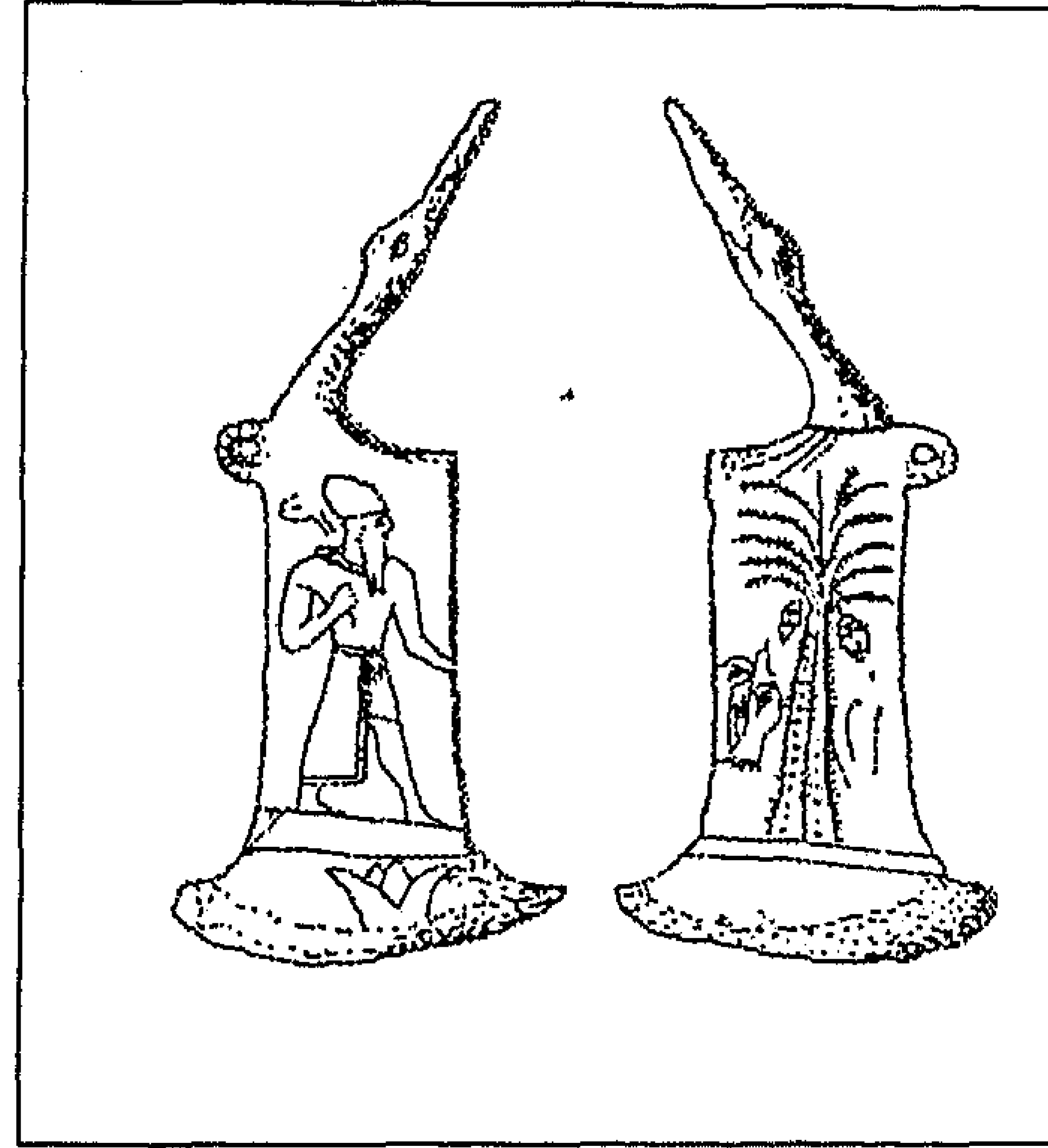


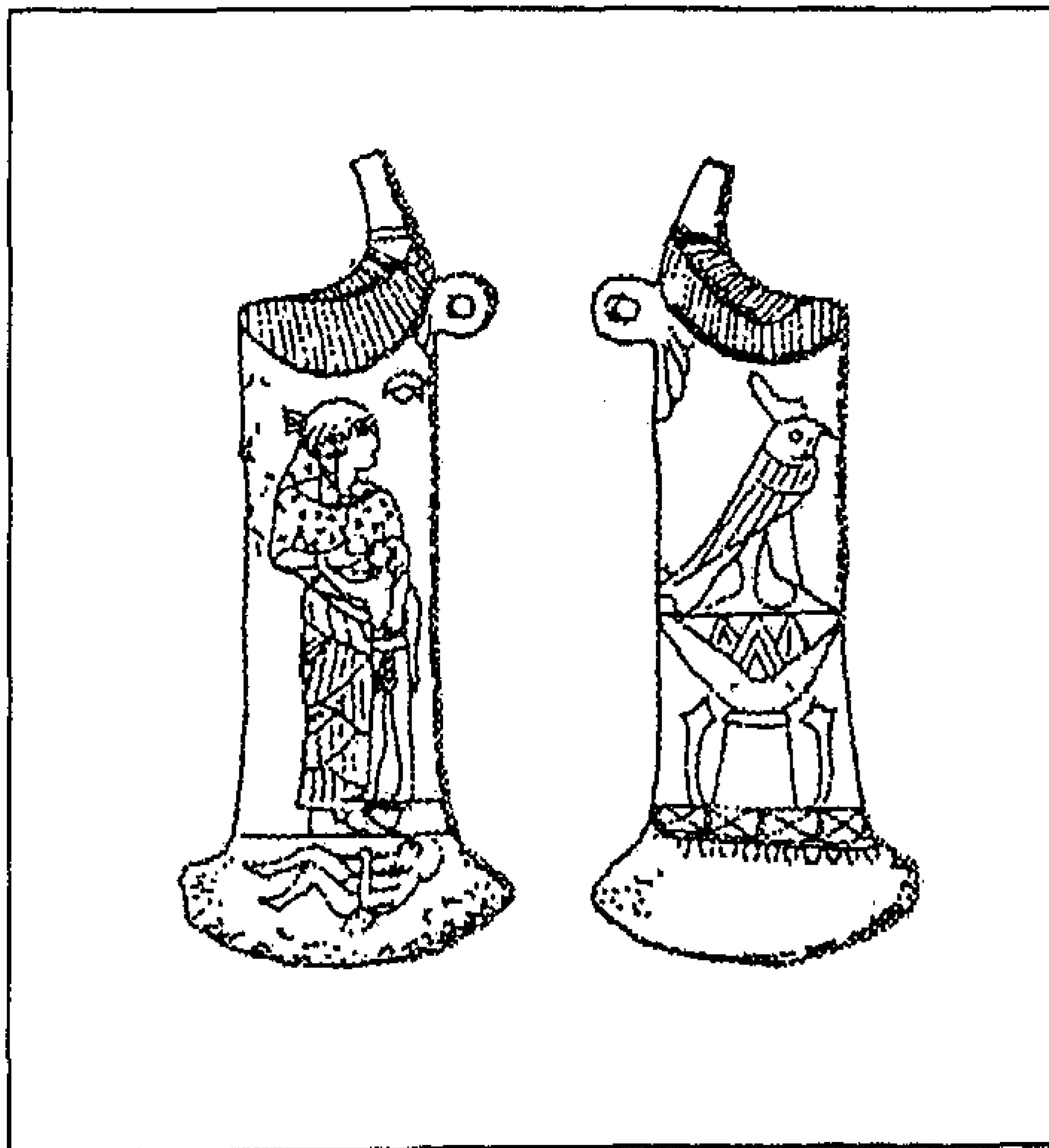
شكل رقم ١٣

نماذج من الحلي القرطاجي

نقلاً عن:- Moscati. S, Op. Cit., PL. 93



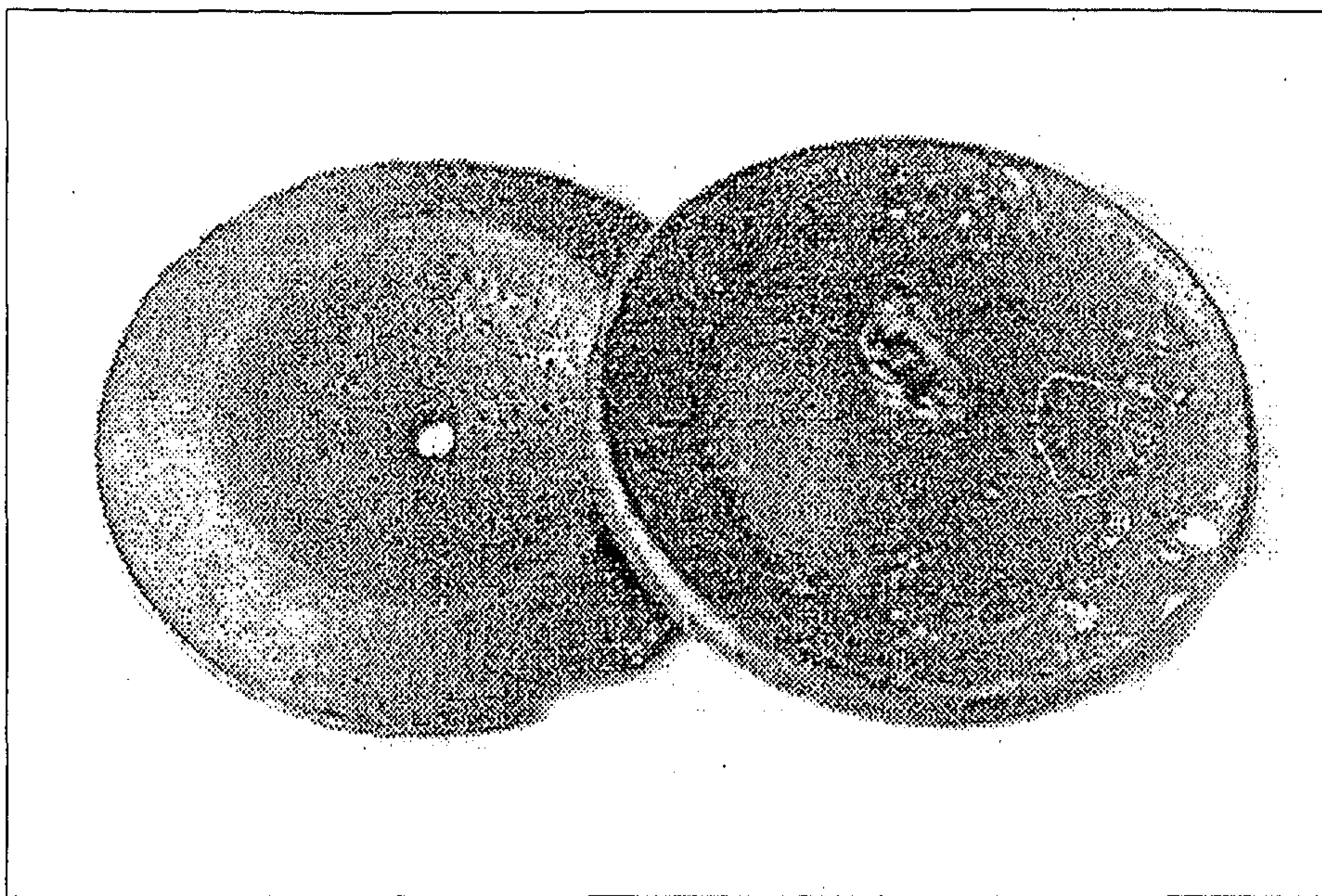


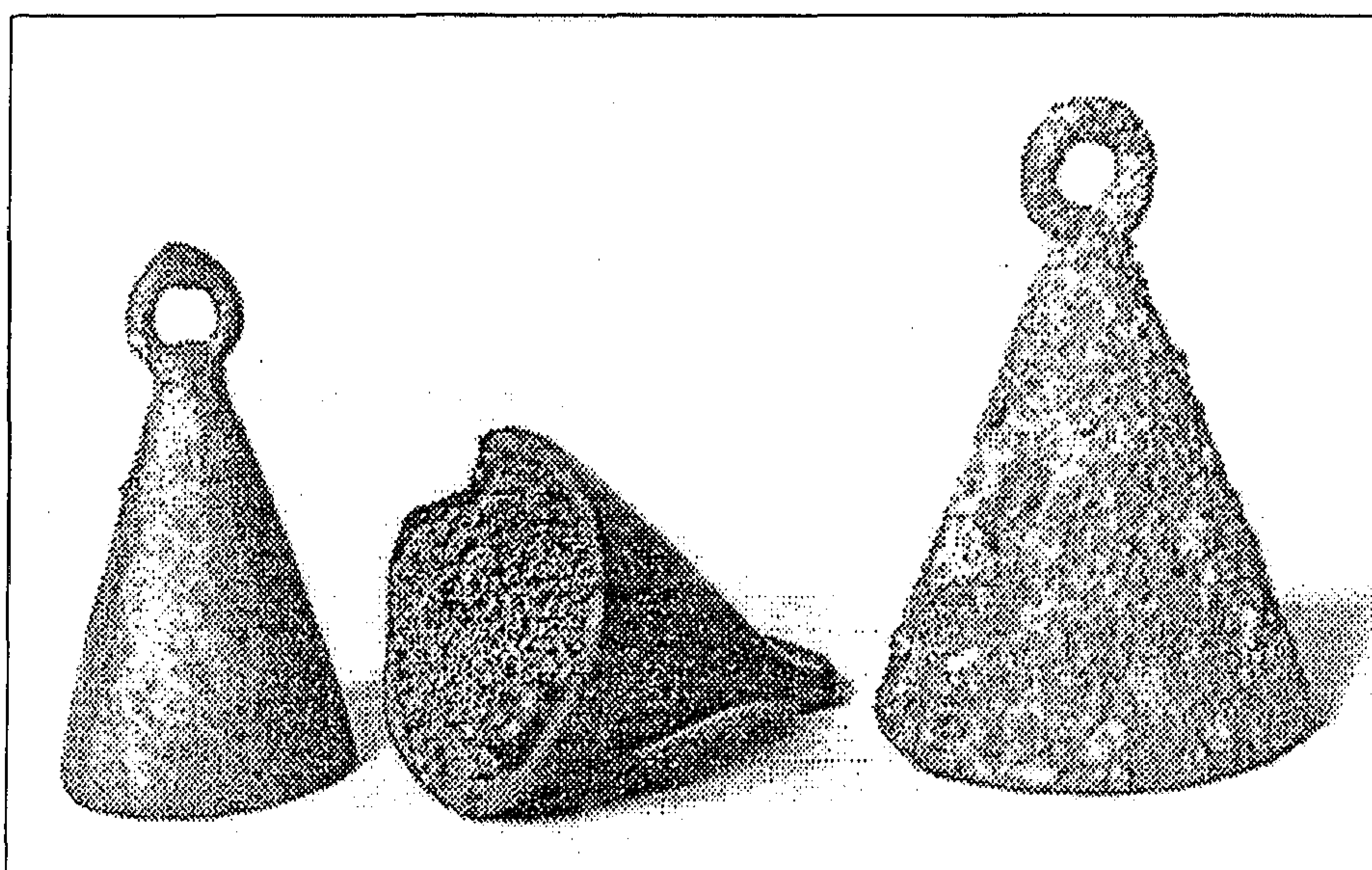


شكل رقم ١٤

نماذج من شفرات الحلاقة القرطاجية

نقلاً عن:- محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، ص ١٨٠.





شكل رقم ١٥

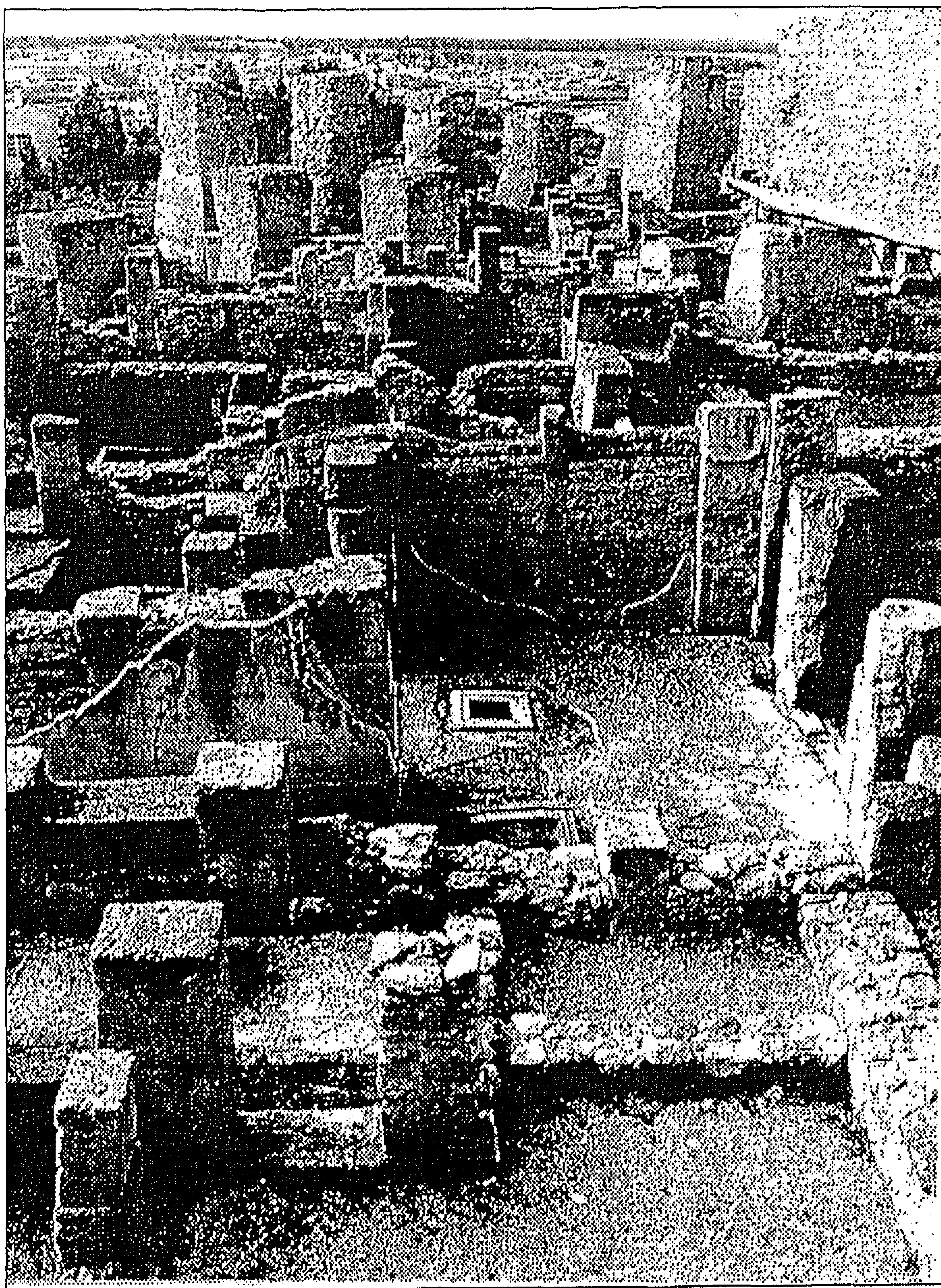
نماذج لبعض الآلات الموسيقية القرطاجية

نقلاً عن:- Fantar. M. H, Op. Cit., pp. 169-170



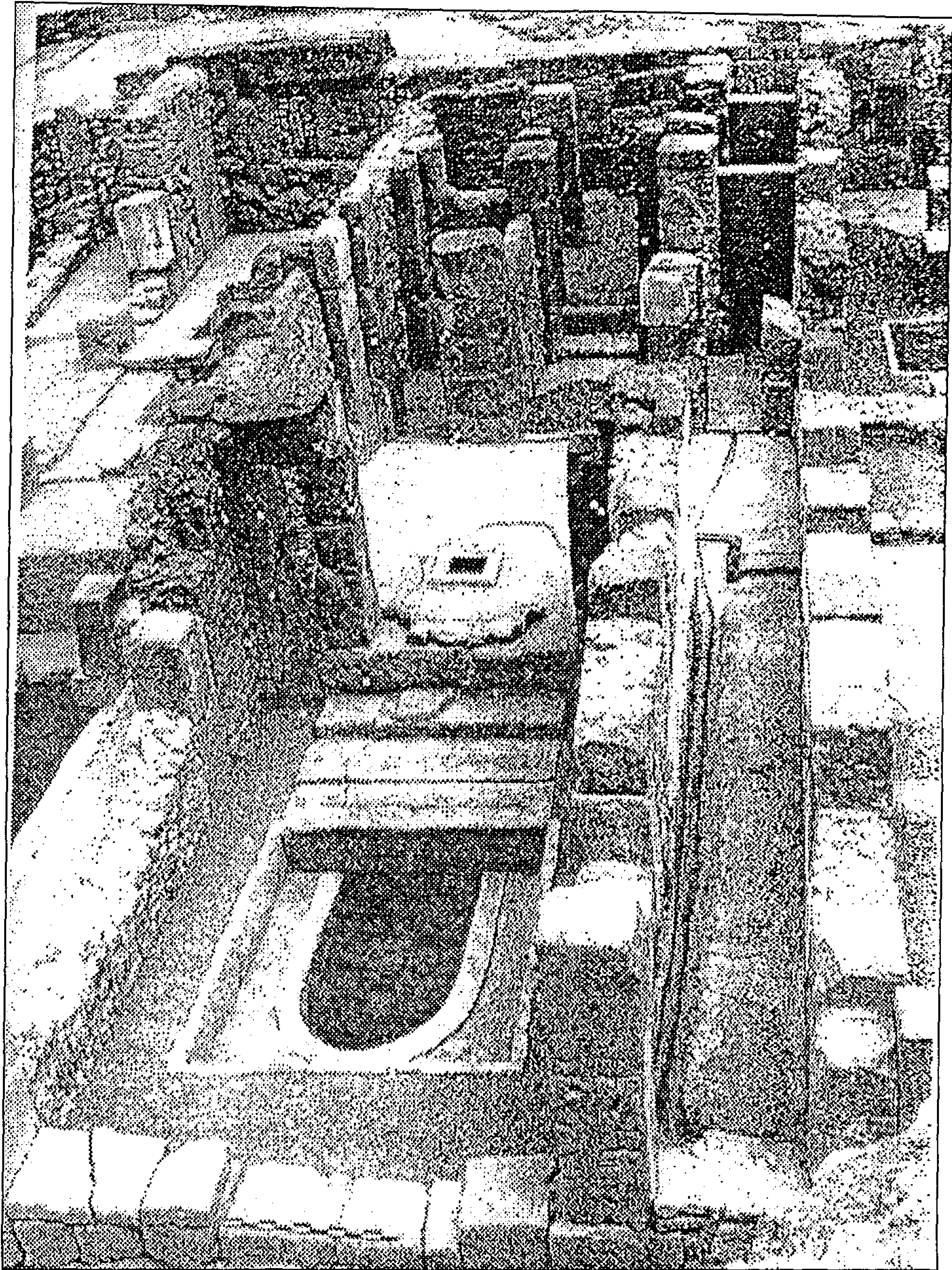
شكل رقم ١٦

نقلاً عن:– Khader. A& Soren. D, Op. Cit., p. 93.



شكل رقم ١٧

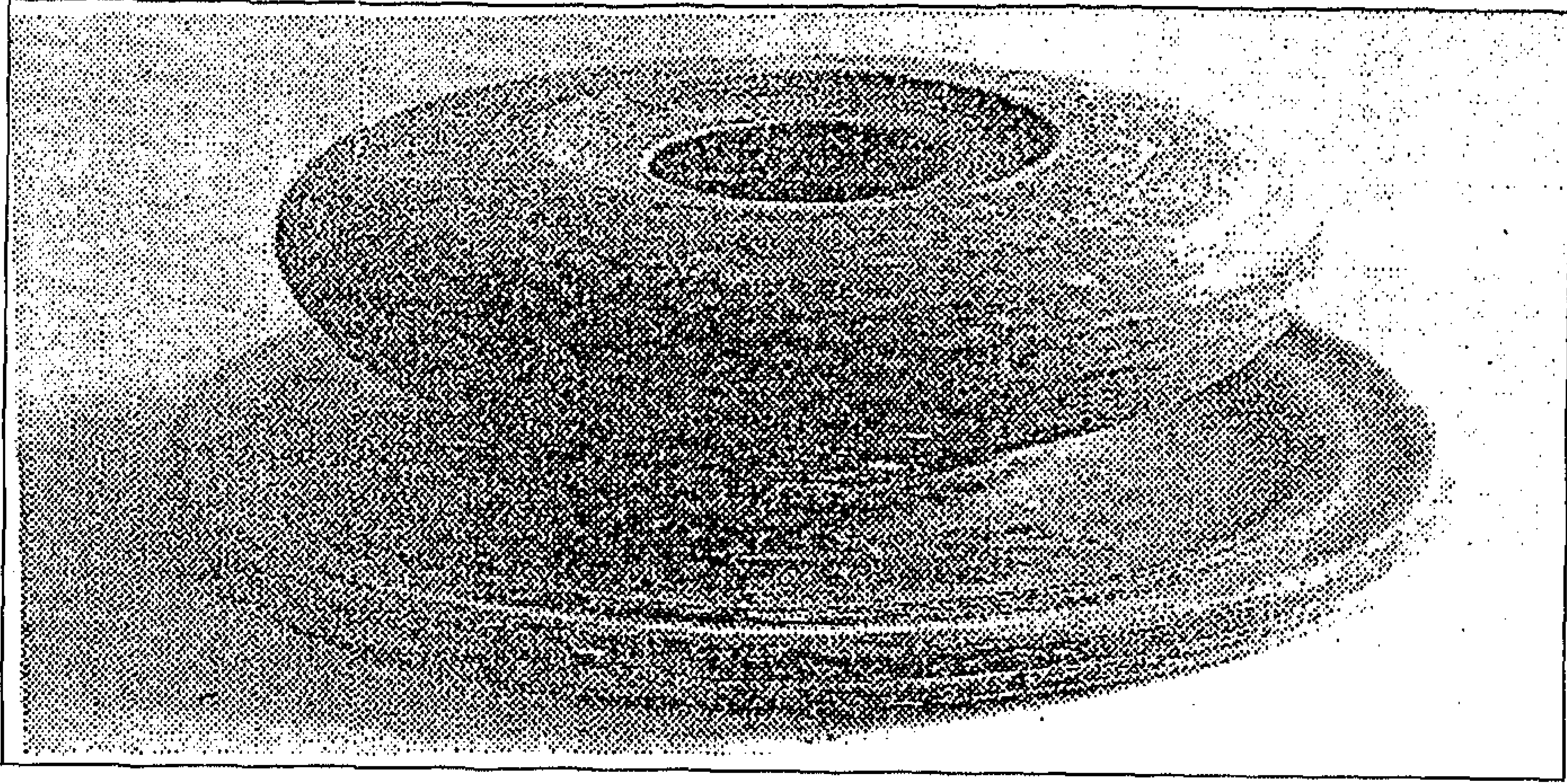
نقلاً عن:- Khader. A& Soren. D, Op. Cit., p. 112.



شكل رقم ١٨

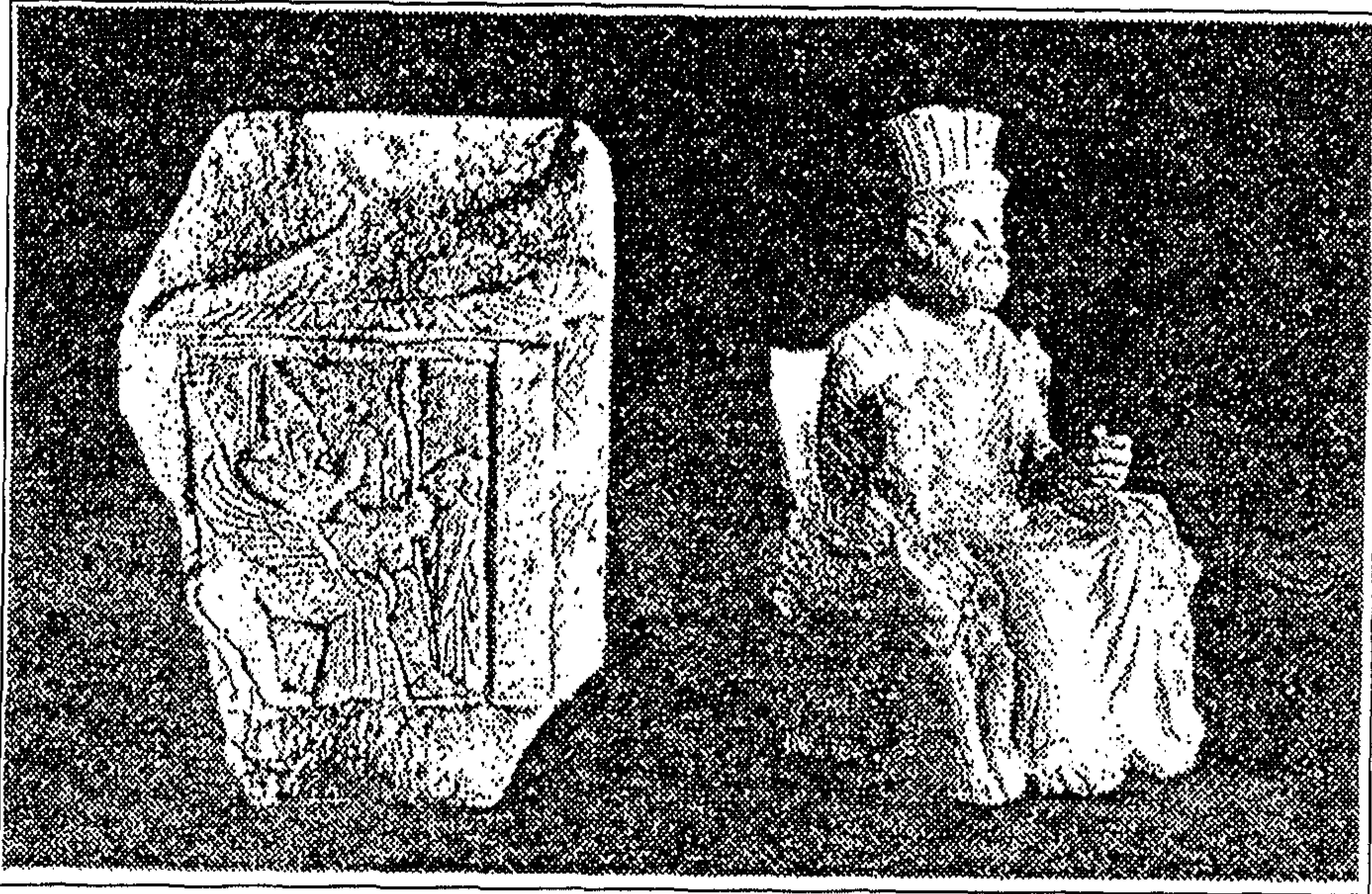
نموذج لمنزل يحتوى علي صهريج خاص به

نقلاً عن:- Lancel. S, Op. Cit., p. 163.



شكل رقم ١٩

نقلاً عن:- Fantar. M. H, Op. Cit., p.47



شكل رقم ٢٠

بعل حمون

نقلاً عن:- Lancel. S, Op. Cit., p. 198.



شكل رقم ٢١

تمثال الإلهة تانيت

نقلاً عن:- رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص٢١٠

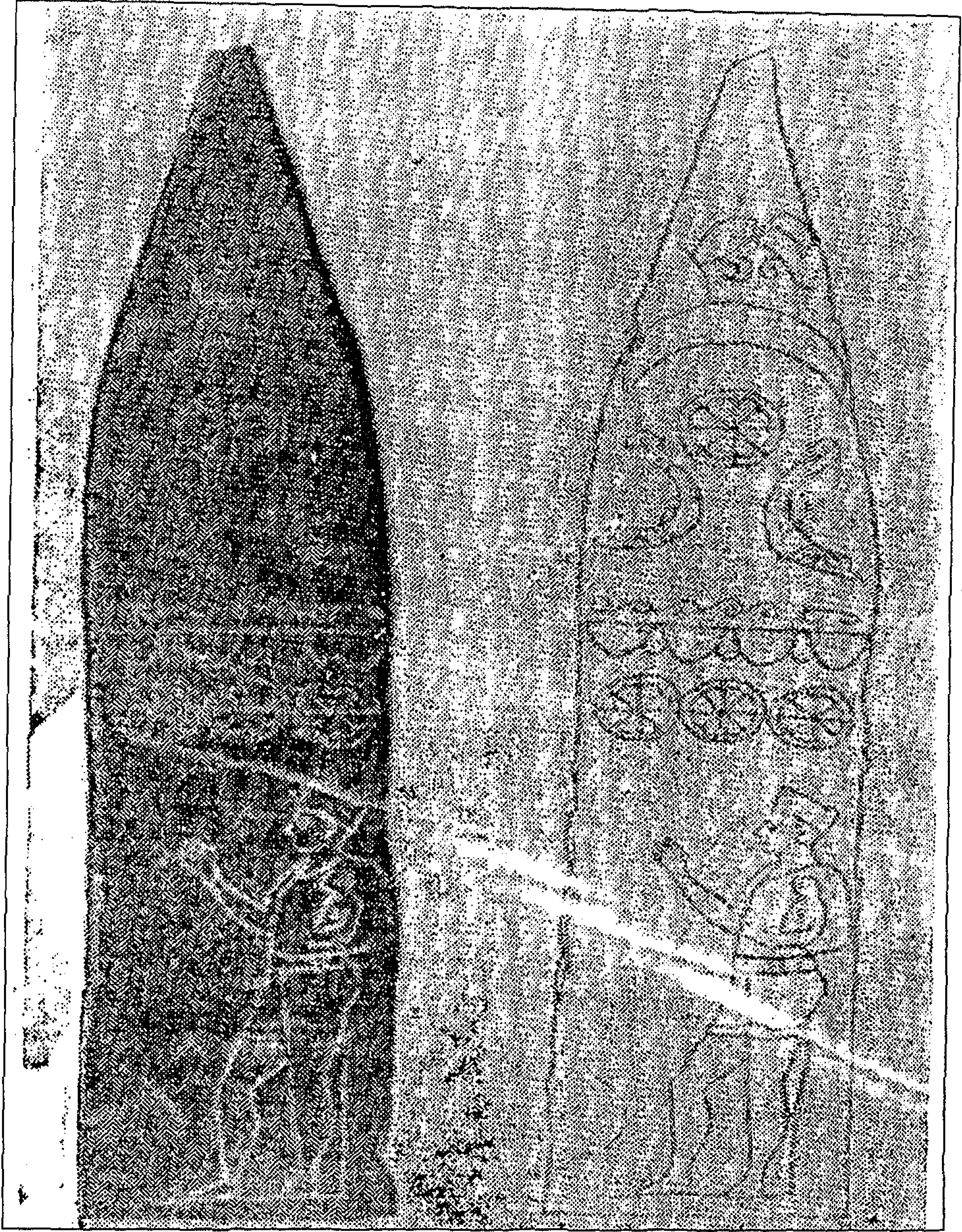




شكل رقم ٢٢

رمز الإلـهة تانيت

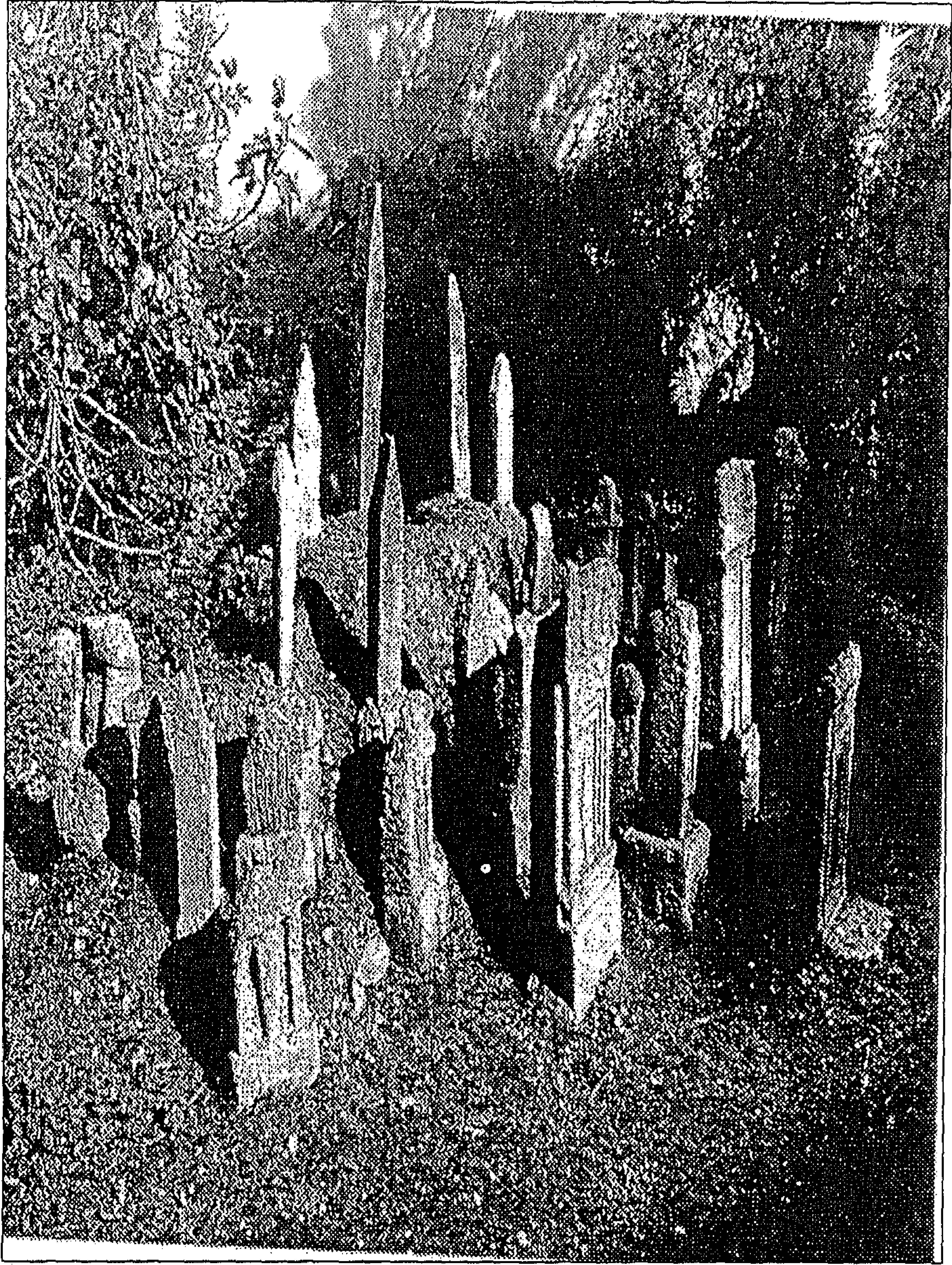
نقلاً عن:- الشاذلي بورونيه ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص ٢٨١.



شكل رقم ٢٣

نصب نذري يمثل كاهناً يحمل طفلاً صغيراً ليقدمه قرباناً للآلهة

نقلاً عن:- أحمد صفر، المرجع السابق، ص١٢٠.



شكل رقم ٢٤

منظر عام خارجي لتوفيت قرطاجة

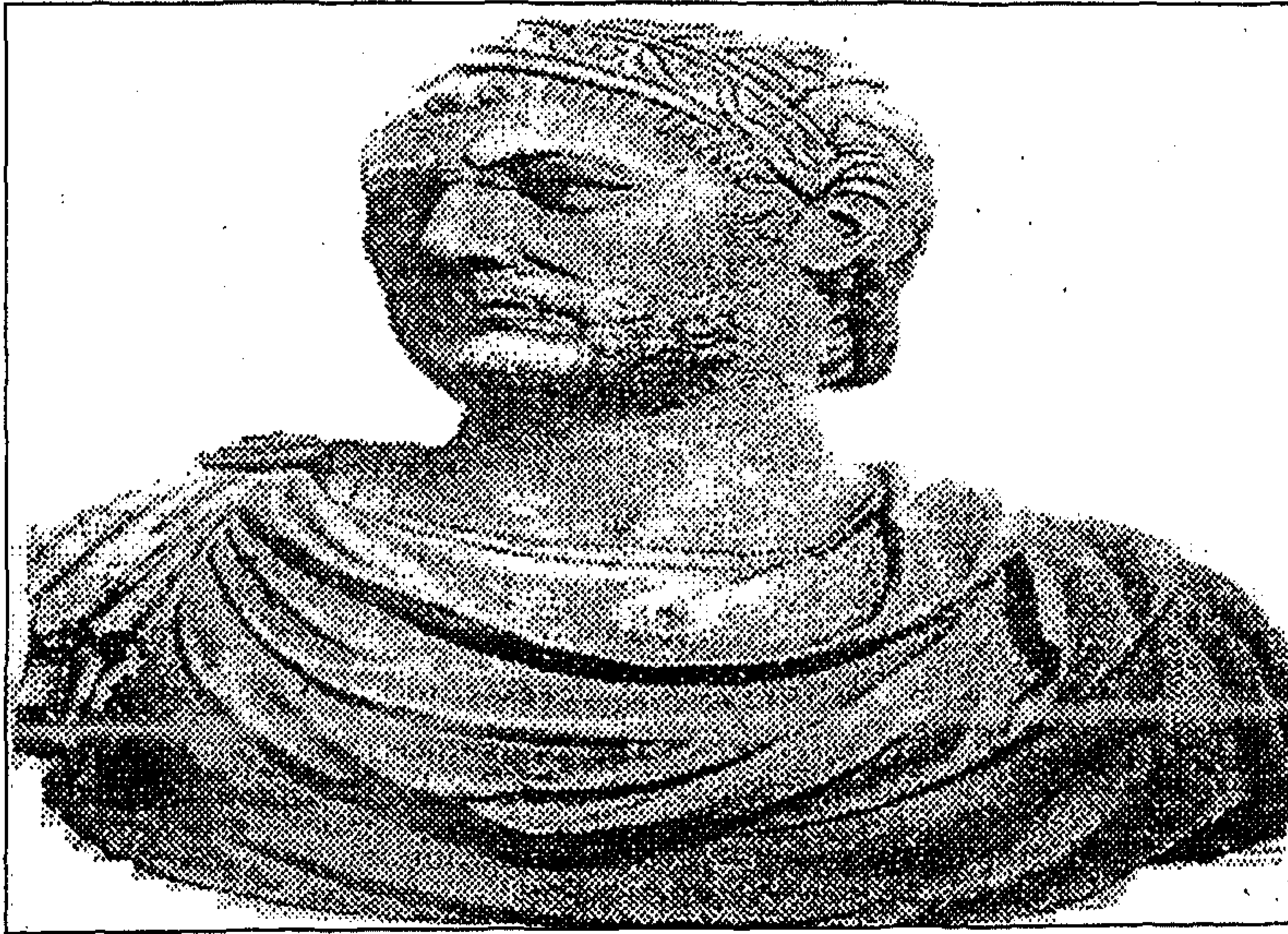
نقلاً عن:- Khader. A& Soren. D, Op. Cit., p.42



شكل رقم ٢٥

القائد هاميلكار بارقا

نقلاً عن:- أحمد صفر، المرجع السابق، لوحة ٤٨.



شكل رقم ٢٦

هانيبال بارقا

نقلاً عن:- أحمد صفر، المرجع السابق، لوحة ٤٩.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة الاختصارات:

1. **AJA**	American Journal of Archaeology.
2. **Antiquity (QRA)**	A Quarterly Review of Archaeology.
3. **CAH**	The Cambridge Ancient History.
4. **JHS**	The Journal of Hellenic Studies .
5. **L.C.L**	The Loeb Classical Library.
6. **NC**	The Numismatic Chronicle.
7. **WCS**	The World In Color Series.

أولاً:- المصادر الأدبية الكلاسيكية:-

1. **Appianus** Appian's Roman History, L.C.L, (Translated by: white. H), 4 vols., London, 1966.

2. **Aristotles** Politics, L.C.L,(Translated by: Rackham.H), London, 1957.

3. **Cornelius Nepos** - (Epitome of Roman History), L.C.L, London, (Not dated).

4. **Diodorus Siculus** Biliotheke, L.C.L, (Translated by: Walton. F.R), 12 Vols., London, 1946-1976.

5. **Herodotus** Histories, L.C.L, (Translated by: Godley. A.D), 4 Vols., London, 1946-1950.

6. **Livius** L.C.L, (Translated by: Moore. F.G; Schlesinger. A.C; Sage. E.T ; Foster. B.O), 14 Vols., London, 1958-1966.

7. **Plutarchus** Plutarch's Lives, L.C.L, (Translated by: Perrin. B), 11 Vols., London, 1949.

8. **Polybius** The Histories, L.C.L, (Translated by: Paton. W.R), 6 Vols., London, 1932-1960.

9. **Strabon** The Geography of Strabo, L.C.L, (Translated by: Jones. H.L), 8 Vols., London, 1967.

10. **Virgilius** Aeneid, L.C.L, (Translated by: Fairclough. H.R), 2 Vols., London, 1966.

ثانياً: المراجع الأجنبية:-

1- **Altamira. R,** A History Of Spain (From The Beginnings To The Present Day), (Translated By: ***Lee. M),*** London, 1950.

2- **Carpenter. R,** "Phoenicians In The West", (AJA), Vol. 62, No.1,January 1958.

3- **Cary. M,** A History Of Rome Down To The Reign Of Constantine, 2nd Edition, London, 1954.

4- **Church. A.J,** Carthage Or The Empire Of Africa, 9th Impression, London, 1921.

5- **Cook. S & Others,** "The Hellenistic Monarchies And The Rise Of Rome", (CAH), Vol. VII, Chap. XXI, 1928, Cambridge.

6- **Fantar. M. H,** Tunisie (Terre de rencontres et de Civilisation), Seville, 1992.

7- **Frank. T,** Roman Imperialism, New York, 1929.

8- __________, A history Of Rome,1st.Edition, New York, 1947.

9- **Gilman. A,** Rome (From The Earliest Times To The End Of The Republic), 7th Impression, 3rd Edition, London, 1950.

10- **Grant. M,** History of Rome, London, 1960.

11- **Hammond. N.G.L,** A History of Greece to 322 B.C., Oxford, 1959.

12- **Harden. D**, "The Phoenicians On The West Coast Of Africa", Antiquity (QRA), No. 87, 1948, England.

13- __________, The Phoenicians, London, 1963.

14- **Heitland. W.E,** A Short History Of The Roman Republic, Cambridge, 1929.

15- **Herm. G,** The Phoenicians (The Purple Empire Of The Ancient World), (Translated By: ***Caroline Hillier)***, 1st Edition, London, 1975.

16- **Holmes. T.R,** The Roman Republic And The Founder Of The Empire, Vol. I (From The Origins To 58 B.C.), Oxford, 1923.

17- **Howgego. C,** "Ancient History From Coins", (AJA), Vol. 105, 2001.

18- **Huchinson's History Of The Nations,** "The Phoenicians And The Carthaginians", Vol.1-11, part. VIII, London, (Not Dated).

19- **Khader. A & Soren. D,** Carthage: A Mosaic Of Ancient Tunisia, New York, 1987.

20- **Lancel. S,** Carthage (A History), (Translated By: *Antonia Nevill)*, 1st Edition, Oxford, 1997.

21- **Mommsen. T,** The History Of Rome, Abridged By: Bryans. C. & Hendy. F), 1st Edition, U.S.A, 1960.

22- **Moscati. S,** The World Of The Phoenicians,(Translated From The Italian By: ***Alastair Hamilton)***, London, 1968.

23- **Motley. M,** Africa (Its Empires, Nations And People), Detroit, 1969.

24- **Ogrizek. D,** North Africa, (WCS), London, 1996.

25- **Perry. A,** Carthage And Tunis (Past And Present), New York, 1869.

26- **Picard. G & C**, Daily Life In Carthage At The Time Of Hannibal, (Translated From The French By: ***Foster. A.E)***, London, 1961.

27- **Powell. E.A,** In Barbary (Tunisia, Algeria, Morocco And The Sahara), New York, 1926.

28- **Rostovtzeff. M,** A History Of The Ancient World, Vol.2 (Rome), (Translated From The Russian By: ***Duff. J.D),*** Oxford, 1933.

29- **Scullard. H.H**, Roman Politics (220-150 B.C.), Oxford, 1951.

30- ________, "The African Elephant", (NC), Parts 1-2, 6th series, vol. XI, No. XLI, 1951, London.

31- ________, "Cannae: Battle-Field And Burial Ground", Historia, Band. IV, London, 1955.

32- ________, Scipio Africanus: Soldier And Politician, London, 1970.

33- ________, A History Of The Roman World (From 753 To 146 B.C.), London, 1979.

34- **Sladen. D,** Carthage And Tunis (The Old And New Gates Of The Orient), Vol. 1, London, 1906.

35- **Soren. D, Khader. A, & Slim. H**, Carthage (Uncovering The Mysteries And Splendors Of Ancient Tunisia), London & New York, 1991.

36- **Tarn. W.W,** "The Fleets Of The First Punic War", (JHS), Vol. 27, 1907, London.

37- ________, Hellenistic Military And Naval Developments, Cambridge, 1930.

38- **Toynbee. A.J,** A Study Of History, Vol. 2, London, 1935.

39- **Warmington. B.H,** Carthage, London, 1960.

40- **Wilkinson. E.G,** The Conquest Of Italy And The Struggle With Carthage (753 To 200 B.C.), London, 1929.

41- **Wilkinson. S,** Hannibal's March Through The Alps, Oxford, 1911.

ثالثاً: المراجع العربية و المترجمة:-

١- **إبـــراهيم نـــصحي:** تاريخ الرومان، الجزء الأول (منذ أقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق.م)، منشورات الجامعة الليبية كلية الآداب، بنغازي. ليبيا، ١٩٧١.

٢- **إحسان حقي:** تونس العربية، المكتبة المغربية، دار الثقافة- بيروت، ١٩٦١.

٣- **أحمـــد أرحـــيم هبو:** تاريخ الشرق القديم(١) سورية، الطبعة الأولى،بيروت-صنعاء، ١٩٩٣ .

٤- **أحمد صفر:** مدنية المغرب العربي في التاريخ، الجزء الأول (عشرون قرنا من تاريخ أفريقية من عصور ما قبل التاريخ إلى آخر العهد البيزنطي)، تونس، ١٩٥٩.

٥- **أحمـــد فخـــري:** بـــين آثـــار العالم العربي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، سبتمبر ١٩٥٨.

٦- **الأمـــين علـــي الأمين:** العقائد الفينيقية في المدن الطرابلسية الثلاث، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الزقازيق، ٢٠٠٦.

٧- **الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر:** قرطاج البونية تاريخ حضارة، تونس، ١٩٩٩.

٨- **آمال سعيد محمد نور فرج:** صورة الربة إيزيس علي التمائم والجعارين المصرية في قرطاج، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٩٣.

٩- **توفـــيق الطـــويل:** قـــصة الكفاح بين روما و قرطاجنة، الطبعة الثالثة، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٥.

١٠- **جـــان مازيـــل:** تـــاريخ الحـــضارة الفينيقية (الكنعانية)، (ترجمة/ ***ربا الخش***، تقديم ومراجعة: ***عبد الله الحلو***)، الطبعة الأولى، سورية، ١٩٩٨.

١١- **جايمس هنري براستد:** العصور القديمة،(ترجمة/ ***داود قربان***)، بيروت،١٩٨٣.

١٢- **جـــيهان ديـــزانج:** "البربر الأصليون"، موسوعة تاريخ أفريقيا العام، المجلد الثاني، تورينو، ١٩٨٥.

١٣- **حسن حسيني عبد الوهاب:** خلاصة تاريخ تونس، الطبعة الثالثة، تونس، ١٩٥٦.

١٤- **دونالـــد.ر.ددلـــي:** حـــضارة روما، (ترجمة/ ***جميل يواقيم الذهبي وفاروق فريد،*** راجعـــه: د/***صـــقر خفاجة***)، الألف كتاب (٥٣٩)، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٤.

١٥- **رشـــيد الناضـــوري:** المغـــرب الكبيـــر. (١) العـــصور القديمة (أسسها التاريخية الحضارية والسياسية)، القاهرة، ١٩٦٦.

١٦- ـــــــــــــــــــ: المغرب القديم، بيروت، ١٩٧٥.

١٧- **رمـــضان عبده علي:** تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته (منذ فجر التاريخ حتى مجـــيء حملـــة الاســـكندر الأكبر)، الجزء الثاني (الأناضول- بلاد الشام)، الطبعة الأولى، القاهرة،يناير ٢٠٠٢.

١٨- **ســـيد أحمد علي الناصري:** تاريخ وحضارة الرومان من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٢.

١٩- **شارل اندري جوليان:** تاريخ أفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي ٦٤٧م)، (ترجمة/ محمد مزالي والبشير بن سلامة)، تونس، ١٩٦٩.

٢٠- **شارل فيرولللو:** أساطير بابل وكنعان، (ترجمة/ ***ماجد خير بك***)، دمشق،١٩٩٠.

٢١- **شـــوقي خير الله:** قرطاجة العروبة الأولى في المغرب، الطبعة الأولى، دار النشر: مركز الدراسات العلمية والمركز العلمي، تونس، ١٩٩٢.

٢٢- **عـــبد الحميد زايد:** الشرق الخالد (مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من اقدم العصور حتى عام ٣٢٣ق.م)، الناشر: دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٢.

٢٣- **عـــبد العزيـــز عـــبد الفـــتح عمر حجازي:** البحرية القرطاجية (دراسة في دورها الحربـــي)، رســـالة دكـــتوراة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، فبراير ١٩٨٥.

٢٤- **فرانـــسوا ديكـــريه:** قرطاجة أو إمبراطورية البحر،(ترجمة/ ***عز الدين أحمد عزو،*** مراجعة وتحقيق/ ***عبد الله الحلو***)، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٦.

٢٥- **فوزي مكاوي**: "الفيل الأفريقي ودوره في الحروب القديمة"، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد السادس، القاهرة، ١٩٧٧.

٢٦- ـــــــــــــ: "تطور نظام الحكم في قرطاج"، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد الثامن، القاهرة، ١٩٧٩.

٢٧- ـــــــــــــ: "العلاقات بين قرطاج وروما قبل اندلاع الحروب البونيقية"، مجلة كلية الآداب. جامعة طنطا، العدد الثاني، ١٩٨٥.

٢٨- **كارلهاينز برنهردت**: لبنان القديم، (ترجمة/ ***ميشيل كيلو***، مراجعة: ***زياد منى***)، الطبعة الأولى، سورية، ١٩٩٩.

٢٩- **ج .كونتنو**: الحضارة الفينيقية، (ترجمة/ ***محمد عبد الهادي شعيرة***، مراجعة: ***طه حسين***)، الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

٣٠- **لبيب عبد الساتر**: الحضارات، الطبعة الثالثة عشرة، لبنان، ١٩٩٣.

٣١- **مادلين هورس ميادان**: تاريخ قرطاجة، (ترجمة/ ***إبراهيم بال***)، الطبعة الأولى، بيروت- باريس، ١٩٨١.

٣٢- **محمد أبو المحاسن عصفور**: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم (من أقدم العصور إلى مجيء الاسكندر)، بيروت، ١٩٧٩.

٣٣- ـــــــــــــ: المدن الفينيقية، بيروت، ١٩٨١.

٣٤- ـــــــــــــ: معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، بيروت، ١٩٨٧.

٣٥- **محمد الصغير غانم**: التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، الجزائر ولبنان، ١٩٨٢.

٣٦- **محمد الهادي الشريف**: ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، (ترجمة/ ***محمد الشاوش ومحمد عجنية***)، الطبعة الثانية، تونس، ١٩٨٥.

٣٧- **محمد بيومي مهران**: المغرب القديم، الإسكندرية، ١٩٩٠.

٣٨- ـــــــــــــ: المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم)، بيروت، ١٩٩٤.

٣٩- **نجـيب ميخائـيل إبـراهيم**: الـشرق الأدنى القديم.سورية (مصر والشرق الأدنى القديم٣)، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.

٤٠- **هارفـي بورتـر**: موسوعة مختصر التاريخ القديم، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١.

٤١- **هارولـد لام**: هانيـبال، (ترجمة/رشدي السيسي، مراجعة/ ***توفيق الطويل***)، الألف كتاب (٤٢١)، القاهرة، ١٩٦٢.

٤٢- **وارمنجـتون. ب.هـ**: "العصر القرطاجي"، موسوعة تاريخ أفريقيا العام، المجلد الثاني، تورينو، ١٩٨٥.

٤٣- **يولـي بـركوفيتش تسيركين**: الحضارة الفينيقية في أسبانية، (ترجمة/ ***يوسف أبى فاضل***)، (مراجعة/ ***ميشال أبى فاضل***)، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٨.

رابعاً: المواقع الإلكترونية:-

1- www.carthage. edu, carthage- classics Ancient History of Carthage, 12/4/2006.

2- www.en.wikipedia. org, wikipedia, the free encyclopedia, 12/4/2006.

3- www. Phoenicia. org, Elissar, Dido, the Queen of Carthage and her City, 19/4/2006.

4- www. Iam.Classics.unc.edu, Carthago: History And Mythology, 19/4/2006.

5- www. Xenohistorian. Faithweb. Com, A history of Africa, Chapter3:Carthage (814 to 264 B.C.), 19/4/2006.

ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية

and their common life, moreover, the position of women, child in this society. In regarded with the second part, it deals with the civilized figures in the Carthaginian society like, art and music, architecture. As we can say that the art and music were almost in serve of the religious life.

The fourth chapter: talks about the cultural and religious life in Carthage. The cultural and religious life in Cartage did not was so important, and the Carthaginian priests were played so important role in the culture, because they had played the majority role in survive the mother language, the culture and the civilization of Carthage in Africa after destroy the city itself and ending it's power upon it. They continue to many centuries after the Roman occupation (invasion).

The Carthaginian religion was Phoenician in it's roots, although all the foreign influences which effected it like Greek and Egyptian influences and others, so the punic gods society still at almost Phoenician in roots. In generally it was circle around the idea of fertile and fertility that regarded with the nature and the human life.

The fifth chapter: deals with the end of Carthage and destroy it by Romans, through talks about the punic wars with it's three stages which extended from 264-146 B.C. By the end of these wars fall great civilization, still fill the world through seven centuries that is "***Carthaginian Civilization***". As this research included a conclusion, in addition to appendix including some pictures, figures and maps which serve the research.

In the primary chapter: I talked about -in briefly study- (Tyre) (the ancient mother land for Carthage) and the natives from barbarians and their civilization before the arrival of Carthaginian people to there.

In the first chapter: I talked about -in generally - city of Carthage by talking about the myth of it's construction by Elissa (Dido) and it's development from merely a small colony to a great city on the Mediterranian, and it's trade. Also commander of the Phoenicians colonies in all the west. Moreover, it's deals with the date of establishing, and the geographical situation and it's distinguishing. Moreover, planning the city and it's regulation and it's system of rules.

In the second chapter: I talked about the economic activity for the city of Carthage like, agriculture that because Carthage was enjoyed with many of agricultural lands that protected it from starving, specially, in wars and crisises, also the industry that was raising that for existence of the materials and the external markets, furthermore, existence of the suitable circumstances for commercials exchange at wide stage, but it was not enough in regarded with the qualities and making, as it was distinguished with tradition for Greek and Egyptian styles, and others. And this was harmonic with international trade. The trade was progressing and raising by far, and so because the Carthaginian people were so interested with trade, and they did a lot of things to protect commercial profits of Carthage and developing the trade. Moreover, the exploration voyages which made by Carthaginian people for open a new markets, in addition to, search for a new routes to the mines instead of the ancient routes which were occupied by the Greeks after overcoming the Carthaginians in the battle of "Hiemera" in 480B.C.

The third chapter: deals with, in its first part, the social sides in the life of Carthaginian people, and their tradition, customs, foods, clothes,

THESIS SUMMARY

This research is shed light upon the civilization of Carthage, which had created in the African north. Then extended from there to include many parts from Africa, Italy, and Spain......itc.

The Carthaginian civilization is back to the Phoenicians and their civilization in it's roots, and so the Carthaginian people inherited about their grandfathers the Phoenicians, the sea nature , and their great interested with trade, Specially, the sea trade. Carthage was so clever in the navigation in Mediterranean and its different routes, also they cleaned it from thieves and pirates, till became have the only power on it, and on its trade.

The trade was supply of wealth and greatness for Carthage and that was the main reason which made the other people hated Carthage, and they became enemies for Carthage, because these people were prevented from this commercial wealth by Carthage and then these people had entered in great wars to win with some commercial privileges (pledges), and this was the main reason to make Carthage enter in somewhat, permanent wars, and the resulte of that was weakness and collapse of Carthage at the end.

In this research I talked about the city of Carthage from its establishment by some of emigrants from city of (Tyre) the Phoenician city by the command of the princess "Elissa" in 814 B.C, till it's fall in the end in 146 B.C by the Romans after the Punic wars had finished. That wars were between Carthage and the Romans, these wars which had taken more than one century (264-146B.C). And I divided this research into primary and five chapters.

Helwan University
Faculty of Arts
History Deprtmen

Civilization of Carthage

Aresearh submitted by
Sanaa Saad Sayed Farag
(M.A.Degree)

Under Supervision of
Prof. Dr. Mahmoud Ibrahim El Saadany
Professor of History & Greaco- Roman Civilization, Helwan University
Head of the Dept. of Modern Greek, Misr University

2007